

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة البليدة 2

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

الأبعاد الفكرية و الجمالية في أدب الرحلة
رحلات ملوك العرب لأمين الريحاني نموذجاً

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الأدب العربي

إشراف الأستاذ الدكتور:

عبدلي محمد السعيد

إعداد الطالب:

محمد سرير

السنة الجامعية: 2016 / 2017

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة البليدة 2

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

الأبعاد الفكرية و الجمالية في أدب الرحلة
رحلات ملوك العرب لأمين الريحاني نموذجاً

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الأدب العربي

إعداد الطالب:

محمد سرير

أمام اللجنة المشكلة من:

أ.د عبد الله شطاح	أستاذ التعليم العالي	جامعة البليدة 2	رئيساً
أ.د عبدلي محمد السعيد	أستاذ التعليم العالي	جامعة البليدة 2	مشرفاً ومقرراً
أ. حميداتو علي	أستاذ محاضر "أ"	جامعة البليدة 2	عضواً
أ.د درواش مصطفى	أستاذ التعليم العالي	جامعة تيزي وزو	عضواً
أ.د علاوي حميد	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	عضواً
أ. سرقمة عاشور	أستاذ محاضر "أ"	جامعة غرداية	عضواً

السنة الجامعية: 2016 / 2017

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

أهدي هذا العمل إلى

والدي الكريمين

إلى زوجتي و أبنائي عادل و إيفاس

إلى كل من مدّ لي يد المساعدة

كلمة شكر و تقدير

أتقدم بالشكر بعد الله تعالى إلى أستاذي الكريم الذي أشرفه على هذا العمل الدكتور محمد السعيد عبدلي، فلولاه لما رأى هذا البحث النور، فكثيرا ما أفادني بنصائحه و توجيهاته، رغم انشغالاته الكثيرة.

أدعو له الله بأن يجزيه عنا خير الجزاء، و أن يحفظه بدوام الصحة و العافية

كما أشكر لجنة المناقشة التي قرأت هذا العمل، و أفادته بملاحظاتهما القيّمة.

ملخص الأطروحة:

تعتبر الكتابة عنصر مكون للذات الإنسانية، فقد مارسها عبر أزمنة مختلفة متعاقبة، مؤرخة لأعماله وحياته، فقد كتب يومياته وتاريخه، كما كتب رحلاته المختلفة التي ارتحل فيها إلى أماكن مختلفة برا وبحرا، وقد اخترت الرحالة أمين الريحاني الذي ارتحل في القرن 19 إلى الجزيرة العربية، زائرا الملوك والأمراء، تاركا لنا خطابا سرديا حاولت دراسة هذا الخطاب منطلقا من إشكالية، ما طبيعة الكتابة الرحلية عند أمين الريحاني؟.

وقد اخترت هذا البحث نظرا لشيوخ هذا الجنس الأدبي الذي يعتبر أدبا عالميا جمع بين ثقافات مختلفة، كما يعتبر ذا أهمية كبيرة شغلت العديد من الباحثين ولا زالت تعدّ إشكالية يتطرحها الباحثون في دراساتهم، كل حسب تخصصه.

لقد تتبعنا في هذا البحث مستويات الكتابة محاولا استخراج الأبعاد الفكرية والجمالية للرحلة، و التي نجدها تتفاوت من رحلة لأخرى حيث يعمل فيها الرحالة على إبراز أهم المشاهد التي يراها تخدم هدفه الرحلي، فالريحاني هنا اهتم بأخبار الملوك وسيرهم و العلاقات الموجودة بينهم.

وقد استعنت في هذه الدراسة بالمنهج الوصفي التحليلي لوصف اللغة السردية، وتحليل مضامين النص، كما استعنت بالمنهج البنوي في الولوج إلى بنيات النص ومحاولة الوصول إلى أبعد الدلالات التي احتواها النص.

وفي ختام هذا البحث توصلت إلى نتائج تبقى نسبية، فالرحلة خطاب سردي موجه للآخر، كما يعتبر راسما لصور ذهنية عنه، كما تعتبر الكتابة تخيلا لما عاشه الرحالة، مضمنا فيها ذاتيته ومواقفه الشخصية، وبالرغم من هذا تبقى الرحلة إرثا إنسانيا أصيلا، وجب دراسته بمختلف المناهج النقدية.

مقدمة

جبل الإنسان على حب المعرفة واكتشاف ما خفي عنه، فعزم الارتحال في هذا العالم، مكتشفاً مجموعة من المخلوقات، وجب التعايش معها والاستفادة منها، جاء ليجد الطبيعة والحيوان والنبات، ممتلكاً نعمة البصر والسمع، لينظر ويسمع، مخضعاً ذلك لنظام العقل، تحت عملية التأمل والإدراك، ليصل إلى استنتاجات.

تأمل محيطه فوجده يكبر بكثير عما هو حوله، خرج من بيته ليجد قريته، ومن قريته ليجد مدينته، ومن مدينته ليجد دولته، ومن هذه الأخيرة ليجد العالم فالكون، بحث في ذاته فألفاها تفتقر إلى معرفة ما يحيط بها من متغيرات اجتماعية وسياسية ودينية، فكانت بذلك الرحلة بحثاً عما غاب عنها، من حقائق وغرائب.

ثم حوّل نظره نحو بني جنسه فوجد من يشاركه في هذه المعمورة، لكنه مختلف عنه، فعزم على طلب المعرفة والاكتشاف، محاكياً ما هو موجود أمامه، فاكسب منه خبرة، ثم أبعد النظر وأرهف السمع، فعلم بوجود أقوام آخرين في أمكنة متعددة ومتنوعة، فتحرّكت فيه نوازع البحث ونمت غريزة الاكتشاف، فعقد العزم على الارتحال والتجوال من جديد، ليرى ما اختلف عنه وخفي عليه، مكتسباً بذلك تجربة، صقلت ذاته وخبراته.

كما اعتبرت الرحلة من أهم العوامل الموصلة إلى معرفة الآخر، والذات لا تكتمل إلا إذا عرفت المختلف عنها، فالإنسان في رحلة متواصلة، يعمل على اكتشاف الآخر، ولن يكون هذا إلا بالسفر إليه ومحاولة محاكاته، يقول تعالى: ((قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ))، (سورة الأنعام الآية 11)، وقوله تعالى: ((قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ))، (سورة

النمل الآية 69)، وقوله تعالى: ((قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) (سورة العنكبوت الآية 20).

لقد أمر الله تعالى الإنسان بالسير في الأرض والتدبر ورؤية أحوال الناس، وتقفي أخبارهم، حتى يدرك الفرد ذاته، ويدرك نعمة الله عليه، فذاته لن تكتمل إلا إذا عرف الآخر، ودرس تاريخه، حتى يأخذ العبرة منه، فيعمل على إصلاح نفسه، واستثمار ما يفيدته وترك ما يؤذيه، من هنا كانت الرحلة سبيلا للمعرفة، القائمة على التأمل والتدبر، واختيار الصواب للوصول إلى قمة المعرفة الإنسانية.

كما تحرك في فؤاده الشوق إلى زيارة الأماكن المقدسة، مجيبا نداء الإيمان، فكانت بذلك رحلات الحج، أو ما تسمى بالرحلات الحجازية، لزيارة مهبط الوحي، وبيت الله الذي رفع أعمدته سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، فجالت الذات في رحاب هذه الأمكنة مكتشفة علاقتها بها، واصفة الطريق، والشوق والمناسك، مخلدة بذلك أعمالا اشترك فيها الأدبي والتاريخي والجغرافي ... الخ، لا يزال الإنسان يقرؤها ويدرسها معيدا زمانا مضى، بروية فكرية معاصرة، كقراءته لرحلة ابن بطوطة الطنجي المغربي ورحلة ابن جبير الأندلسي، والشيخ الحسين الورثلاني، وابن قنفذ القسنطيني وغيرهم.

وبالرغم من هذا لم تنطفئ شرارة البحث والمعرفة، بزيارة ما هو مقدس، بل تعدت ذلك إلى معرفة حقائق الشعوب، ودراسة المسالك والممالك، فشدد لهذا الرجال، راسمة خرائط جغرافية للمعمورة، ماشية في برّها ومبحرة في يمّها، ومن أبرز من ارتحل لهذا الغرض نجد الرحالة المقدسي الجغرافي العربي في القرن الرابع الهجري (4هـ)، واضعا خريطة المسالك والممالك، في كتابه الموسوم بـ: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، كما نجد ابن فضلان في رحلته المسجلة تحت عنوان: رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة، والذي عمل على وصف عادات وتقاليد الأهالي.

لقد تعددت الرحلات بتعدد الدوافع والأهداف، فتتوعدت المواضيع، واختلفت السبل والرفقة، وتباينت المشقات وكثرت العجائب والغرائب، فلم يكتف الإنسان بالنظر والاستماع إلى ما هو أمامه وما هو محيط به، بل تعدى ذلك إلى ما هو خفيّ، فسافر إلى عالم الخلود، ملامسا ذاتيته في العالم الآخر، متأملا في حياته، مرتكزا في هذا على ما توفر لديه من خبرات وتجارب، آخذا من أولاه صورا مسقطا إياها على آخرته، ومثال ذلك كتاب: رسالة الغفران لأبي العلاء المعري.

لقد شملت الرحلات زيارة الملوك والأمراء، وقد جاءت تحت مسمى الرحلات السفارية، حيث يكون الرحالة سفيرا إلى بلد آخر بأمر من السلطان لأجل مهمة محددة، والتي في غالب الأحيان ما تكون سياسية أو ثقافية، ليخرج عن طبيعة تلك المهمة، فيأخذ منحى الأديب في الوصف والإخبار عما رآه وسمعه، ومثال ذلك رحلة رفاعة الطهطاوي المعنونة بـ: "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" أو "الديوان النفيس ببايوان باريس" ورحلة الصّفار¹ إلى فرنسا، وغيرهما من الرحلات المسجلة في تاريخ الإنسانية.

أما في الرحلات الحديثة نجد رحلات أمين الريحاني -وهو موضوع بحثنا-، نحو البلاد العربية، تلك البلاد التي جهلها وهو صغير، حيث هاجر إلى أمريكا، فأراد معرفتها وهو كبير، لذا قصد البلدان العربية حبا في التقرب من العرب، باحثا عن ذاته التي لم يجدها في أمريكا، حيث عرف في هذه الأخيرة بواسطة القراءة ما كان يجهله من أخبار العرب وتاريخهم.

فمن خلال إقامة أمين الريحاني في أمريكا عمل على قراءة كتاب اللزوميات الذي عرفه على الشاعر والفيلسوف العربي، أبي العلاء المعري، كما عرف نبي الأمة محمد صلى الله عليه وسلم، كذلك

1 - هذه الرحلة جاءت في كتاب صدفة اللقاء مع الجديد، رحلة الصفار إلى فرنسا 1845-1846، دراسة وتحقيق سوزان ميلار جامعة هارفارد، عرب الدراسة و شارك في التحقيق خالد بن الصغير، كلية الآداب بالرباط، ط1، 1995.

من خلال قراءته لكتاب "الأبطال"¹ لكارليل الانكليزي، ثم قرأ عن العرب وعن أحوالهم مما سبقه من الرحالة الغربيين وحتى العرب، فازداد حبه لهم، لتتحرك بذلك ذاته طالبة معرفة حقيقتهم، لأنه وجد في ما قرأه نقصا، فعلل النفس بإكمالها، فولى بذلك وجهه شطر جزيرة العرب، ومن بعدها المغرب والأندلس، دارسا ومحققا، ناقدًا ومؤرخًا وأديبا.

ومن هنا نلمس تنوع النص الأدبي الرحلي، فقد حوى أبعادا فكرية وأدبية، تعددت بتعدد المواضيع من جغرافيا، وإثنوغرافيا، وتراجم وسير ذاتية، وأخبار تاريخية ودينية، حاكت الاجتماعي والسياسي والثقافي، فكانت مادة أغنت اللغة الرحلية.

لقد عمل الرحالة على توظيف آلي البصر والسمع، مخبرا وواصفا، فنراه تارة مقرا مجيبا، وتارة معجبا مندهشا، و بأخرى رافضا متمردا، متعلما حينًا ومعلما حينًا آخر، تراوحت رحلته بين فضاءين تتابوا الحضور والغياب، فضاء الخوف وفضاء السلم والأمان، فكانت رحلته بين آخر موافق، وآخر مخالف، ليعيش بين المؤتلف والمختلف، من هنا نطرح مجموعة من الأسئلة التي نراها تخدم الإشكالية العامة للبحث: ما طبيعة الخطاب الرحلي؟ وما هي أبعاده الفكرية والجمالية؟.

- ما طبيعة الكتابة الرحلية؟.
- يجمع النص الرحلي بين الوصف والسرد، وكلاهما مرتبط بعامل الزمن، فكيف تجلى كل منها في النص الرحلي؟.
- كيف تمثلت الصورة في الكتابة الرحلية عند أمين الريحاني؟.
- ما طبيعة المسار الرحلي؟.

- كيف تمثل العجائبي في الكتابة الرحلية، وما طبيعته؟.

إنّ نصّ الرحلة جنس أدبي يحوي مجموعة من الموضوعات التي تحدثت عن الذات وعلاقتها بالآخر، كما نجد الرحلة من بدايتها إلى نهايتها، تريد الإجابة عن السؤال المحوري، ما هي طبيعة الذات وما علاقتها بواقعها وماضيها وحاضرها ومستقبلها، كيف تحيا وسط حياة محققة ما تريد، أو محاولة تحقيقه، لهذا نجد الرحالة يوظف ضمير المتكلم محددا موقفه اتجاه الآخر.

إن اختياري لهذا البحث كان من باب اهتمامي بهذا الجنس منذ الصغر، فقد قرأت رحلة ابن بطوطة كقصة قصيرة معدة للأطفال، كما قرأت ما كان مدرجا في البرنامج الدراسي كقصة حي بن يقضان، الذي عرف الحياة معتمدا على ذاته وفكره، حيث عاش منفردا وحيدا، ثم تدرجت في القراءة فقرأت لابن جبير وللمسعودي في مروج الذهب، لكنها كانت قراءات سريعة، حتى وقع بين يدي كتاب رحلات ملوك العرب لأمين الريحاني وباقي مجموعته المطبوعة في أعماله الكاملة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت، فأحسست بوجود شيء جديد فيه يختلف عن باقي الرحلات، فراقبت لي الفكرة وقررت خوض معركة البحث فيه.

كنت قد عرفت إلى حدّ ما فن الشعر والرواية والمقامة، وكانت ضمن البرنامج الذي درسناه خلال المسار الدراسي، لكن أدب الرحلة لم نتطرق إليه، إلا من بعض القراءات السطحية، لذا كانت هذه المحاولة لمعرفة بعضا من خصائصها، والكشف عن شخصية عربية أدبية وفلسفية.

كانت هذه الدراسة لمعرفة ذاك الآخر الذي جاء مترجما في النص الرحلي، معرفة مقيدة بنظرة الرحالة وفكره، ومعرفة أسلوب الكتابة الرحلية، كيف وظفت اللغة كأداة للتواصل و اكتساب للمعرفة.

بدأ العمل في البحث وبدأت صعوباته تظهر عند كل مرحلة من مراحله، حاولت قراءة أكبر عدد ممكن من النصوص الرحلية، لكن هذا يبقى أملاً صعب التحقق، فكانت القراءات لعدد قليل منها، فكلما تقدمت في البحث وجدت نصوصاً رحلية جديدة عربية وغربية.

كما وجدت أن هذه المادة -مادة الرحلات- عولجت بمجموعة من المناهج الدراسية النقدية، كالمقارنة في الأدب المقارن، كدراسة للواقعي والمتخيل في الرحلة الأروبية إلى المغرب، لعبد النبي ذاكر، ودرست من باب الإثنوغرافيا والأنثروبولوجيا، ككتاب أدب الرحلات لحسين محمد فهميم، كما نجد من درسها من وجهة أنها سيرة ذاتية، فهي حاوية لأبعاد فكرية وجمالية، وكل آخذ منها ما أراد، وأحياناً تحيل إلى أبعاد تاريخية أو آراء دينية فقهية، أو جغرافية، وجب عليك محاولة فهمها، لكن قد يتعذر هذا أحياناً لطبيعة الثقافة والتخصص، كما يقول عنها الناقد شعيب حليفي أنها نص ثقافي، يحوي ثقافات إنسانية متباينة.

إضافة إلى هذا فقد تعذر الوصول إلى بعض الدراسات التي تناولت أدبية الرحلة، رغم الجهود المبذولة في ذلك، إلا أنني استطعت الحصول على عدد لا بأس به، والإطلاع على هذه الدراسات كان لأجل الاستفادة، ومعرفة الطرق التي درس بها أدب الرحلة، الذي لا يزال يعد إشكالية مطروحة على الساحة الأدبية.

وقد جاءت بنية البحث مشكلة من مقدمة وتمهيد وستة فصول دراسية كانت مقسمة كالآتي: ثلاثة منها لدراسة الأبعاد الفكرية، و الثلاثة الأخرى للدراسة الجمالية.

تضمن الفصل الأول دراسة الصورة السياسية للبلدان المرتحل إليها وحاولت تسليط الضوء على السلاطين والملوك وصورة الصراع السياسي، كما تطرقت إلى صورة الإنجليز.

أما الفصل الثاني فقد خصصته لدراسة الصورة الاجتماعية موضحا فيها صورة البدو والحضر والمرأة التي اهتم بها الرحالة كثيرا، كما بينت صورة الصناعة، تقليدية كانت أو حديثة، وصورة التجارة والزراعة وموارد الماء.

أما الفصل الثالث فكان لدراسة تمثلات صورة الديني في الرحلة، مبرزاً فيه صورة الدين بين الفرد والجماعة، والممارسات الدينية الشعبية، كالصوفية، وصورة الوهابية، وصورة الكنيسة التي عمل على تصويرها شكلاً وروحاً.

كما خصصت الفصل الرابع لدراسة المسار السردى للرحلة الحجازية واليمينية والعسيرية وأخيراً النجدية، مبينا ثلاث مراحل أساسية هي: مرحلة الانطلاق ثم مرحلة العبور وأخيراً مرحلة الوصول.

أما الفصل الخامس فقد خصصته لدراسة جمالية الوصف حيث بينت تمثلاته في وصف الشخصيات التي تجلت في السلاطين والرفقاء، والمدن كصنعاء والحديدة واليمن، والصحراء، والأشياء كالقصور والفسطاط والشمس، كما تطرقت إلى ذكره لظاهرة الطعام الذي عرف اختلافاً من منطقة لأخرى.

ثم الفصل السادس الذي حوى دراسة تمثلات العجائبي والغرائبي في الرحلة، التي تجلت في المتن الرحلي، فتحدثت عن الآخر الغريب، والفضاء وحكايات العجيب، ثم ركزت على شخصية الإمام يحيى لما خصها السارد بصور العجائبي والغريب.

وختمت هذا البحث بخاتمة حاولت فيها إبراز ما توصلت إليه من نتائج.

أما من حيث المنهج فقد حاولت اتباع المنهج الوصفي التحليلي في دراسة هذه النصوص، لكن الأمر لم يكن مقتصرًا عليه فقد تعداه إلى الاستعانة ببعض آليات المناهج الأخرى كالمنهج النفسي

والاجتماعي، كما كان للمنهج البنيوي بعض الحضور في الدراسة على اعتبار أن النصّ مجموع من العناصر البنائية الفنية.

كان هذا البحث محاولة مني في إمطة اللثام عن هذا الجنس الأدبي، الذي لا أنكر أن له جاذبية خاصة، لما يحمله من تنوع معرفي، وتراكم ثقافي، حاولت وضع إضافة لدارس الخطاب الرحلي بما قرأته وبحثت فيه، وإلى ما توصلت إليه من نتائج، ولا أقول إنني تتبعت كل صغيرة وكبيرة في البحث ربما أدركت القليل وغاب عني الكثير، حسبي في ذلك أني اجتهدت وعملت، والله أسأل التوفيق والسداد.

تصویر

1. ماهية أدب الرحلة:

أكرم الإنسان بالعقل الذي دعاه إلى التأمل والملاحظة فيما يحيط به، ليجد الطبيعة بجمالها وأسرارها، ويبصر العالم الذي تمثل في ذلك الآخر، والذي أراد معرفته والوصول إليه، ففكر في ذلك ليجد سبيل المعاينة والبحث والتحقيق، خير وسيلة للمعرفة وإشباع الذات ليعمل بعد ذلك على تدوين تجربته الرحلية.

اتّجه الإنسان نحو الارتحال، باحثاً عن العلم والمعرفة، وعن حقيقة الذات، نجد الأولى وقد ضمّت كثيراً من الاكتشافات العلمية، ونجد في الثانية التعرف على الآخر، وعلى نمط حياته وتفكيره، فالرحلة هي انتقال من مكان معلوم إلى آخر مجهول، لأخذ تجربة بدراسة مميزاته، وخصائصه الاجتماعية والثقافية والسياسية والدينية.

كما نجد للرحلة طرفاً آخر تمثل في الكتابة، التي تعدّ إعادة تسجيل للتجربة الرحلية، وتعد هذه المرحلة الثانية، أما الأولى فتكون أثناء الفعل الرحلي يكون الرحالة في حالة جمع للمادة الرحلية، بما تحويه من ملاحظات عن الطريق ووصف لمخاطرها، ومخاطبة الشخصيات ومحاورتها، وملاحظة سلوكيات و أفعال الآخر، مدونا ذلك في مذكراته أو يومياته ومخزنا الآخر في الذاكرة، الذي قد يذكره و قد ينساه.

تأتي بعد ذلك مرحلة الكتابة التي تعدّ إعادة بناء للفعل الرحلي، حيث يبدأ الرحالة في إخراج مادته الرحلية التي تحولت إلى لغة، و تشكلها في خطاب منظم موجه للآخر، معتمداً على التصنيف حسب طبيعة الأحداث أو حسب الزمن أو حسب المكان، لذا نلمس في بعض الرحلات أن بعض الأحداث جاءت في البداية حسب الترتيب الزمني للرحلة، لكنها خلال الكتابة خضعت

لمبدأ ترتيب الكاتب، فيتغير بذلك ترتيبها الزمني، فالرحلة التي نحن بصدد دراستها نجد فيها أن الرحالة زار العراق قبل نجد، لكنها في المتن الرحلي حلت بعد الرحلة النجدية.

كما نجد الكاتب يضمن الكتابة أحداثاً تاريخية ومظاهر اجتماعية وأخبار ذاتية، لتكون الكتابة بذلك تدوينا للفعل الرحلي، وفق رؤية الرحالة الفكرية والفنية، مقدماً ومؤخراً في الأحداث والمشاهد، ومضمناً ما يراه خادماً لنسق الخطاب المهيمن، فإذا اختار نسقاً تعليمياً يضمن ما يوافق نسقه، ومثال ذلك حين يتكلم عن سياسة التعليم يذكر عمل السلطان في هذا الشأن، كما يذكر طبيعة التعليم ونظامه، وإذا كان بصدد نسق اجتماعي أو ديني جاء بما يناسبه، ومثال ذلك أثناء حديثه عن البدو يذكر عاداتهم وأخلاقهم ولباسهم خادماً بذلك نسقه الاجتماعي.

يعمل الكاتب الرحلي بشكل كبير على وضع اعتبار للمتلقي، كونه من أولى اهتماماته، لذا نجده يعلمه بأنه سيقدم له مادة هامة، تجمع أفكاراً وأخباراً تهمة، كما يحفها بالعجائبي والغرائب دافعا إياه إلى التدبر في القراءة مستعملاً في ذلك أسلوب التشويق، وقد يشير أن كتابه ذو قيمة علمية به فوائد جمّة، فهو خير جليس، كقول القزويني: ((فذكرت في هذا الكتاب ما كان من البلاد مخصوصاً بعجيب صنع الله تعالى، ومن كان من العباد مخصوصاً بمزيد لطفه وعنايته، فإنه جليس أنيس يحدثك بعجيب صنع الله تعالى، ويعرفك أحوال الأمم الماضية، وما كانوا عليه من مكارم الأخلاق ومآثر الآداب، ويفصح بأحوال البلاد كأنك تشاهدها، ويعرب عن أخبار الكرام كأنك تجالسهم))¹.

1 - القزويني زكريا بن محمد بن محمود ، آثار البلاد و أخبار العباد، بيروت دار صادر ، ص 6.

يعتني الرحالة أثناء ممارسة فعل الكتابة، بالبناء الفني لأحداث رحلته، ليعيش تجربة الكتابة بذات جديدة، تختلف عن الذات الأولى التي كانت تجهل كثيرا من الأحداث والمعارف، أما خلال عملية التدوين فقد أصبحت على دراية ومعرفة، مكتسبة قدرة على التعبير وعلى بناء النص الرحلي.

لقد جاء مفهوم الرحلة عند الدارسين، متعددا باختلاف وجهات النظر، وإن كان الأصل فيه ثابت، حيث نجد من تكلم عنها بصفقتها سفرا يمتد بين الذهاب والإياب تحكمه كتابات ((تقوم هذه الكتابات على أساس تنظيري يهدف من خلالها صاحبها إلى تنظيم عملية السفر، من البداية إلى النهاية، ذهابا وإيابا، مع مراعاة طريق السفر، فطريق الحج يقتضي تنظيرا مختلفا عن التنظيرات المخصصة لرحلات سفارية أو سياحية أو غيرها))¹.

كما نجد من اهتم بموضوعها بصفقتها فن تعبيرى يهتم بقضايا الإنسانية، حيث يعمل الرحالة على معالجة هموم مجتمعه، باحثا عن حلول له وموجها لسلوكاته، كما أنها تختلف من زمن لآخر، فهناك رحلات تكون داخل بلاد الرحالة أو دولته فتسمى داخلية، و هناك رحلات تكون خارج دولته فتسمى خارجية، وفي هذا السياق يقول عمر بن قينة: ((لقد نمت الرحلة الداخلية في القرن العشرين، كما اتسعت الرحلة الخارجية وانفتحت أكثر على الوطن العربي والعالم الإسلامي، بوجه سياسي نضالي، خاصة أن الوضع الجديد بعد الحرب العالمية الأولى قد فرض على الرحالة والمفكر عموما الدخول في معركة ذات جبهات مختلفة،(.....) لم تعد الرحلة إذن نزهاة خالصة

1 - مودن عبد الرحيم ، الرحلة في الأدب العربي، النص النوع السياق، المغرب، أفريقيا الشرق، (2006)، د.ط، ص 7.

ولا معلومات تاريخية أو جغرافية بحثة، بل غدت ضرباً من النضال لمصارعة البؤس والظلم والاحتلال¹.

نرى أن الدارس عمر بن قينة قد جمع بين الرحالة والمفكر، حيث جعله محطاً ودارساً للظواهر الاجتماعية، عاملاً على إصلاح مجتمعه، متخذاً في ذلك سبيل الدعوة إلى العلم، من هنا أصبح لزاماً على الرحالة أن يكون متمتعاً بشيء من العلم و النباهة.

لقد ارتبطت الرحلة بفعل الحركة الداعية إلى التنقل من مكان لآخر، حاثّة العقل على البحث والتأمل فيما يحيط به، وهذه صفة جبل الإنسان عليها، ((فالحركة روح الحياة وهي سمة أساسية في التركيب الجسدي والنفسي للإنسان، وقد هيأه الله لها وجعلها إمكانية ضرورية لحياته، تتسق مع الهدف من إيجاده، والغاية التي خلق لأجلها، وهي تعمير الأرض وعبادة الله تعالى، (...)) وإذا كان العالم اليوم قرية صغيرة، فإن العالم في الماضي كان قرى مبعثرة فوق رقعة هائلة من المعمورة، ولم يكن من سبيل لمعرفة الأحوال خارج القرية الواحدة إلا الترحال².

كما عرفت الرحلة بأنها سفر وانتقال من مكان إلى آخر، بغية البحث عن المعرفة ولأجل الإصلاح الاجتماعي، ولزيارة البقاع المقدسة، كما نجد لها دوافع متنوعة بتتنوع الحاجة الداعية إليها، حيث نجد الرحالة أثناء رحلته يتميز بدقة الملاحظة والوصف، وكأنه مطالب بتقديم دراسة عن شعب يلتقي به فهو بذلك أصبح إثنوغرافياً لذلك ((فقد اتصف أغلبية الرحالة ولو بدرجات متفاوتة،

1 - بن قينة عمر، اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، بن عكنون الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، (1995)، ص 23.

2 - قنديل فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، ط.2، مدينة نصر، مكتبة الدار العربية للكتاب، (2002)، ص 17-18.

بدقة الملاحظة والوصف والتقصي، في تسجيل مشاهداتهم بأمانة وصدق، كما حرص معظمهم على التفرقة بين المشاهدة والرواية عند تسجيل معلوماتهم، هذه كلها سمات قد أصبحت الآن بمثابة قواعد أساسية من منهجية البحث الحقلية في الدراسات الإثنوغرافية بالمعنى الحديث¹.

هناك من رأى أنّ الرحلة تتداخل مع مجموعة من الأجناس الأدبية والمعرفية الأخرى، كالفصّة والشعر والتاريخ والسيرة الذاتية، كونها تزخر بتراكم معرفي، وهو ما يطرح إشكالية تجنيس الرحلة، وهنا نجد عبد الرحيم مودن يذهب إلى أن الرحلة تتميز ((بالحوارية بين مختلف أنساقها الخطابية المشكلة لبنيتها السردية، ومن ثم فهي ملتقى لتعدد الخطابات، وبالتالي توليفة (مونتاغ) من قبل الرحالة أثناء استعماله لمختلف الأنظمة اللغوية والتواصلية شعرا و نثرا².

إن المتن الرحلي يبني على خطابات متنوعة، فالرحالة يعمل على توجيه خطابه لمتلقين مكوناتهم الثقافية مختلفة، فيعمل على أن يجد فيها كل قارئ ما يفيد، حيث يعتبر النص الرحلي نص إنساني جامع لمختلف الممارسات الاجتماعية والثقافية، وهو ما يحمل كلا من الرحالة بالدرجة الأولى والقارئ ثانيا على اكتساب المعرفة والمتعة، كما تزداد قوة التجربة الفكرية ثراء لدى الكاتب، يقول المسعودي: ((ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمي إليه من الأخبار عن إقليمه، كمن قسم

1 - حسين محمد فهمي، أدب الرحلات، عالم المعرفة العدد 138، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص 16.

2 - مودن عبد الرحيم، أدبية الرحلة، ط.1، الدار البيضاء، دار الثقافة للنشر و التوزيع، 1996، ص 10.

عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكنه¹.

فالرحلة تعتبر رمزا لتجربة إنسانية وجب الإطلاع عليها والاستفادة من تجاربها، إذ أن الفكر الإنساني حبل متواصل لا تستطيع فهم آخره إذا لم تتطلع على أوله، لذا يعمل الفرد على تطوير ما هو صحيح، و يصحح ما هو خاطئ، فالرحلة تهذيب للفكر والنفوس و تقويم للسلوك، وهنا نجد رحلة ابن حمادوش التي ذكر فيها مجموعة من السلوكات التي يجب الإطلاع عليها لتقويم الخلق، يقول الأستاذ أبو القاسم سعد الله: ((ذلك أن ابن حمادوش رغم عقلانيته النسبية، كان يمثل عصره وأذواق معاصريه، وعلى الشباب العربي المسلم أن يتعلم من أخطاء الأوائل وضعفهم، فلا يقع هو في نفس الخطأ والضعف، وما أوجنا إلى المصلحين النقاد الذين يحولون سلبيات الماضي إلى ايجابيات تخدم الحاضر والمستقبل))².

وما قاله الأستاذ سعد الله، ينطبق مع المتن الرحلي الذي نحن بصدد دراسته، فقد حوى الإصلاح ودعا إليه، مستعملا أسلوب التشخيص مشيرا إلى الضرر، وداعيا إلى تصليحه، فقد وضح أخطاء القدامى داعيا إلى نبذها والأخذ بما ينفع الناس أجمعين، جاعلا الرحالة في رتبة المصلح الاجتماعي.

1 - المسعودي أبو الحسن علي ، مروج الذهب و معادن الجواهر، تحقيق سعيد محمد اللخام، ج1، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع، 2000، ص 20.

2 - بن حمادوش عبد الرزاق الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري، تقديم و تحقيق أبو القاسم سعد الله، الجزائر، عالم المعرفة، طبعة خاصة 2011، ص 24.

إن الصدق في الحديث الرحلي أمر مطلوب وضروري، حتى يكتسب النص قوة وإقناعاً للقارئ، و إن حوى غرائب وعجائب فهي إخبار عن الواقع كما هو، هذا ما يبرزه الطهطاوي في مقدمة رحلته ((و قد أشهدت الله سبحانه و تعالى على أن لا أحيد في جميع ما أقوله عن طريق الحق، و أن أفشي ما سمح به خاطري من الحكم على استحسان بعض أمور هذه البلاد وعوائدها، على حسب ما يقتضيه الحال، و من المعلوم أنني لا أستحسن إلا ما لم يخالف نص الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأشرف التحية))¹.

كما تضمنت الرحلة كثيراً من الطرافة هادفة إلى الإمتاع والمؤانسة، موظفة ما هو غرائبي، مما شاهدته عين الرحالة من العادات والتقاليد، ومن عجائب الطبيعة، فالرحالة يخضع لمنطق الحكيم والسرد، والقارئ يأخذ معرفة محددة من خلال وجهة الرحالة، على اعتبار أن الرحلة نمط سردي خاضع لمنطق الرحالة وفكره، يقول سعيد بن سعيد العلوي: ((إن الرحلة إنباء عن ذهنية الرحالة وتصوير لمكونات الوعي الثقافي، عنده أكثر مما هي حديث عن البلد، موضع المشاهدة، أو إخبار عن القوم أهل البلد أو الإقليم موضوع الزيارة، ينطبق على الرحلة، إلى حد بعيد ذلك التعبير الفرنسي القديم إذ يقول عن الحانات الإسبانية، إن المرء لا يجد فيها إلا ما يكون هو نفسه قد حمله إليها))².

1 - الطهطاوي رفاة رافع ، تخلص الإبريز في تلخيص باريز، سوسة تونس، دار المعرف للطباعة والنشر، ص 07.

2 - العلوي سعيد بن سعيد ، أوروبا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث و دراسات رقم 12، ط1، (1995)، ص 15.

إنّ الرحالة يعمل على نقل ثقافة محددة من مكان معين إلى مكان آخر، ينتقل بأفكاره وثقافته ماثراً ومتأثراً، هذا ما نجده مثلاً في رحلة ابن فضلان لما ارتحل إلى بلاد الروس معلماً إياهم ثقافة العرب، والدين الإسلامي، وفي نفس الوقت كان يأخذ ثقافتهم بعين الفقيه والمتأدب، لكنه امتاز بنظرة التعالي، فثقافته هي الأصل حيث وجدها هي الأفضل، كما يكون الرحالة آخذاً من الآخر ما رآه خادماً لإنسانيته، ((فأدب الرحلات يهتم بعملية المثاقفة والصراع القيمي الذي يحدث داخل عقل المرتحل، وبالأسئلة التي تلمع في ذهنه أثناء مشاهداته وتأملاته حياة الشعوب الجديدة وعاداتها بالنسبة إليه، بحيث لا تتحدد ماهية كتب الرحلات بصفتها كتباً جغرافية أو تاريخية، بقدر ما تتحدد بصفتها كتباً علمية تأملية فلسفية وأنثروبولوجية))¹.

وبالتالي فإننا نلمس مما سبق أن الرحلة حوت كتابة بضمير الأنا المحاور لذلك الآخر، مركزة على فعل الحركة المحدود داخل دائرة الزمان والمكان، كما تتطلب ملق، يمتلك عينا قارئة، تستطيع الولوج إلى مقاصد الكتابة وتحليل دلالاتها، فهي نص حامل لتراكم خطابي، يجمع بين فكر الرحالة وموقفه الإيديولوجي، وبين ثقافة الآخر، فتكون الكتابة بين الرفض والقبول، وبين النقد والإبداع، بين الذات والذات الأخرى.

فالرحلة نص جامع لمجموع من التعابير الإنسانية من تاريخ وقصة وحكاية وشعر، تحكمها سلطة الكتابة التي تحفظ لها استقلاليته عن باقي الأجناس، ((كما تصبح الرحلة بمختلف أنواعها نصوصاً قابلة لانتسابات مفتوحة، تنطلق من كونها أشكالاً تعبيرية استطاعت من خلال التراكم الذي استدعته الضرورات الثقافية والتاريخية الحضارية، أن تؤسس لبناء وصوغ مستقلين ومتفاعلين

1 - الشيخ عبد الرحمن بن إدريس التتيلاتي، الرحلة، تحقيق خير الدين شترة، بوسعادة الجزائر، دار كردة للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، 2015، ص 10.

داخل منظومة النصوص السردية العربية، استقلالا إيجابيا منفتحا على أشكال أخرى قريبة وبعيدة، وتؤسس أيضا إدراكا متنوعا للواقع والتمثيل، فيتسع الإدراك في النص بين واقع مشاهد وآخر متخيل، مما يقود إلى توليد واقع ثان، يحمل خطابه و نسقه الخاص والعام¹.

1 - حليفي شعيب ، الرحلة في الأدب العربي، ط.1، القاهرة، رؤية للنشر و التوزيع، (2006)، ص 44.

2. ترجمة أمين الريحاني:

أمين الريحاني، الأديب اللبناني الذي ولد بقرية الفريكة شمال لبنان، هذا البلد الذي أحبه كثيرا و تغنى بجمال رياحينه و أشجاره، و جباله، و كتابه الرحلي الذي عنوانه بـ: **قلب لبنان**، خير شاهد على هذا الجمال، و ذكر لبنان لا يفارقه في كتابته، فهو دائم الذكر له، بالرغم من أنه عاش في أمريكا فترة ليست بالقصيرة.

ولد أمين الريحاني في الرابع و العشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1876، في قرية الفريكة من قرى لبنان التي نسب إليها، فعرف بفيلسوف الفريكة.

أما أبوه فارس الريحاني فقد كان يشتغل بصنع الحرير، وأمّه أنيسة بنت جفال طعمه البجاني شيخ قرية الحمراء قرب الفريكة كانت متعبدة محافظة تعني بشؤون منزلها وعائلتها بخوف الله¹.

درس تعليمه الأول في مدرسة الشدياق متى، وفي سنة 1886 انتقل إلى مدرسة نعيم المكرزل، في قرية الشاوية جارة الفريكة، تميز بقوة الذكاء و قوة الشخصية و الطموح.

يروى أمين الريحاني بعض الأحداث التي وقعت له وهو صغير، مبيّنا مهنة أبيه في صناعة الحرير مستعملا ضمير الغائب في الخطاب ((كان لأحد أصحاب المعمل ولد صغير في الربيع الرابع من عمره، رأى بغلا ذات يوم مربوطا بشجرة التوت أمام الباب، فحدثته نفسه

1 - جميل جبر، أمين الريحاني في سيرته و أدبه، مراجعة بشير قبّطي، ط1، 2006، سلسلة ما قل و دل، نوفل، ص 07.

بالفروسية، دنا من البغل و فك رسنه ثم صعد إلى الحافة و منها إلى ظهره، مشى البغل متباطئاً متحقاً أمره، فنثل الصغير الرسن، ففهم البغل معنى ذلك، و راح يخب ثم يعدو فتقلل الفارس الصغير وهوى إلى الأرض في تلك الفينة، وهو بين الأرض وجلال البغل، رآه أحد الجيران فصاح مستجدا بمار أنطونيوس شفيح الأولاد ومار شليطا شفيح الدواب، و هرع إلى الصغير فلمه، وحمله دامي الرأس إلى أمه¹.

بعد حديثه بضمير الغائب يعود في استعمال ضمير المتكلم، مخبراً عن الأحداث التي مازالت راسخة في ذهنه، يقول: ((قلت في الفصل السابق وفيما أنا قائل الآن ما كانت تقصه الوالدة علينا في سويغات الحبور، ولكني لا أزال أذكر أربعة أشياء و أتمثلها كما كانت، أوكما حدثت منذ خمس وخمسين سنة، أولها ذلك البغل الذي رماني إلى الأرض، وكاد يكسر رأسي، وثانيها تلك الحقنة التي كسرتها أنا على رأس الخادمة مانه (.....) ومما رسخ في الذهن من رحلة عزروز ركوبي البغلة أمام أمي وتطويقها إياي بذراعها عندما كنا نهبط أنصعد في الطريق، و ما نسيت فرحي بالطوق الفضي، والحداء الأسود اللماع الطويل، ذي العرى العديدة الصفر، أما ما سوى ذلك فالعهدة فيه على أم أمين².

1 - الريحاني أمين ، قلب لبنان، ط.1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980، ص 391.

2 - المصدر نفسه، ص 398.

بعدها صار سنه اثنا عشرة سنة في سنة 1888 سافر مع عمه إلى أمريكا طلبا للرزق،
 ((كنت في الثانية عشرة من عمري عندما سافرت للمرة الأولى إلى الولايات المتحدة المتحدة، فلم
 أكن أعرف غير اليسير من اللغتين العربية والفرنسية))¹.

بقي أمين في واشنطن يزاول العمل نهارا، ويدرس ليلا وقد جرب حظه في التمثيل والرسم،
 ومارس الكتابة، وبعد مرور عشر سنين في غربته عاد إلى لبنان سنة 1898، طالبا هدوء الطبيعة
 و التداوي بعليل نسيمها، بعدما تعلم اللغة الانكليزية وأراد أن يعلمها، فالتحق ((بمدرسة قرنة
 شهوان التابعة لأبرشية قبرص المارونية راح يدرس الانكليزية، ويتعلم العربية، بعد أن كاد ينساها،
 وفي نهاية هذا العام الدراسي رجع إلى نيويورك ليملك فيها خمس سنوات يحترف في أثناءها
 الأدب))².

رجع الريحاني إلى أمريكا، ودخل عالم السياسة، و انعكف على كتابة المقالات في
 الصحف، ونجد من بينها نحن وجمعياتنا 1900، الحكومة الديمقراطية، 1900، الأحزاب السياسية
 والأحزاب الدينية 1902، وفي سنة 1911 كتب روايته باللغة الانكليزية والتي عنونها ب: خالد، فقد
 حققت راجا كبيرا على الساحة الأدبية، من هنا بقي الريحاني ممارسا للأدب، كاتباً في الجرائد
 ومراسلا الأدباء ناقدا ومحللا محيطه.

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب،، ط.2، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1986 ج1، ص01.

2 - جورج غريب، أدب الرحلة تاريخه و أعلامه، المسعودي ابن بطوطة، الريحاني، بيروت، دار الثقافة، ص 94.

تزوج الريحاني سنة 1916 بالرسامة الأمريكية برتاكس، حيث سافر وإياها في رحلة إلى أوروبا في زمن كانت فيه الحرب العالمية الأولى مشتعلة، حيث زارا باريس وإسبانيا، ولكن هذا الزواج انتهى بعد مرور ثلاث وعشرين سنة، ولم يرزق الرحالة أولادا.

و في سنة 1922، عزم الريحاني على الارتحال إلى البلاد العربية، التي عرفها من خلال قراءاته الأجنبية عن العرب، كما قرأ عن شاعرهم أبي العلاء المعري، الذي تأثر بشعره وعلمه كثيرا، وقد أرخ له بقصيدة في كتابه الموسوم بـ: **هتاف الأودية** بشعر منثور، حيث يعد الريحاني أول من كتبه يقول:

إلى أبي العلاء

في منازلك الرحبة الوادعة

ترسل شمس العقل أنوارها

و في أروقتك الظليلة الهادئة

تحرق الحكمة عبير أزهارها

إنك و إن حجب النور عن ناظريك

ففي قلبك عيون ترى

إنك و إن كنت السجين فما عليك

وأنت الفكر الطلق بين الوري¹.

لقد أحب الريحاني العرب وأشاد بهم في كل ما كتب، داعيا إياهم إلى العمل، وإلى الاتحاد، والاهتمام بالعلم، وترك تلك العصبية المفرقة، والمظاهر الخادعة، لتحقيق القومية العربية.

قام الرحالة برحلات أخرى زار فيها بلاد المغرب الأقصى والأندلس، متحمسا للقضية العربية عامة والفلسطينية خاصة، فبقي مناضلا متزعما النزعة التحريرية، كما شهد الحروب بين البشر، فبادر إلى الإصلاح باسم الإنسانية، وبأن يخدم الفرد الجماعة، داعيا في ذلك إلى التسامح الديني.

و في سنة 1940 انطفأت شمعة المفكر والرحالة العربي، أمين الريحاني، إثر حادث أليم، فقد اعتاد ركوب دراجته كل صباح والسير بها على أطراف الوادي، إذ كان محبا للطبيعة عاشقا لسحرها، ركبها ذات صباح قاصدا الجبل المليء بالتواءاته، فانحرفت به الدراجة، نتيجة ما كان ينتابه من رجفة عصبية، نقل على إثرها إلى المستشفى حيث بقي فيه تسعة وعشرين يوما، ولما تحقق من موته طلب العودة إلى الفريكة، وكانت آخر ابتهالاته "يا إلهي إرحمني"².

من آثاره مع تاريخ نشرها:

- نبذة عن الثورة الفرنسية، 1902، المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية، 1903.

1 - الريحاني أمين ، هتاف الأودية، ص 120.

2 - صحراوي عبد السلام ، أمين الريحاني في حياته و رحلاته، اتحاد كتاب العرب، سلسلة الدراسات 4، (2010)، ص 41.

- المكاري والكاهن 1904، سجل التوبة 1909، الريحانيات 1910، 1911،
1923، 1924، رحلات ملوك العرب، 1924.
- قلب لبنان 1947، المغرب الأقصى 1952، كما نجد له مؤلفات باللغة
الانكليزية.

3. دوافع الرحلة:

إن الدافع في الذات البشرية هو النواة الأساسية في إرادة التغير، من وضعية معينة إلى وضعية أخرى، والانتقال من مستوى معين إلى مستوى آخر، إذا كانت الحياة تعد انتقال من زمن إلى آخر، ومن مكان لآخر، فقد مثلت بذلك رحلة تملؤها تحولات وتغيرات، يحكمها الفعل المستمر في الزمان والمكان.

إن دوافع الرحلة تتنوع وتختلف من رحالة لآخر، حسب الحاجة وحسب النقص الذي يعانيه الرحالة، ويريد أن يعوضه ويعمل على ملأ فراغه، فتكون الرحلة بذلك فعل وبحث عن ما هو ناقص وغائب في الذات، بحث مبني على وعي مؤسس، في لحظة تأمل وتساؤل، فالدافع قد يكون ذاتيا، كما يكون موضوعيا.

1. الدوافع الذاتية:

أ. حب المعرفة والاكتشاف:

إذا ما نظر الفرد حوله وجد ما يثير الدهشة والإعجاب، فيطرح عدّة تساؤلات أكثرها لا يجد له جوابا مباشرا، فيعمد إلى البحث والتنقيب، ومما يلفت نظره حين يقرأ ما حوله من كتب، أمور جمّة تمس كل جوانب حياته من تنظيم وتشريع، كما يجد أخبار السابقين من الأمم، وكيف كانت حياتهم بين شقي وسعيد، وأخبار الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

يرى فيجد نفسه غريبا في بيئة غريبة عن طبيعته، فتتأدّى عرويته المغروسة بداخله، مبعدة إياه عن عالم ضيق، لتقربه من عالم فسيح المنظر والفكر، عالم يمتد بجذوره في التاريخ، يدرك أن

ما يملكه من معلومات هو أقل بقليل مما هو كائن، هناك عالم آخر لم يره، ولا يعرف عنه شيئاً، هي أمة وجبت رؤية آثارها، ومعرفة سلوك أهلها، وطبيعة حياتهم، إلى جانب هذا هناك ملوك وأمراء، فقهاء وأصحاب حكمة، وجب الوصول إليهم وأخذ العلم منهم.

من هنا نلاحظ ظهور دافع ذاتي للرحلة، المتمثل في معرفة البلاد العربية، التي يعد الرحالة واحداً منها، و طبيعى أن الفرع يعود للأصل، فهي أصله فيها بني جنسه، كما أراد معرفة مهبط الوحي، وأين بزغ نور الإسلام، ورؤية شواهد الرسل عليهم السلام، والصحابه رضوان الله عليهم، كما يلاحظ حياة الشعب الملازم له، من أعلى مرتبة مثلها السلطان، إلى أدنى مرتبة ممثلة في الفقير.

ب. حب الطبيعة:

من خلال ما كتبه الرحالة أمين الريحاني نلمس حبه الكبير للطبيعة، وذلك من خلال ذكره المتكرر لمعالم الطبيعة، من أشجار و وديان، وأنهار، كما ذكر الجبال والماء، فكثيراً ما يذكر بلده لبنان الذي كثيراً ما ينشد بهاءه و جماله الساحر، من علو للجبال وذكره للتلوج البيضاء التي تغطي المكان، وللأزهار المتناثرة في أرجائه يقول: ((وسرنا في أرض خضراء تقوح من أدغالها روائح النباتات الطيبة، ومررنا بوادي الذهب ولا حيف بالاسم، فهو من أجمل الأودية وأخصبها في اليمن الأسفل، تجري فيه المياه ويزرع ثلاثاً في السنة الواحدة، (...)) ثم دخلنا في ما يدعى نجد الأحمر، وهي بقعة من الأرض الحمراء صخورها تعلو أربعة آلاف قدم عن البحر، فجف الهواء، وبرد الماء،

وتعددت حولنا النباتات والرياحين، التي ذكرني بعضها بلبنان فهو ذا البيلسان وذاك اليانسون، و
في تلك الأدغال شجيرات من البطم والغار¹.

ج. حب الذات:

إذا تتبعنا دلالات الكتابة في النص الرحلي، نلمس بروز ذاتية قوية، فقد استعمل ضمير
المتكلم المفرد، حيث وصف الحالة النفسية التي كثيرا ما عانت من الخوف، كما عانت التعب
والإرهاق، لكنها لم تتوقف وواصلت المثابرة فتميزت بالقوة والعزيمة، هذا ما أثبتته الكتابة التي هي
في ذاتها إثبات على وجود الذات.

إن تأكيد الخبر على السفر وتحديد زمانه ومكانه إثبات للفعل، وللذات المتحركة، فهي
الذاتية التي تطفو على سطح الكتابة وتصاحب السرد في جميع مراحلها، نراه يكلمنا عن البحر الذي
ينم عن ذاتية يروم فيها لقاء الأحبة والأهل، رام السكينة وبعضا من الراحة بعد عناء طويل من
وعناء السفر ((البحر! ذاك الخطر الأزرق على الأفق أمانا، ذاك العلم الأزرق على ساحل العزلة
العربية، ذلك الطريق، إلى الأهل، إلى الأوطان، إلى المدينة، وفيها الأمل الكبير بالعود إلى الحياة
والجهاد. البحر! إن ألطف ما لقيناه بعد صنعاء وتهامه و أبهج ما شاهدته آنذ العين إنما هو
البحر))².

فالرحالة ركز هنا على فعل المشاهدة الذي يثبت صفة ذاتية، فالذات هي المريدة للرؤية،
والباحثة عن إشباع رغبة مدفونة في الأعماق، رغبة قد يشبع بعضها نظرة إلى البحر، ذاك قد

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1 ص 105.

2 - المصدر نفسه، ج1 ص 268.

يبعث بنوع من الطمأنينة، بعد خوف كادت تذهب الروح فيه رخيصة، تظهر قوة الذات في المواجهة والقدرة على المواصله، فهناك هدف داخلي وجب تحقيقه.

كما تظهر ذاتيته أيضا في موافقته على ما يراه موافقا لحاله وثقافته، ومعتقده، فيرى للشخصية المماثلة امتدادا لشخصيته، يقول في هذا السياق ((كان السلطان محسن أدبيا ذكي الفؤاد، عصريا في آرائه وأعماله، محبا للإصلاح والعمران، عالي الهمة بعيد النظر شديد البأس ثابت العزم والإرادة، فباشر في أيامه القصيرة إصلاحات كثيرة في الجندية والمالية والمعارف))¹.

إن الكتابة استرجاع للذكريات، تسترجع الذات حسا قد مضى لكن أثره لا زال موجودا يتذكر لحظة امتزج فيها الخوف بالعزم والثقة، فهي الذات المصممة على التقدم، إصرار قد يشكل على المتلقي فهم كل دواخله، لماذا يواجه الموت لأجل رؤية مكان يبدو بسيطا، وله عنه متسع في أمكنة أخرى، هذا ما يؤكد إثبات الذات في صورة التحدي ((لست أدري وأنا أعيد ذكرى تلك الأيام ما الذي تغلب فيّ على ذلك الترويع، إذا لم يكن ثباتي على أحد أمرين وهما تقتي التامة بإخواني العرب، وعزمي على إنجاز ما باشرته من السباحة الدراسية))².

تعود الذات إلى أصلها، فلا تنفك الكتابة تتطلق وتنساب حتى تتخللها ذكرى العودة إلى الديار، نوع من البكاء على الأطلال، يذكر الرحالة لنا مشهدا حين وصل إلى صنعاء، حيث كان في استقباله جنود الإمام يحيى، دخل بيتا في حي "بئر العزب"، ذكره بأرض لبنان، ذكره بأصالته التي يعمل على تطويرها وتخليدها بفعل الكتابة: ((وعندما وصلنا إلى بئر العزب، أي الحي الذي

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج 1 ص 424.

2 - المصدر نفسه، ص 88.

يسكنه أغنياء صنعاء، و فيه قصور الإمام ومركز الحكومة، ودخلنا البيت الذي أقمنا بعدئذ فيه بميدان الشرارة كان الخيال في الانتقال إلى لبنان وإلى الشام أبهج وأتم، البيت صغير و لكنه في الذوق و أسباب الراحة كبير))¹.

إن ذات الرحالة في الرحلة واقعة بين منزلتين، الخوف والرجاء، فقد خاف من الموت، والمرض، والتعب دون أن يغنم شيئاً، وأمل في النجاة والفوز، لكننا نلمس الأمل في النجاح هو الغالب، حيث يخبر بذلك القارئ فيقول: ((لا تسل أيها القارئ كم كان سرورنا عظيماً عندما دخل أحد الحجاب في اليوم السابع يبشرنا بقدوم الحضرة الشريفة، جاء الإمام يزورنا في منزلنا، و الحمد لله مزيل الشكوك من قلوب عباده))².

كما تميزت ذاته بالرفض لتصرفات الآخر، فأبرز بذلك اتجاهها في فكره، الذي دعاه إلى السياحة في البلاد العربية، إذ أحب أن يبرز ما يراه حقيقة و صائبا، فقد ألف قول ما يراه حقاً، حاملاً رسالة الإصلاح و الإنسانية لكل ذات ترى في الوجود معنى للحياة ((أي أخي الزيدي، ما الفائدة من الصلاة وليس في قلبك غير البغض؟ بغض العالم خارج اليمن، وبغض الخنازير النصارى، وبغض اليهود في بلادك، حتى وبغض الشوافع إخوانك في الإسلام، إن صلواتك وماء الشاذروان سواء))³.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج 1 ، ص 122..

2 - المصدر نفسه، ص 168.

3 - المصدر نفسه، ص 188.

2. دوافع موضوعية:

أ. معرفة الملوك و الأمراء و العمل على تعريف الواحد منهم بالآخر:

كانت رحلات أمين الريحاني، موجهة بالدرجة الأولى إلى معرفة ملوك وأمراء العرب، فعمل على زيارتهم واحدا تلو الآخر، حيث بدأ بالملك حسين حاكم منطقة الحجاز، الذي التقى به في منطقة جدّة، و بدأ يدرس شخصيته وسياسته، متلمسا في ذلك بواطن القوة والضعف، كما عمل على تقديم الحلول التي يراها مناسبة للملك ولشعبه، فعمل على تحليل الشخصية ودراستها حتى يستطيع التفاوض، ليصل إلى نتيجة منطقية ومرضية.

إن الملك والأمراء من العرب، فقد نشأوا وسط بيئة عربية، تتصف بمجموعة من الصفات التي تلزم صاحبها بها، كما تعد هذه الصفات دافعا للآخر يبغي معرفتها يقول: ((رافقت العرب في خروجهم على الترك أثناء الحرب، رافقتهم في المجالات الإنكليزية والجرائد العربية، فكنت أقوم في ما أكتب ببعض الواجب الذي يفرضه الحب والإعجاب، وتوفقت في تلك الأيام إلى زيارة الأندلس فوقفت في الحمراء في الغرفة التي كتب فيها واشنطن أرفين، كتابه النفيس، فسمعت أصواتا تتناديني باسم القومية ومن أجل الوطن، وتدعوني إلى مهبط الوحي و النبوءة))¹.

أراد من الكتابة والرحلة ترجمة الأمراء وقد صرح بهذا في مقدمته، لكنه استثنى منهم الملك حسين، وذلك لميزة خاصة، فباقي الأمراء يجهل بعضهم بعضا، وأحيانا لا يتعدى علم الأمير حدود بلاده، لكن الملك حسين عالم بكثير من أخبار العرب، وعاداتهم وتقاليدهم، كما يعلم أخبار باقي الملوك والسلاطين: ((فإننا لو استثنينا الملك حسينا وابنه الملك فيصل قد لا نجد بينهم، من يعرف

زميله الملك معرف شخصية خاصة، أو يعرف من الأقطار العربية معرفة حقيقية تامة غير القطر الذي هو حاكمه¹.

ولهذا نجد الرحالة يعتمد على منهجية السؤال والاستفهام، بغية الحصول على المعرفة، الخادمة للرحلة، فهو قد انطلق من معرفة محددة، أراد توسيعها والوقوف على دقائقها، حتى يتسنى له المقابلة والمقارنة، والفهم فتتسع بذلك الكتابة ((كنت أغتم الفرصة عندما يفك حبوته أو يعقدها، فأسأله سؤالاً لا علاقة له بالموضوع ملتصقا لفعلتي العذر في حب العلم وفي السياحة من أجله².

عمل الرحالة على كتابة اتفاقيات ومعاهدات بين الملوك، محاولا الوصول إلى اتفاق بينهم، فكانت كل رحلة صغرى هي دافع لرحلة تلحقها، مراسلا وسائل، منتظرا وباحثا عن مساعدته في تحقيق مآربه.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج 1 ، ص 9.

2 - المصدر نفسه، ص 34.

ب. الدافع السياسي:

كان الرحالة يقطن في أمريكا، التي هاجر إليها من منطقة الفريكة بلبنان، مع عائلته طلباً للرزق، فعمل في تجارة الحرير مع عمّه، وكان شغف القراءة يستهويه فعمد إلى مطالعة الكتب الأدبية باللغة الإنكليزية، ثم توجه للتعليم العالي فالتحق بالجامعة دارساً للحقوق، هذا ما أتاح له التأمل في الفكر الإنساني فعمد إلى المقارنة بين الأفكار والممارسات الاجتماعية، ليتوصل إلى نتيجة مفادها وجود عالمين متباينين، عالم أوروبي مسيطر، وآخر عربي مسيطر عليه، فقد عرف الأول مبصراً بمواطن القوة والضعف فيه، إلا أن القوة تغلب فيه، وحول بصره شطر العالم العربي، فأبصر أيضاً قوة وضعفاً، لكن الثاني هو الغالب.

وجد لكل من العالمين سياسة تميزه عن الآخر، وهذه السياسة مختلفة من بيئة لأخرى، فقد كانت سياسة الأوروبي منفتحة على العلوم، فعرف بذلك شعبها تطوراً وازدهاراً، أما سياسة العربي فتميزت بالانغلاق على نفسها، فكانت بذلك رهينة للجهل والتبعية.

فقد تمثلت هذه الفترة بوجود أمراء عرب، تتجاذبهم غريزة حبّ السلطة، وقبائل تُغير إحداها على الأخرى بغية التوسع في المرعى والحصول على المال، وعلى رأس هذا عامل آخر له دور كبير في السياسة العربية، تمثل في الأتراك المسيطرين تارة ومحاربين تارة أخرى، فتعددت الهجمات، وضعفت القوى، وهلكت نفوس وشردت عوائل.

و في مقابل هذا طرف آخر تميّز بالقوة والذكاء، وعرف كيف يستفيد من الظروف الراهنة، فعمل على دراسة الذهنية العربية، فرآها تتميز بالضعف المتحكم فيه الجهل والخوف والطمع

والأثانية، فعمل على دخول البلاد العربية بحجة حماية مصالحه الإقتصادية، هذا ما سهل له التوغل في بلاد العرب، ومعرفتهم عن قرب، فأحكم قبضته عليهم.

أدرك الرحالة هذا ولمسه وهو قاطن في أمريكا، فقرر الرحلة، لمعرفة كل طرف على حدى، محاولا الوصول إلى اتفاق بينهم، فعمد إلى الدعوة القومية العربية، مساعددا العرب على التقرب من بعضهم بعضا، لتتحد قواهم فيستطيعون مواجهة الآخر الذي سيطر عليهم بقوته العسكرية، و أمواله الوافرة.

هذا الاستعمار الذي نجد على رأسه الحكومة البريطانية التي تدرك حقيقة العرب، وكان ذلك بما قامت به وزارة المستعمرات، حيث أجرت دراسة سوسيولوجية مكنتها من معرفة حقيقتهم، هذا ما يؤكد الريحاني قائلا: ((فهي تصدر كتابا عن البلاد العربية¹، مبنيا على تقارير و كلائها السياسين والسياح العلماء، تصححه وتعيد طبعه كل بضع سنوات، وهو مع ذلك لا يخلو من الأغلاط إذا نظر في ما يختص بكل قطر منه ابن القطر العالم بشؤونه كلها، زد على ذلك أن الكتاب لا ينشر للعموم وقلما يرى خارج الدوائر الرسمية))².

أدرك الرحالة أن العرب يعيشون في جوّ يعمه شيء من الانغلاق الثقافي، فلا يطلعون على ثقافات غيرهم من الأمم الأخرى، ولم يتمتعوا ببعد النظر القائم على الوحدة القومية، كل حاكم منشغل بحاله، مستنصر العدو الأوروبي على أخيه العربي، ويقبض مشاهرة على قتاله لأخيه، وقد يضعف في اتخاذ قرار يخدم شعبه وأمته، إذا ارتبط الأمر بمواجهة المستعمر، وتوسيع نفوذه،

1 - (manual of arabia) هو كتاب تاريخي إحصائي جغرافي سياسي في البلاد العربية، تطبعه وزارة المستعمرات وتوزعه على الوكلاء السياسيين و السفراء و القناصل لدولة بريطانيا فقط.

2 - الريحاني أمين، رحلات ملوك العرب، ج 1 ، ص 11.

ومثال ذلك ما كان بين الإمام يحيى والسيد الإدريسي، فلو اتفقا على منطقة الحديدة، كان ذلك خيرا لهما، لكنهما تنازعا، فكان ذلك لصالح المستعمر.

قام الرحالة برحلته، محاولا دراسة البيئة والذهنية العربية، فعمل على تحريك روح القومية بينهم، يقول: ((ها أنا إذن في هذا الكتاب، ولا فخر ولا اعتذار، أعرف سادتي ملوك العرب بعضهم إلى بعض تعريفا يتجاوز الرسميات والسطحيات، وليتحقق سادتي أن ليس في الثناء في ما كتبت تزلف أو مDAHنة، ولا في النقد تشيع أو تحامل، إنما غايتي القصوى تمهيد السبيل إلى التفاهم المؤسس على العلم والخبر اليقين))¹.

ج. الدافع الثقافي:

إن الجانب الثقافي في الرحلة يعتبر عنصرا بانيا، فالحسّ التعليمي، هو دافع أساسي في الخروج من أرض الألفة إلى أرض اللامألوف، فالرحالة يعمل على محاكاة ما هو واقعي محاولا الاحتكاك بالآخر، لأجل تطوير معرفته وقدراته العلمية.

يحدثنا الرحالة في مقدمة كتابه رحلات ملوك العرب، أنه خرج من وطنه لبنان وسنه اثنتا عشرة سنة، لا يزال في بداية التعليم ولم يأخذ إلا الشيء اليسير من المعرفة، لا يعرف حقيقة الأمة التي ينتمي إليها، وما عرفه يعد مجرد خرافات يقول: ((كنت في الثانية عشرة من عمري عندما سافرت للمرة الأولى إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فلم أكن أعرف غير اليسير من اللغتين العربية والفرنسية، وما كان في ذهني من العرب وأخبارهم غير ما كانت تسمعه الأمهات في لبنان

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج 1، ص 11.

صغارهن، هس، جا البدوي! و البدوي والأعرابي واحد إذا رامت الأم "بعبعاً" تخوف به أولادها، هجرت وطني وفي صدري الخوف ممن أتكلم لغتهم، والبغض لمن في عروقي شيء من دمهم، والبغض والخوف هما توأما الجهل¹.

نجد الرحالة يفتقر إلى معرفة كبيرة عن العرب، هؤلاء العرب الذين قرأ عنهم في غير موطنهم في أميركا، قرأ عن أبي العلاء المعري الذي تأثر بأسلوبه كثيراً، قرأ عن نبي العرب محمد عليه الصلاة والسلام، و قد ضمّن معرفته هذه في سرده الرحلي، لذا نستطيع القول أن الدافع التعليمي كان دافعا أساسيا في الرحلة إذ ((نرى بأن المكوّن التعليمي هو أهم مكون في الرحلة على الإطلاق، فلولا لما ارتحل الرحالون، ولولا لما ألفوا، ودونوا تجاربهم، وحولوها إلى مكتوب، فتمشيًا مع روح نسقهم التعليمي نقلوا إلى متلقيهم، ومن يقتسم معهم النسق التعليمي، تجاربهم وما شاهدوا وما سمعوا وما عاشوا وما تعرضوا له²)).

فمن أنواع المعرفة التي بحث عنها الرحالة واهتم بها وصفه للمسالك والمدن، وذكره لمعلومات جغرافية، التي أدرجها في منته الرحلي، كذكره لأنواع المناخ المنتشرة على الجزيرة العربية، فقد كان مهتما بصفة الطرق، و أسماء النباتات وذكر أمكنتها، فقد قرأ عن البلاد العربية وعن أعلامها وجمالها في أميركا، فأثر ذلك عليه وعزم على التجوال في تلك البلاد التي يعرفها الأجنبي أفضل منه، يقول: ((كل هؤلاء من الأجانب يسبحون في بلاد كانت قديما ولا شك بلاد

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج 1، ص 1.

2 - الساورى بوشعيب، الرحلة و النسق، ط. 1، دار البيضاء، دار الثقافة، 2007، ص 95.

أجدادي، ويخاطرون بأنفسهم فيها حبا بالعلم فيكتشفون منه المخبأ، ويجلون المصدأ، ويقربون البعيد، ويغربون في اللذيق المفيد، وأنا في نيويورك كئيب يحمل كتاباً¹.

لقد شملت معرفة الرحالة الجانب التاريخي، فكما تبين أن الرحالة قرأ كتباً عن تاريخ العرب، وعن بلادهم، لكن هذه المعرفة بالتاريخ تبقى ناقصة، إلا إذا رأى تلك المواقع التي حكيت عنها تلك الحوادث، ويرى أحفاد أولئك الأجداد الذين شيدوا الحضارات، كيف يفكرون ولماذا آل بهم الأمر إلى ما هم عليه الآن.

د. الدافع الديني:

لم تكن غاية الرحلة موجهة إلى دعوة دينية معينة، فديانته المسيحية، لكنه لم يذكرها في رحلته إلا ما جاء عفويا، حين يذكر النصارى، أو حين تكلم معه الإمام يحيى حاكم اليمن عن المسيح، وقيل له سمي المسيح لأن رجله مسحاء، أما ما خلا ذلك فكان الدين عنده مبنيا على التساهل و التسامح.

إن الدين عند الريحاني انبنى على معاملة الإنسان لأخيه الإنسان معاملة كريمة، هذا هو مبدأه العقائدي ولا يهمه أي دين يتبع، فقد قال أن كل الداعين إلى الدين بشتى أنواعه كلهم دعوا إلى السعي وراء الخير وحب المنفعة العامة، واحترام الإنسان لأخيه الإنسان، فقد التقى في الجزيرة العربية بالسني والشافعي، والشيوعي الزيدي والجعفري، كلهم من جنس واحد لكنهم لا يحتكمون إلى عقلانية الدين، كما يذكر الحركة الوهابية، وماذا فعلت في نجد وفي باقي البلاد العربية.

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ص 5.

كما جال الريحاني في البلاد العربية، مؤكداً على ترك العصبية، والاعتصام بمبدأ الإنسانية، حتي يحيا الكلّ في سلام، هذا السلام الذي يريده أن يكون واقعا بينهم، وبأن يؤمن به كل واحد منهم خاصة ملوكهم وأمراءهم، ((وإذا كان الدين، بالنسبة إلى الريحاني، ظاهرة لازمة وإيجابية لكل مجتمع، إلا أن التعصب الديني الذي يحمل الناس على تفضيل الأنبياء والرسل بعضهم على بعض غير لازم، وغير واجب بل هو مضر وهذا التعصب الديني هو آفة الشرق الكبرى))¹.

إنّ رحلة الريحاني كانت موجهة إلى تعديل السلوك الديني، الخادم للجميع، لأجل تحقيق حياة دستورها العدل والمساواة والعمل.

هـ. الوحدة القومية:

من أسمى ما حلم به الريحاني، و آمن به وجاهد لأجله، هو الوحدة العربية، التي يراها أمراً لا بد منه، ونجد أغلب كتب الرحلة² التي ألفها، كلها تدعو إلى هذا المبدأ الأساسي، فلولا لا يتحقق المقصد الجوهري للحياة، فما معنى حياة الفرد وهو غير آمن في بلده، يخاف غارة من جاره، وكل قبيلة خائفة من جاراتها، وكل أمير مسلح ومنقرّ الجنود لغزو أرض أمير آخر، وذاك بيت واحد يقتل فيه الأخ أخاه لأجل الزعامة.

1 - الريحاني أمين و التجدد العربي تحديات التغيير في الأدب و الفكر و المجتمع، مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع جامعة سدني أستراليا، دراسة لعصام خليفة، بعنوان: الدين و العلمانية، ط.1، 2012، بيروت، ص 185.

2 - ألف رحلات ملوك العرب، قلب لبنان، قلب العراق، المغرب الأقصى، نور الأندلس.

كل هذا كان يراه الريحاني ماثلاً في البلاد العربية، فحزّ في نفسه جرحاً بليغاً، فهياً المتاع للرحلة، متجشماً المشاق والمصاعب في سبيل هدفه الأسمى تحقيق الوحدة القومية، تحدث مع الملوك، وحاوّر الأهالي والجنود، فقد تكلم مع المحتل المتخفي في ثوب الحامي، إذ حاول وضع حبل وصل بين الجميع فالأرض تسع الكل، فجلّ ما عليكم التهاور والتفاهم.

كان كلامه موجهاً لخدمة هذا الدافع، فتجلى في الكتابة السردية، متخذاً عدّة صور سياسية واجتماعية وثقافية ودينية، ((إن الخطة المثلى التي تستقيم فيها مصلحتهم ومصلحة العرب، هي أن يعقدوا والأمراء عهوداً ودية تجارية، بدون مادة الحماية، مبنية على الثقة المتبادلة والمصالح المشتركة، وأن لا يكون للسياسة ولا لإدارة الاستعلامات دخل فيها))¹، فهذا من الحلول التي اقترحها الرحالة لحفظ الوحدة، فقد تفاهم بين الانكليز وبين أمراء العرب، وتركهم يتاجرون ويتحاورون وفق ما يحدّدونه بأنفسهم من قوانين واتفاقيات، هم قادرون على معرفة طريقهم، لكن هذا يكون دون تدخل الأجنبي، جاء الريحاني من وراء البحار ليعرّف العرب بعضهم بعضاً، ويعرف قوميته، التي أحبها واعتز بها، لذا أراد أن يعرفها لكل العرب ولكل العالم.

جمعه لقاء مع الإمام يحيى، الذي بادره بالأسئلة ليعرف سبب مجيئه إلى البلاد العربية من أمريكا، وما حقيقته، وما دينه، فأجاب الرحالة: ((إني جئت من وراء البحار وأقاصي الديار عملاً بعاطفة لا قوة للقومية بسواها، ولا عز للأمم بدونها، فإننا مهما استرسلنا في حب الإنسانية المطلق لا ننسى إذ كنا منصفين حب الوطن الخاص، وهذا الحب يحملني اليوم على السياحة في البلاد العربية، فإني وإن كان لبنان وطني الصغير، وسوريا وطني الكبير، أنتسب إلى البلاد العربية

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 207.

وطني الأكبر ..وإني، وإن كانت المسيحية ديني ودين أجدادي، أدين بدين كل من أقام حقاً وأزهق باطلاً، بل أدين بدين فلاسفة العرب، وشعرائها الكبار كالغزالي، وابن الفارض، والمعري أبي العلاء، بل أدين بدين كل من قال بالوحدة العربية وتجديد مجد العرب، وسعى في هذا السبيل سعياً شريفاً خالصاً لوجه الله¹.

هذه هي صورة الرحالة أمين الريحاني لخصها في قوله هذا، هو رحالة محب للعرب، مخلص لكل من أخلص لهم وسعى إلى تجديد مجدهم، دون طمع في منفعة مادية، سعى لوجه الله، جاء من لبنان محاولاً توضيح الصورة الحقيقية للعرب، فقد كانت المجالات تكتب بكل ما تسمعه آذانهم، لكنهم لا يرون شيئاً بأعينهم، جاء ليروى ويسمع، ثم ليكتب عن دراية وعن يقين.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج 1 ، ص 131.

الفصل الأول

الصورة السياسية

عمل الرحالة في كتابة نصّه الرّحلي على تصوير مشاهد ومواقف عاشها أثناء تنقله المستمر خلال فترة رحلته التي بدأها من منطقة الحجاز، والتي أشار فيها إلى صورة السلطان مجسدا إياها في بعض مواقفه التي عاشها معه، لينتقل بعدئذ إلى منطقة اليمن وعسير ونجد، حيث نجده في كل مرة يصف ويحاور ويفكر من خلال مواقف السلاطين، فيقدم للقارئ صورة يراها هو موافقة لهم، فكان بذلك الرّسول الناقل لأخبارهم وأصبح المتلقي الذي يرى هؤلاء السلاطين من خلال منظر الرحالة وذاتيته.

مثل السلطان ذاك الآخر الذي يتجسد فيه الغريب والمبهم الذي يريد اكتشافه، فقد جاء الرحالة من منطقة أخرى تختلف عن المنطقة المرتحل إليها، من حيث التركيبة الاجتماعية والفكرية والدينية، فقد جاء بفكر مغاير، محاولا محاوره فكرهم، الذي كان يجهل أكثره، وما يملكه من أخبار كان عن طريق الإعلام والكتب والرسائل، لكن حقيقة الآخر لم تصله، فأراد معرفتها بنفسه، وكان هذا من الدوافع الأساس لرحلته.

في مقابل صورة السلطان نجد صورة المستعمر الإنجليزي الذي عرف عنه بعض صفاته وممارساته، من خلال معاصرته له داخل الجزيرة العربية، فكان بالنسبة إليه آخر أجنبا، أراد معرفة هويته في فضاء عربي، فكان بذلك محاولا الجمع بين آخرين: آخر عربي يماثله جنسا وإقليميا، و آخر غربي يخالفه في الجنس والفكر، فحاكى الطرفين وأتى بالخبر في سرده، محاولا إقناع المتلقي برأيه وإبصال فكرته وفق ما وصفه من مشاهد وأقره من أخبار.

إنَّ الرحالة قد لمس ذاك الصراع السياسي، الذي ولد العنف القائم بين السلطان العربي والمستعمر الإنجليزي، وأفراد المجتمع، فوصف ذلك من خلال صور جاءت منطوية تحت السرد الرحلي، لتكون الكتابة تثبيتا للأخبار والمواقف، وتوضيحا للذاتية مقابل الغيرية، التي كانت دافعا أساسيا للرحلة ثم إلى الكتابة، التي تميزت بتنوع الخطابات فالرحلة ((نصّ ينتمي للنسق الثقافي بكافة حقوله، لكنه رغم امتداداته يظل مشدودا إلى دائرة الأدب، لما يحمله من خطاب المتخيل والأسئلة المتجددة معه دوما))¹.

هكذا جال ذهن الرحالة في ثقافة الغير وفي أرضهم، مخبرا وواصفا وفق خياله المتفتح على الآخر، ومواجهها مجموعة من المتلقين الذين قد تختلف مشاربهم الثقافية، وبالتالي تختلف أحكامهم، لكنه مارس فعل الكتابة وأوصل الفكرة، الدالة على تصوّره.

1. صورة السلطان:

من المواقف الأولى التي تعرض لها الرحالة، وجاءت كنقاط أساسية في نصه الرحلي هي صورة السلطان، حيث نجده كلما دخل منطقة إلا وبدأ بسرد أخبار عن سلطانها، وأحيانا قبل أن يدخلها، مؤكدا أنّ هذا الأخير هو اليد العاملة والعقل المدبّر لشؤون البلاد، كما أن رحلته كانت مبنية على تحقيق التعارف بين الملوك، لهذا نجده يهتم بأخبارهم، وهو بذلك يماثل كتابات الرحّالين الذين سبقوه، ونذكر على سبيل المثال رحلة ابن جبير الأندلسي "تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار"، ورحلة ابن بطوطة "تحفة

1 - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي التجنيس، آليات الكتابة خطاب المتخيل، ط.1، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، 2006، ص 9.

النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" لذلك كان كلما حلّ بمنطقة عمل على وصف السلطان، وذكر أخباره.

أ. الملك حسين:

الملك حسين هو ملك الحجاز، ويعتبر السلطان الأول الذي زاره الرحالة، يقدم لنا صورة عنه واصفا إياه، و مخبرا عن طريقة حكمه و تعامله مع شعبه ومع الإنجليز، حيث نجد الرحالة في ذلك معبرا ومخبرا بأسلوب مباشر تارة، و تارة أخرى غير مباشر، فهو حيناً متعجبا ومادحا، وحيناً آخر رافضا لبعض القرارات السياسية الداخلية والخارجية، هذه ميزة يمتاز بها الرحالة فهو ناقد ومحلل، يبدأ بإعطائنا صورة لما أبصره بفكره يقول: ((أجل إنّ في محيا الملك حسين سيماء جلال طبيعي، لم أشاهد مثله في غيره من ملوك العرب، بل فيه تتجلى روحانية شرقية، قرنت بالتأديب الغربي، ولا غرو وهو من بني نبي من سلالة الرسول))¹.

إنّه يعمل على المقارنة بين ما وجد عليه السلطان وبين ما هو عليه الفرد الغربيّ، وضع له صورة يجمع فيها بين العربيّ والغربيّ، فروحه عربية امتازت بأدب غربيّ، هي نظرة الريحاني للملك، إنّها صورة عمل على تركيبها من خلال خياله الوصفي، معتمدا على ممتلكاته الثقافية والعاطفية، ((الصورة تمثيلية فردية أو جماعية، حيث تدخل عناصر ثقافية وعاطفية موضوعية وذاتية))²، وتاج ذلك أنه من سلالة الرسول عليه الصلاة والسلام، ويواصل ذلك بإبراز شكله الخارجي قائلا: ((فهو رقيق الأديم صافيه، عدل

1- الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، تقديم و تحقيق أمين ألبرت الريحاني، ط.2، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1986، المجلد الأول، ج1 ص 27.

2 - علوش سعيد، مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، ط.1، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني، 1987، ص 482.

الأنف دقيقة، له جبين رفيع وضاح، يظهر بكمال بهائه عندما يرفع العقل و يلبس العمامة، وفي ناظريه نور يشع من حدقتين عسليتين، تحيط بهما هالة زرقاء، وله فوق ذلك ابتسامة ما عرفت أجذب منها للقلوب غير ابتسامة خصمه ابن سعود السلطان عبد العزيز))1 .

نلمس هذا الوصف الدقيق الذي يدلّ على أنّ الرحالة قابل السلطان وتأمّله، فخالج ذلك إحساسه، ورسخت صورته في ذهنه، فجاءت الكتابة راسمة لذلك، كما يخبرنا عن طريقة تعامل الملك معه، معلنا عن علاقته معه وعن تواضع الملك حين أهدها لباسا عربيا يقول: ((لبست القميص البدوية ذات الأردن، ثم العبادة ثم عقال الذهب وتمنطقت بالخنجر ورحت توا أشكر صاحب الجلالة، فلما رأي في هذه الصورة بسط ذراعيه هاتفا: يا حبيبي يا عيني!، و ضمني إلى صدره و قبلني، فأحسست من شدة التأثير بشيء غشي عيني فبادرت إلى مكان المنديل من ثوبي الجديد، فما وجدت حتى الجيب فيه، فمسحت الدمع بردائي فضحك جلالته و قال: حقا إنك بدوي الآن))2.

هي سياسة الملك المكرم لضيّفه و العامل على إسعاده، إنّ الرّحالة يعمل على تجسيد صورة السلطان وطرق منافذها من نواح عدّة، فيرسم لنا صورته الخلقية، ثم يلحق ذلك بصورته الفكرية الدالة على حب العروبة وتقاليدها، يربط الرحالة بين صورته الفكرية الدارسة لشخصية السلطان وبين صورته العاطفية التي تميل إلى حب العرب، فذات الرحالة أصبحت منساقّة لآخر متأثرة به، ثم يواصل الوصف في إظهار حكمة السلطان التي تتجلى في معاملته لأفراد فرقته الموسيقية التي كان الملك لا يحبّها، لكنها عادة هاشمية أراد أن ينهيها بحكمته يقول: ((ومن تقاليد هذه الجوقة أن رجالها لا يعزلون ولا

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 27.

2 - المصدر نفسه، ص 43.

يبدلون، فيخدمون فيها مدى الحياة، وعندما يموت أحد أفرادها يعين الملك من يخلفه، وهاك طريقة صاحب الجلالة والحكمة في وضع حد لهذه النكبة واستئصالها، مات منذ سنين راعي (صاحب) الدف فلم يعين خلفا له ، ومات في السنة الماضية أحد الزمارين فقال الملك وما الضرر إذا نقصت زمرا، ثم مات راعي الطبل فكان سرور الملك عظيما، وإنه بعون الله وعزرائيل ليتخلص تدريجيا من الجوقة كلها))1، هي مواقف الملك من بعض العادات التي تحافظ عليها الأسرة الملكية، لكنه تمرد على بعضها محاولا تجسيد ما يراه صوابا.

تتواصل وتيرة الإخبار لكن بشكل جديد، فبعدها كانت الصورة محددة في المدح ستتحول إلى النقد وإظهار النقائص الملاحظة في سياسة الملك والمتمثلة في فشله مع الانكليز والأتراك، وحتى مع العرب فقد اتخذ من الدين ستارا لقضاء حوائجه غير مبال بواقع الحياة وما تحويه من تغيرات اجتماعية ومستلزمات سياسية ((على أنه إذا أنعمنا النظر في سيرة الملك حسين وفي ما له من الدهاء وغريب أساليب السياسة نتأكد أنه اتخذ الدين أو العاطفة الدينية في العرب سبيلا إلى تحقيق مقاصده))2.

كما يفصح الرحالة عن نبذه لصفة الأنانية والطائفية، التي تكون مانعا قويا لاتحاد العرب وتحقيق القومية يقول: ((ولعمري أن ملوك العرب لا يفلحون ولا يفوزون فوزا تحسن نتائجه وتدوم، ما داموا يتخذون الطائفية وسيلة لتأدية سيادتهم وتحقيق مقاصدهم وتعزيز العصبية فيهم، والملك حسين في فوزه وفي خيبته برهان شريف على ما أقول))3، قد أعطى لنا الرحالة صورة الملك حسين أول ملك زاره في

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق، ج1، ص40.

2 - المصدر نفسه، ص 61.

3 - المصدر نفسه ، ص 61.

مساره الرحلي واضعا إياه بين منزلة الحكمة والدهاء فيم يخدم مصلحته الشخصية والسياسية، وإن أبدى استياءه منه في سياسته هذه، إذ رآه غير مساعد له في تحقيق ما سماه بالقومية العربية.

فهو يخبرنا عن ذلك الآخر المخالف له في الفكر، فهذا اختلاف بين ما يملكه الرحالة الذي جاء مستكشفا ومناشدا لهدف القومية العربية، وبين الملك المريد لتحقيق أهدافه الشخصية، فكان بذلك ((الآخر الذي تقضي الذات بمخالفته لها وتحكم باختلافه عنها في نظم الحياة كلها: في العادات والتقاليد والأذواق واللسان والدين...و الفاحص متى نظر في الصورة التي ترسمها الذات للآخر، فإنه يتبين أن تلك الصورة مزيج غريب وغير متجانس من العواطف و الأحكام، فقد تكون في الوقت ذاته تحمل مشاعر الإشباع والاستهجان والاستغراب من جهة، وتطفح بمشاعر الاستحسان و التقدير و التعظيم من جهة أخرى))¹.

1 - العلوي سعيد بنسعيد ، أوربا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، ط.1،الدار البيضاء، كلية الآداب الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، 1995، ص 11.

ب. الإمام يحيى:

بعد أن أتمّ الريحاني رحلته في الحجاز، قرّر الذهاب إلى بلاد اليمن التي كانت تعمّها الحروب، و كان على رأسها الإمام يحيى، هذا الشخص الذي سمع عنه الرّحالة الكثير لكنّه لم يلتق به، حتى جاءت الفرصة المناسبة لزيارة اليمن بعد تعديه لمجموعة من المخاطر، من أبرزها تعرضه للتهديد بالقتل، يقول متذكرا كلام القنصل الأمريكي حين طلب منه أن يسمح له بالمرور إلى عدن: ((قد يقطع رأسك ولا أحد يسأل عنك ... وكنت قد تركت عنده أمتعتي ما لا أحتاجه في السفر إلى اليمن، وأعطيته عنوانين في بيروت وفي نيويورك، لينعيني في الأقل إلى أهلي))¹.

لقد عمل الرّحالة جاهدا متحديا جلّ العقبات مرتكزا على إرادته القوية، حتى حقق الوصول إلى الإمام يحيى، فيصفه قائلا: ((دخلنا فإذا نحن أمام رجل ربع القامة صغير الرجل واليد، أسمر اللون عالي الجبين مستدير الوجه قائمه، له فم كفم الطفل صغير بارز إلّا أنّه في مرونته وهو يتكلم إشارة تقربه طورا منك وتارة تبعده، و في عينيه السوداوين القريبتين من أنف قصير عريض نور يضيء، وشرارة في بعض الأحايين روعة وله لحية قصيرة مستديرة سوداء تتخللها خيوط من الشيب، يلبس قباء من القطن مخططا، فوقه جبة ذات أردان من نسج اليمن ولعمامته البيضاء الكبيرة ذؤابة تكاد تصل إلى أذنه))².

ينبئ هذا الوصف على خبرة الرّحالة في تقفي ملامح الشخص، وانعكاس هذه الصفات على أعماله وأقواله، يصف الرجل العربي بملابسه الدالة عليه من قباء قطني، وجبة وعمامة لها ذؤابة، إنّه يريد وضع القارئ في منطقة معينة، تجعله يتماشى مع ما يريد من أفكار، ويربط ذلك بما قبله، فقد كان عند

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 87.

2 - المصدر نفسه، ص130.

عربيّ له لباس خاص وهو عند آخر بلباس خاص مغاير، لكن هناك تقارب بين اللباسين، لينتقل بعد ذلك إلى ذكر صفاته العملية: ((هو في أمور الدين والدنيا الحاكم المطلق، المعصوم في الاجتهاد الغلط، ولكّنه عادل، وفي إقامة الحق لا يميل ولا يحابي، وعند الإقتضاء سمح حلّيم، إنّ له في حكمه فضائل أخرى منها أنه يستشير أهل العلم والخير من رجاله، وطريقته في الإدارة والعمل منظمة وقوّته على العمل عظيمة مدهشة))¹، يبين قوة الحاكم، ومدى تحكمه في حكمه، فهو الأمر والنهي ولا يجرؤ أحد على مخالفته، ومع ذلك فهو يتحلّى بصفة المشورة والتسامح.

لكن صورة الريب والخوف لا تفارق الرّحالة، الذي دخل أرضاً يجهل حقيقة ما يدور فيها ولم يألف قومها، عزأؤه في ذلك معرفة القوم وفكرهم والتقرب من حاكمهم، علّه يجد سبيلاً إلى توافق العرب بتوافق حكامهم، ليعطينا بعد ذلك صورة عن الخوف، وعن غضب الإمام، حينما قرأ رسالة بمجلسه فأمرهم بالخروج، وكأنهم طردوا، فبات الرحالة وزميله في شك وخوف رهيب يقول: ((ومرّ اليوم الثاني ونحن نحسب كل ساعة منه شهراً، ونود لو جاء أحد يساعدنا على محنة الريب وسوء الظن، بل نودّ أنفسنا بعيدين عن الزيود وبلادهم، أقلم يرض الإمام بكتاب الملك حسين، أم هو في ريب من أمرنا مما قد يكون قد سبقنا إلى عاصمته وإلى ديوانه من الوشايات))².

هي مقارنة بين مجلس الملك حسين، مجلس يعمه الفرح والبكاء الناتج عن شدّة التأثر بشخصية الملك، ومجلس يعمه الفزع والخوف، مجلس يرى فيه الموت قريباً، والأمل في النجاة موجوداً، يصوّر لنا السارد الآخر الذي هو بالنسبة إليه مخالف في الفكر والعقيدة، وحتى في طبيعة العيش، ونراه يلمح إلى

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج1، ص 136.

2 - المصدر نفسه، 137.

ذلك التناقض القائم في الشخصية المزورة، فالإمام معصوم في الاجتهاد الغلط، وهو شخص يشاور وعادل، كما إنه سريع الغضب، إنَّ الإمام يحيى في نظر الرحالة شخص عصبى، إلا أنه يمتاز بطاعة جنوده، رغم ما يقاسونه من العذاب والبعد عن الديار، ومواجهة الحروب التي لا تعرف نهاية لها، هذا ما أظهرته الحالة السياسية للبلاد، فالصراع متواصل على الحدود بين جيرانهم العرب، أضف إلى ذلك عامل الإنجليز، وما تفرضه الحياة الاجتماعية من فقر و بؤس، لكن رغم ذلك فما زال للتفاؤل في قلوب الجنود مكان، وها هو ذا الرحالة يخبرنا عن إجابة أحد الجنود حين سأله عن الحرب: ((صدقت ولكن حضرة الإمام أعلم منا، فإذا قال الحرب فإلى الحرب، كلنا نحارب من أجل الإمام، وهو أعلم الناس بكتاب الله والسنة، وبما يجب على المسلمين، قد أمرنا الله بالجهاد))¹.

يظهر صورة الإمام وسط شعبه، ذاك الشخص الذي لا يعرف الخطأ وله الكمال في الاجتهاد و استنباط العلوم، فهو الزعيم الأول الذي حاز على حب شعبه بفضل عدله وبعد نظره: ((إنَّ الإمام يحيى إذن ربَّ الحرب والاجتهاد، ربَّ السيف والقلم هو الزعيم الأوَّل والمعلم الأكبر في اليمن، وهو القاضي الشفيق العادل، يجلس في الفلاة كي لا يقف أحد بينه وبين المظلوم))².

يظهر هذه الصورة للحاكم التي تتجمع فيها متناقضات، فهو عادل متسامح، ومتشدد متعصب، يحاول أن يضع القارئ في مكان يسمح له بالرؤية الجلية الواضحة، معطيا له الدلائل و الحجج، حتى يستطيع الحكم ويكون في حكمه موضوعيا وعادلا، مدعما ذلك بمشاهد تمثلت في أقوال وأفعال للإمام، حتى يبدو صادقا أميناً عاملاً على إقناع القارئ بما يراه، ويعمل في نفس الوقت على ترك فسحة له

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق، ج1، ص164

2 - المصدر نفسه، 164.

للتساؤل والتدبر حتى لا يحرمه من متعة القراءة، هذه المتعة التي يتخللها الغريب والعجائبي، ((إذ لا يمكن للمتلقي أن ينشد إلى الحكاية إلا متى وجد فيها ما ينتشله من الضجر، الضجر من المألوف والمعاد والمكرور، ولا شيء أكثر من الغريب والفريد والعجائبي تحقيقاً لهذه الغاية))¹.

إنّ مستويات الغريب متعددة، فهناك أخبار تملؤها الدهشة والعجب، وهناك الغريب ممّا يتصف به بعض الرجال أو النساء من خلال تصرفاتهم، وهو ما يركز عليه الرحالة في رحلته، محاولاً إبقاء القارئ في جوّ ملائم للقراءة مبعداً عنه الملل، فهذا ما أفصح عنه في مقدمته لرحلاته.

كما يعمل الرحالة على إعطاء صورة كاملة عن كل شخصية سياسية أو غير سياسية، تحوي الحالة الثقافية والدينية والاجتماعية، فهو بمثابة المحلل والدارس لما يراه، والناقل الأمين لأخبار متنوعة، عاملاً على تركيب علاقة قوية بينه وبين القارئ، في تقريبه من الآخر، كما يريد أن يضع هذا الأخير أمام تساؤلات المتلقي، الذي يكون له الحكم ((ومن مستلزمات صورة الآخر تقديمات لصور تخص حضارته وثقافته وتاريخه، من منظور رحالة عابر، ثم من منظور راو يحول المشاهدات إلى قدرة تذكيرية ومشاهد غنية بخلفيات تبثّر اللامألوف والعجائبي، وأيضاً عناصر الاختلاف والتلاقي، فتصبح الصورة محوِّلة إلى نص لغويّ حاملة لآثار عادات وسلوك))².

1 - الرحالة العرب و المسلمون، اكتشاف الآخر، المغرب منطلقاً و موطناً، (أعمال ندوة)، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 2003، ص.1، مقال ل:محمد لطفي اليوسفي، حركة المسافر و طاقة الخيال دراسة في المدهش و العجيب والغريب، ص 282.

2 - حليفي شعيب ، الرحلة في الأدب العربي، ص 292.

ج. السيد الإدريسي:

في المنطقة المسمّاة عسير يوجد بها حاكم، قام الرحالة بزيارته بعد خروجه من صنعاء، هذا الحاكم هو السيد الإدريسي، الذي زاره وحاول التعرف إليه و فهم سياسته، غايته في ذلك محاولة التوفيق بينه وبين الملكين الآخرين، يعمل على معرفة شخصيته، وما يحيط بها من سياسات وفكر وعقيدة، وأول ما يبدأ به وصف لشكله الخارجي يقول: ((كان السيد محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن ادريس، رحمهم الله أجمعين، جاحظ العين صغيرها، رفيع الجبين، دقيق الأنف، ضخّم الشفة والرقبة، مستدير الوجه، نحيف اليدين، عريض المنكبين، طويل القامة، شديد البأس واللهجة والغضب، لم يكن فيه من ملامح الزوج البارزة غير فمه، وشكل وجهه ولونه الشديد السواد، و كان فيه من أثر العنصر السامي الآري _ أسلفت القول أن أمه هندية _ ما ذكرت، أي أن الأنف والجبين واليدين، وكان يلبس النظارات الملونة لضعف في عينيه، ويجلس متربعا على الديوان، ويتكلم بصوت عال فيه بعض الغنة، وله في الوقفات إشارة تمكين خاصة به، كأنه يجر الألف والهاء، ثم الهاء والألف ليثبت ما يقول))¹.

يتبين ممّا قال أن السيد الإدريسي ذو لون أسود وهو من أصل سوداني، وصل إلى الحكم في عسير عن طريق الوراثة، فقد كان ندا لهذه المهمة، إلا أن ما يعاب عليه، هو نسبه للدم الأسود، هذا ما رمى إليه الرحالة، ورآه غير مناسب للسيد بصفته حاكما، فلو كان غير ذلك لجاز له، أما في الحكم فيعتبر ضعفا وحجة لعدوّه يقول: ((أما السياسي فمصدر الضعف فيه، وقد ذكرت مصادر القوة في السيد محمد، إنّما هو في الدّم الذي تخلّل صفاء النسل وسلامة النسب في بيته، وليس نبوغه وسمو أخلاقه

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 339.

بحجة على ما أقول، فلو كان المرء شاعرا أو صوفيا أو فلاحا أو تاجرا، لما همّ لونه و لما أثر الدّم في حياته ومقاصدها، ولكن في الملك وفي السياسة ترى ذلك في يد أعدائه من الحجج القاطعة عليه))1.

يرمي الرحالة إلى ضعف النسب في السيّد، خاصة وأنه يحكم بلادا عربية تعمر بالأشراف والأسياذ من ذوي الشرف والنسب الأصيل، يركّز الرحالة على اختلاط الدّم الذي به عبودية بالدّم الملكي، ويذكر هذا أيضا في رحلته إلى اسبانيا متحدثا عن ضعف العرب وسبب سقوطهم في الأندلس: ((و هناك أسباب أخرى لضعف العرب، و فساد أمرهم، منها التسري و ما يخلفه في الحريم و في الأمّة وفي الملك، من مشاكل واضطرابات وفتن، ومنها في ذلك الزمان تزوج المسلمين بالمسيحيات، وقد شاع شيوعا ذريعا خصوصا في قشتالة وأراغون فنشأ في البلاد صنف من الناس سمّوا المولدين، وهم المولدون لكل ما فيه اضطراب و فساد في الهيئة الاجتماعية وفي السياسة والدين، ما كان أولئك المولدين من الذين آمنوا ولا من الذين كفروا، بل كانوا إمّعات حطابين في كل واد، معفرين في كل كرمة وحصاد، وشر المولدين على الأمّة مؤلّد في البيت المالك، فإن تقلّد الحكم كان ضعيف الهمة والرأي مراوغا متذبذبا، وإن تقلّده أخ له أو ابن عم كان مثيرا عليه الفتن طمعا بمنصبه))2.

و يعترف بأن له قوة وشرفا فهو من سلالة الأشراف المنتسبين لعلي بن أبي طالب، وها هو يصف السيّد بالمحنك في سياسته الحربية، حينما يعتمد على القبائل الملبّية لنداء مشايخهم الذين أغدق

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ج1، ص 319.

2 - الريحاني أمين ، نور الأندلس، ص 743.

عليهم الإدريسي، وجذبهم إليه عن طريق المال ((ولم يكن في سلاح الإدريسي وقواته في حروبه كلها أمضى من هذا السلاح أي الكرم))1.

يزداد تعجب الرحالة من هذا الأمير الذي اتخذ من قوته الروحية قاعدة لجمع الشمل ومواجهة الأعداء، نزع إلى المذهب الصوفي متخذاً إياه طريقة له، جعلها أساساً لحكمه مكملاً ما كان لجده أحمد بن إدريس الذي وضع الحجر الأساس له: ((أمر عجيب يتلوه في تهامة أمر أعجب، كيف لا وهذا الصوفي يؤسس فيها ملكاً عالمياً، الطريقة فيه أساس الحكم، والحكم أساس الطريقة، ولكن الطرق تقسد التصوف، فكيف بها في الأحكام))2.

يتساءل الرحالة في أمر السياسة إذا ما قورنت بالتصوف، فيجد الناس يتبعون هؤلاء السادة، الذين اتخذوا طرقاً مختلفة كل حسب ما يعتقد، وهذا ما لا يتفق مع السياسة التي تعتمد على محاورة الواقع ودراسته من كل جوانبه، واتخاذ القرار الصائب بعد ذلك.

إن الرحالة يعمل على تطوير معارفه بما يكتسبه من معلومات سياسية وثقافية ودينية، وذلك راجع إلى عامل السفر الذي يعتبر الملهم الأول له، بما له ((من توليدات في الرؤية، وزرع لعلامات دالة باستمرار))3، فنراه يتعامل مع السلطان مكتشفاً محيطه العائلي وسيرته الذاتية، ودارساً لسياسته الداخلية والخارجية، ومحللاً لعلاقاته مع أفراد شعبه، ومع باقي الأمراء المساعدين له والمعارضين.

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 318.

2 - المصدر نفسه، ص 288.

3 - حليفي شعيب ، الرحلة في الأدب العربي، ص 9.

يتواصل مسار التعجب للرحالة حول جدّ السيّد محمد بن علي، أحمد بن ادريس الذي استمد الحفيد قوته منه، فقد كان يعلم الغيب وينظر إلى باطن يده فيرى كل شيء، فكان ((ينظر إليها فيرى ويسمع ما وراء المحسوس والمظنون، بل كان إذا سئل عن شيء في القرآن ينظر إلى باطن كفه ثم يشرع يفسر بما شاء من العلوم الدينية، وإذا سئل عن حديث شريف ينظر إلى ظاهر كفه ثم يتكلم بما يبهر العقول))¹، ومقابل هذا يبرز الرحالة تعجبا آخر يخالف الأول تمثل في الجهل والتخلف، الذي ساد اليمن في زمن السيد، حيث ابتعد الناس عن العلم ونظم الشعر وتوجهوا إلى مدح السيد والعمل بطريقته.

كما امتاز السيد محمد الإدريسي بالفطنة والذكاء، فكان ذا دهاء ومكر في تحقيق مآربه التي يراها الريحاني خادمة للفرد وغير خادمة للأمة: ((كان السيّد محمد حصيفا ذكيا ذا دهاء يستعين على عدوه بكل ما حوله من شقايات وزعامات، بالزرائيق مثلا على الأتراك، وبالشوافع على الزيود، وبالعشائر على الأشراف، وبالإنكليز على الجميع، وكان له عون كبير في إرثه الروحي ضاعف نفوذه الشخصي وزاد ذكاهه الفطري لمعانا))².

عمل الريحاني على التقريب بين الملك حسين والإمام يحيى، والسيد الإدريسي، وذلك بجمع شملهم، فتكلم مع كل واحد منهم، محاولا الوصول إلى اتفاق جامع، كما بين ضعف السيد إذا ما قورن بالشريف والإمام، لهذا كان يعمل على مصاحبة القويّ ليقوى به: ((كان السيّد الإدريسي يدرك أمرين في حياته جوهريين، أولهما أنه قوي في ذاته، وثانيهما أنّ ملك الإدريسي ضعيف بين أقوياء هم أعداؤه،

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب ج1، ص 300

2 - المصدر نفسه، ج1 ص 317.

بديهى إذن أنه وهو الطموح الحكيم إذا عرف قويا يروم الولاء والاه واستتصره على الأعداء، وكذلك كان))1.

د. السلطان عبد العزيز آل السعود:

قد زار الرحالة ملك نجد، السلطان عبد العزيز آل سعود بعد زيارته للشرىف حسين، والإمام يحيى والسيد الادريسي، وكان الرحالة يتمنى وينتظر هذه الزيارة لما سمعه من أخبار عن السلطان ونفوذته في نجد، الدال على خبرته في السياسة ويبين هذا قائلا: ((إن رغبتى بزيارة رجل نجد الكبير كانت تزداد شدة كلما تعددت وحالت دونها العقبات))2

يتساءل عن طبيعة شخصيته، بعدما سمعه عنه من أقوال العرب في الحجاز، وبغداد ومن الإنجليز، وكان هذا نتيجة تحركاته الكثيرة، وأعماله التي حملتها قوافل التجار، ومجالس الحكام، وما سمعه من القنصل الانجليزى من مدح للسلطان لكنه عاب عليه، سوء الإدارة، و عدم السماح للقناصل الانكليزية بالدخول إلى بلاده، فظنّ الريحاني أن السلطان بدوي في فكره، إلا أنه يريد الرقي والتحضّر، ((أبدوي إذن سلطان نجد؟ وهل للبدوي أخلاق سامية وشعور لطيف، ومطامع في الدنيا مقرونة بالحكمة والإعتدال؟، ها إني قريب من ابن سعود و قريب من الحقيقة فيه، وبت أنتظر جوابه لأصل إليها وأتيقنها بنفسى))3.

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق ، ص 353.

2 - المصدر نفسه ،ج2 ص 497.

3 - المصدر نفسه،ج2 ص 513.

هي تساؤلات تطرح في نفسه عن صورة السلطان، فهو في موقع يجهل فيه الشخصية التي يروم زيارتها ويتساءل هل ما سمعه حقيقة أم زيف؟، خاصة وأنه زار حكاما قبله وحدثوه عن السلطان، وقد سمع أخبارا عنه تجعله ما بين طالب للدينار وطالب للدين، فأراد أن يتحقق، وهذا ما يعتبر من الدوافع التي تحمل الرحالة على المضي قدما لبلوغ هدفه المنشود، مذكرا كل الصعوبات التي تواجهه، يذكر الريحاني جواب السلطان له لما سأله القدوم إليه، مبرزا مكانته عنده: ((من عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود إلى حضرة الوطني الغيور والمصلح الكبير أمين أفندي الريحاني المحترم، دامت أفضاله أمين، سلاما وشوقا فباشرف طالع وردني كتابكم الكريم المنبئ بوصولكم إلى البحرين، وإتكم مزعمون التوجه إلى طرفنا أهلا وسهلا على الرحب والسعة، بالله لقد سررت جدا بذلك فطالما كنت مشتاقا للقيامكم وقد حققت الأيام شوقي والحمد لله))¹.

قد قصد الريحاني سلطان نجد بعدما زار البحرين، وبين أن السلطان كان مشتاقا للقائه، فهو أيضا قد سمع به، ووصلته أخباره، هي صورة للسلطان يلقيها للقارئ مبينا تواضعه، واحترامه للغير، ويضع صورة أخرى تدل على تواضعه وبساطته حين لاقاه بصحراء النفوذ ((أين أبهة الملك، وفخخة السلطنة؟ إنك لا تجدها في نجد وسلطانها، وإن أول ما يملكك منه ابتسامة هي مغنطيس القلوب))².

الابتسامة التي أحبها الرحالة في السلطان، هي السبب الذي جعله يبقى إلى جانبه ويحاوره في كثير من أمور الدولة، ليخرج بنتيجة مفادها أن عبد العزيز آل سعود هو ملك عربي يعمل على صلاح العرب، وهو فوق هذا عالم بأمورهم وتاريخهم، اتصف بالعدل والحلم لهذا كتب فيه الريحاني ما رآه صوابا:

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق ، ج2 ص 514.

2 - المصدر نفسه، ص 526.

((وقد ساد قومه بالمكارم لا بالألقاب....جئت ابن سعود والقلب فارغ من البغض ومن الحب كما قلت له، فلا رأي الانكليز، و لا رأي الحجاز، ولا الثناء ولا المطاعن أثرت فيّ، وها قد ملأ القلب ملأه حباً في أول جلسة جلسناها على أنّ الحب قد لا يكون مقرونا بالإعجاب، سنرى قد عاهدته على أن أكلمه بصراحة وحرية، وسأكون في ما أكتب كذلك حرّاً صريحاً))¹.

يتجلى المقام الرفيع للسلطان في هذه الصورة التي خصّه بها الرحالة، الذي يؤكد أنّ ما قاله عن السلطان ليس مجرد مدح وثناء غرضه المجاملة، بل هي الحقيقة التي أقرّها الواقع، وأكدتها التصرفات المتمثلة في المعاملات السياسية والاجتماعية والدينية.

إنّ الرحالة هنا بمثابة الملاحظ والمقوم لما يراه أمامه، فتصبح الرحلة هنا عاملاً تنقيفياً و((اختباراً متعدداً للقدرات الدبلوماسية لصاحبها ولمؤهلاته، في رصد خصوصيات الآخر، من تخل عن التمييز، و لقدراته على بلورة نص يجمع بين الوصف والتحليل والرصد والمتعة الأدبية في الآن نفسه))²، كما يصرح بالكتابة في وقت لاحق، الكتابة التي ستمثل التثبيت لخطابه التخيلي الممجد للسلطان.

ويورد الرحالة جانبا آخر للسلطان، تمثل في اهتمامه بدولة أمريكا، - فهو يعرف أنّ الريحاني جاء منها-، التي يحترم رئيسها ولسون لما سمعه عنه من احترام لشعبه، ومساعدته للشعوب المستضعفة والمظلومة، هكذا يكون السلطان ذا ثقافة اتّسمت بالعالمية، فهو منفتح على الآخر، ولا يرى فيه آخر مناقضا، بل آخر يستفيد منه بما له من علم وخبرة سياسية ورؤية إنسانية.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ج2 ص 529.

2 - الزاهي فريد، الصورة و الآخر رهانات الجسد و اللغة و الاختلاف، ، ط.1، سوريا دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية 2013، ص 67.

يعتبر ابن سعود حاضن الحركة الوهابية المعروفة بتطبيق قوانين الشريعة الإسلامية، والمتشددة في ذلك، لذا كان التدخين محرماً، ومن ثبت عليه فإنه يجلد، والسارق تقطع يده، والرقاب كلها متساوية عند سيّاف ابن سعود، من أذنب فالقصاص نازل به مهما كانت منزلته، هي سياسة العدل والقصاص ((وما عدل ابن سعود غير الشرع غير عدل النبي، أضف إليه قوة في بعض الأحكام الإجتماعية، اشتهر بها المذهب الوهابي، فمن يدخن مثلاً ببسط¹، و كذلك من لا يصلي، أما أحكام الشرع فمعروفة تنفذ في نجد بلا تردد ولا محاباة، ولا مرافعات لوبيات طويلات، حكم ابن سعود لا يعرف في سبيل العدل كبيراً أو غنياً، كلّ الأعمال الأثيمة عند الحاكم سواء، وكل الرؤوس سواء عند السيّاف))².

عمل الرحالة في سرده على المقارنة بين الملوك، ويظهر لنا صورة تبين الوضع بين ملك الحجاز وسلطان نجد، خاصة لما أصبح هذا الأخير سلطان نجد وملحقاتها، وتم الإعتراف الرسمي به، الذي أكدته الحكومة البريطانية في أغسطس (أوت) 1921م، هذا ما جعل الملك حسين يحس بنقص في هيئته ومكانته، في شبه الجزيرة العربية، بأن ظهر له منافس قويّ، عمل على تحطيم طموحاته المتمثلة في ملك للعرب، كان سلطان نجد مغتاضاً مما يدسه له ملك الحجاز، من عدااء مريداً بذلك القضاء عليه وإزاحته من طريقه، ويرى أنّ الإنجليز أيضاً يساندون الملك حسين ويقول في خطاب وجهه للريحاني: ((تراهم يدسون الدسائس عليّ - عليّ أنا صديقهم ابن سعود - أحاطوني بالأعداء، أقاموا دويلات حولي، ونصبوا من أعدائي ملوكاً، وهم يمدونهم دائماً بالمساعدات المالية والسياسية، الشريف في الحجاز، وابنه عبد الله في شرق الأردن، وابنه فيصل في العراق، ما القصد من هذه الأعمال؟ وما الداعي إليها؟ أنا ابن سعود

1 - البسط عندهم هو أن يطرح الرجل إلى الأرض و يضرب بالرطب من عسيب النخل.

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج2، ص 561.

صديق الانكليز، وهم في سياستهم الشريفة يعاملونني معاملة العدو....، ومن هو ابن سعود في نظر الشريف وأولاده؟ هو الجلف الكافر الخارجي))1.

من الصفات التي لمسها الرحالة أيضا في السلطان صفة الكرم، والتي وجد لها باعا واسعا في بلاد آل سعود، حتى إن الرحالة يتعجب منه، فهو كريم في بلد لا يملك ثروة كبيرة، لكنه يبذل كل ما عنده لشعبه، ولكل من أتاه طالبا ومستعطفا أو محتاجا: ((لقد شاهدت معرض العطاء في الرياض، بل كنت أشاهده كل يوم مدة إقامتي هناك، وأعجب جدا لا لكرم هذا الرجل بل لإيمانه، وثقته بالله مصدر الخير غير متناهي وولي النعم التي لا تزول، و إلا فكيف يؤمل بدوام حال تمكنه من العطاء في بلاد لا ثروة لها ثابتة دائمة))2.

و تتدرج إلى جانب صفة الكرم صفة العمل والاجتهاد، وهي من أساس سياسة السلطان، لذا نجد الملك يغير من البيت القائل:

نبني كما كانت أوائلنا تبني و نفعل مثلما فعلوا

ليقول: نبني كما كانت أوائلنا تبني و نفعل فوق ما فعلوا

يرمي السلطان إلى مواصلة العمل الذي بدأه الأولون، وعدم الركون إلى ما وصلوا إليه، إنه يدعو للاجتهاد وإلى أعمالٍ للفكر، من أجل النهوض بالدولة، وجعلها في مقدمة الركب: ((والحق يقال إن السلطان عبد العزيز آل سعود استعاد في دوره الأول دور الفتوحات، ملك أجداده، وعزز هذا الملك بالعدل

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب ، ج2، 546.

2 - المصدر نفسه، ص 579.

والأمن، وبالدين الذي هو في نجد مصدر الاثنين فلا يخطئ أو يمؤّه إذا قال نبني كما كانت تبني أوائلنا، ولكنه في تحضيره البدو وفي تأسيس الجديد من المدن والقرى التي تدعى الهجر، وفي استخدامه من يحسن الخدمة مهما كان مذهبه، وفي إعطاء امتياز الحسا لشركة أجنبية، وفي إرساله فتيانا إلى مصر ليتلقوا فيها العلوم الحديثة، وفي استحضاره إلى الرياض السيارات وبعض الأطباء والمهندسين، في كل هذا ما يثبت قوله أنه يفعل فوق ما فعل أجداده))1

هي ذي الميزة التي كان يبغيها الريحاني في الملك، بأن يكون منفتحا على الآخر بحيث يأخذ منه ما يفيد بلاده وشعبه، كما أن الرحالة قد أصبح يكتسب خبرات عن الشخصيات التي زارها، أضف إلى ذلك اجتهاده في معرفة العادات وطرق التفكير ((فالاختلاط والحياة مع الشعوب المختلفة، إضافة إلى الاجتهاد في دراسة أخلاقهم وطباعهم و التحقق في دياناتهم و نظم حكمهم، غالبا ما تضع أمام الفرد مجالا طيبا للمقارنة كما تساعده -و لا شك- على تقييم نظم و تقاليد بلده وموطنه))2، مستخدما في ذلك عقله الذي ينظر به إلى الأمور بكل موضوعية، خاليا من سلبية العصبية، و النظر إلى الآخر محاولا دراسته و فهم ذهنيته، حتى يتمكن من التعامل معه، وإصلاح أفكاره إن وجد بها نقصا أو خطأ.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، 587

2 - حسين محمد فهمي، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، العدد 138، مطابع الرسالة، الكويت، ص 21.

2. صورة الإنجليز:

إن أخبار الإنجليز عند الرحالة - إذا ما قورنت بما كتب عن أمراء العرب وملوكهم - فقد جاءت قليلة، وقد يرجع هذا إلى عدم الاهتمام الكبير للرحالة بهم، فهم لم يكونوا هدفه المباشر من الرحلة، فقد حدد رحلاته لملوك العرب، وذلك لفهم ذهنيته، وإدراك حقيقة حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وما جاء من أخبار الإنجليز إلا ما كان له علاقة بالعرب وأخبار ملوكهم، وما تتطلبه السياسة من اتفاقيات ومفاوضات، وما كان له معهم من حوارات حين كان يطلب إذن المرور من منطقة لأخرى.

و من هذه السياسة ما كان بين الملك حسين ملك الحجاز، و بين الإنجليز حين طلبوا منه القتال إلى جانبهم مقابل أن يحظى بالاستقلال، لكنهم نقضوا العهد، فهم أميل للخداع والمكر منه إلى الوفاء، ((وقد أخذ الإنكليز منا عهدا بالقتال فأقمنا على العهد وقطعوا لنا عهدا بالاستقلال والوحدة العربية، ولكنهم ويا للأسف نقضوا العهد))¹.

عمل الملك حسين على قتال الترك، وحقق بذلك استقلالاً للحجاز بمساعدة الإنجليز بعدما أمده بالسلاح، وجاءه كتاب منهم يؤكد ذلك التعاون، تأكيداً لوفائهم بالعهد، إن الرحالة يشير هنا إلى تنفيذ كلام الملك حسين حين وصف الإنجليز بعدم الوفاء، هذا ما رواه الرحالة من رسالة جاءت للملك من طرف الإنجليز فيها: ((أؤمل أن لا يبرح من بال جلالتم أن الحكومة البريطانية هي التي تحترم المعاهدات، وهي حامية دمار الحق والعدل، والحليفة الوفية التي لا تخون العهد))².

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج 1 ص 31.

2 - المصدر نفسه، ص 67.

فقد كانت هناك معاهدة بين الانكليز و الملك حسين بأن يحفظ كل حقوق الآخر ومن بين هذه الحقوق أن يحارب الملك حسين الإنجليز ضد الأتراك، وله مقابل ذلك حكم الحجاز و لقب ملك العرب.

كما يعتبر الإنجليز ذوي سلطة سياسية في الجزيرة العربية، فأني تصرف من أي أمير أو ملك فيما يخص الحدود أو المعاملات إلا ويكون لهم بذلك علم وحكم، لذا نجد الرحالة حينما أراد دخول اليمن، وجد صعوبة في السماح له بذلك، وتحفظ الإنجليز عليه، كما حذروه من الدخول إليها، خوفا عليه من عرب اليمن خاصة الحواشب والشيعة، وذلك لأنه مسيحي الديانة، و قد يؤدي تشدد القوم إلى قتله، لكن إصراره عمل على تحقيق ما يريد.

قال للجنرال الإنجليزي: ((وهل تريد أن أكتب لكم صكا أتنازل فيه عن حقوقي بل عن حياتي، فضحك ثم سكت ثم وقف قائلاً: سأنظر في الأمر وأكتب إليكم قريباً))¹، كما بين الرحالة امتياز الإنجليز بعقد اتفاقيات مع العرب، حيث كانوا يدفعون للأمراء أموالاً تعينهم على ممارسة السياسة مقابل خدمات يقومون بها كحماية القوافل.

يوضح لنا الرحالة صورة الإنجليز التي اتسمت بالمكر والخداع، وإشعال نار الحرب بين العشائر وبين أمراء العرب يقول: ((كانت بريطانيا تقدم في الماضي السلاح والذخيرة وتدفع الأموال فتسيطر بواسطتها على الرجال، فانتفعت منفعة محلية وقنّية، وما كسبت بوجه الإجمال من العرب غير المقت

والاحتقار. ولعمري إنَّها في ما كسبت غير مظلومة فقد أفسدت أموالها وأهلكت بسلاحها العشائر، وهي لا تسعى في نفوذها وتثبيت سيادتها في البلاد العربية على تلك الطريقة القديمة))1.

((و تميزت السياسة الانكليزية هناك بالتذبذب وتعدد الخطط وطرق المعاملة للقبائل والبلدان فأقامت الحواجز بين الحكام العرب، و حرضت القبائل الواحدة على الأخرى، مشغلة التخلف والقبلية، وتتافس الأمراء على السلطة وطمعهم بالمال، كذلك أرادت أن تضمن السيطرة فعقدت المعاهدات الولائية، ودفعت المشاهرات المالية فقيدت الحكام، باسطة حمايتها على أقطار الجنوب العربي كافة، وعلى منطقة الخليج من مسقط وعمان حتى الكويت))2.

كما يؤكد الرَّحالة وجود ظاهرة النخاسة في البلاد العربية، ويرجع فضل محاربتها للانكليز ليمنح لهم بذلك صورة إنسانية تمثلت في حفظ كرامة الإنسان يقول: ((أما الحكومة البريطانية بعدن فلها بعض الفضل في المراقبة في البحر الأحمر، وفي ما تحجز بواخرها الحربية من السناييك حاملة الرقيق))3.

كما يبرز الرحالة السياسة الاستعمارية للإنجليز، والتي تتم بطريقة احتيالية حيث يعملون على تحقيق طموحاتهم في البلدان العربية المستعمرة، ويكون لهم القرار في تدبير كل شيء، ومن سياستهم الاستعمارية يبرز سياسة التفريق بين حكام العرب، بحيث تحكم قبضتها عليهم وتمنع اتحادهم فتقتل بذلك ريحهم يقول: ((لا يحق للسلطان أو الأمير أن يتعاهد وأحد زملائه، أو يبيع أو أن يؤجر أو يهب شيئاً

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج1 ص 354.

2 - إيلي ج. مقبل، النزعة العربية في حياة أمين الريحاني و مؤلفاته، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، الجامعة الأمريكية بيروت، 1975، ص 82.

3 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 377.

من بلاده إلى أحد أمراء العرب، أو الأجانب أو يمنح امتيازاً، دون أن يستشير ويستأذن الحاكم في عدن، هي سياسة التفريق وسياسة الاستيلاء والاستئثار كذلك))1.

إن الحكومة البريطانية عند الرحالة حكومة تعمل على الانضباط، وحفظ الأمن بالبلاد، التي تعددت فيها المذاهب والأديان، و كثرت فيها المطامع و عمها الجهل والخوف، فجاء المستعمر ليفرض قانونه، لهذا نراه يتأسف لسقوط مدينة عدن في أيدي الإنكليز، بدل أن تكون في يد العربي صاحبها، لكن هذا الأخير لا يملك ما يؤهله لتسييرها ((إني آسف، إنَّ الروح العربية تقلصت في عدن واضمحلت، وإنه ليحزنني أيها القارئ العربي، و قد أشرفنا على شيء من مجدها الغابر أن نراها في يد الأجانب، ولكننا في زمان سيده المال، وحاكمه الاقتصاد، ومديره الأول العلم، وليس عندنا الثلاثة ما يؤهلنا اليوم لوظيفة صغيرة في معمل هذا الزمان الأكبر))2.

نراه يستعمل ضمير "النحن" الجماعية، فالهم يلَمُّ بالأمة التي يراها متفرقة، ويرى عوامل تقدمها معدومة، قد خاطب نفسه بما يراه سلبياً في أمته، فهو يبعث بتقرير كامل للقارئ العربي مستتهضاً فيه روح العلم والعمل، ينطلق الرحالة من الواقع معتمداً عليه في التنظير لما هو خادم للعرب، راسماً لهم طريق الفلاح وفق استراتيجيات سياسية واجتماعية، كان هذا همّ كثير من الرحالة الذين أرادوا من رحلاتهم اكتشاف الآخر، والعمل على توضيح سبل الترقية والنجاح، نجد الرحالة المصري رفاعة رافع الطهطاوي يبيّن سبب رحلته حين بعث إلى فرنسا يقول: ((ثم منها إلى رتبة مبعوث في باريس صحبة الأفندية

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ج1، ص 399.

2 - المصدر نفسه ، ص 306.

المبعوثين لتعلم العلوم، والفنون الموجودة بهذه المدينة البهية⁽¹⁾، هي استنتاجات من دراسة لآخر موجهة إلى الذات الجمعية، ولمجتمع معين، حتى يعمل على فرض نفسه في زمان لا يعترف إلا بذوي العقول النيرة والأيدي العاملة.

3. صورة الصّراع السياسي:

إنّ الصّراع السياسي في شبه الجزيرة العربية خاصة في الفترة التي زارها فيها الريحاني، كانت الدسائس والمؤامرات تحاك بين الأفراد، وكل يسعى لتوسيع دائرة حكمه ونفوذه، كما كان للمستعمر اليد الطولى فيه، فقد لعب دورا كبيرا في تحريك هذا الصراع بل كان طرفا فعالا فيه.

من أمثلة ذلك الصراع ما كان قائما بين الحواشب وبين الإمام يحيى سلطان اليمن ((أما الخطر وإن جسمه الانكليز فقد كان والحق في حيز اليقين، وخصوصا في بلاد الحواشب، إحدى السلطنات الداخلة في حماية الانكليز الكائنة بين لحج واليمن الجنوبي، وكانت عساكر الإمام في الزحف تلك السنة على المقاطعات التسع المحمية، قد وصلت إلى الحواشب ونكلت بهم، فأرسل الانكليز على اليمانيين طائرتين رمتهم بالقنابل فتفرقوا، وعادوا خاسرين، لذلك كان العداء لا يزال متمكنا بين الإمام والحواشب، ولذلك أطلقوا الرصاص على رجال الوفد اليمني، عندما مروا بأرضهم قبلنا بشهر واحد في رجوعهم من الحجاز إلى صنعاء، فماذا عسى أن يكون حظنا منهم، ونحن قادمون من الحجاز و وجهتنا الحضرة الإمامية؟))².

1 - الطهطاوي رفاة رافع ، تخلص الابريز في تلخيص باريز، سوسة تونس، دار المعارف للطباعة و النشر، د.ط، د.ت، ص 6.

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 88.

إنه يبرز ثلاث قوى متفاوتة: الانكليز وهم الأقوى بما يمتلكون من سلاح كالمطائرات والمدافع، والإمام يحيى بصفته سلطان اليمن، والحوشب كجزء من اليمن، كانت أرضهم خطرا على من يمر بها، قد شابهوا بذلك قطاع الطرق، لذا تخوَّف ركب الرحالة حينما أراد المرور على الحوشب، وما زاد من خوفه أنه ضمن الوفد القادم من الحجاز ومتجه إلى الحضرة الإمامية، وكل منهما عدو للحوشب.

كما تتجلى صورة الخوف الذي كان كثيرا ما يعتري الرحالة خلال تنقلاته من مملكة لأخرى خوف من ملاقاته أمير، وخوف من عدم نجاحه في محاورته، وخوف من المرض كالحمى التي أصابته خلال سفره، وخوف من غياهب الصحراء.

صراع تحكمه السياسة، يصوره لنا الرحالة بصفته مطلعا على ما حوله، مشاهدا ومقارنا بين الأحداث والأزمنة والأمكنة، نراه يحاول أن يثبت للقارئ فكرته، لذا نجد ترابعية الأحداث تسير وفق تأكيد هذه الفكرة المتمثلة في تفرق العرب وصراعهم المستمر، فهاهو ذا يورد قول السلطان علي بن مانع سلطان الحوشب المقيم في المُسيمير ((أنا بين أربعة يا أمين والأربعة يقصرون حياتي، هذا ابني وهذه لحيتي البيضاء، هو ابني الوحيد يا أمين، ولكني أدبجه والله ولا أسلمه رهينة لأحد، أما الأربعة فالواحد منهم فوق، يشهر علينا الحرب لأننا هادئون ساكنون لا نعتدي على أحد، والآخر تحت يغزونا لظنه أننا أغنياء، وأنّ خزانة الانكليز تحت أمرنا، والثالث هناك لا يخاف الله، والرابع عدونا اليوم صديقنا غدا لا نعرف والله متى ينقلب! وعلينا أن نحاربهم كلهم، وإننا والله نحاربهم يا أمين، ونحاربهم حتى نفنيهم أو يفنونا))¹.

تتواصل صور الصراع، ليحل في مكان آخر تتقل إليه الرحالة، هو منطقة دمار باليمن، هذا الأخير الذي تكثر فيه الصراعات وتعددت فيه الديانات والأفكار، و مثال ذلك قول عبد الله أمير الجيش في منطقة دمار عن العرب: ((العرب كذابون ساقطون يفضلون مال الأجانب على الجهاد في سبيل الله، نحن حاربنا الأتراك مرارا، وجاهدنا الكفرة الخونة في تهامة، وسنحارب كل من يحاول اختلاس فتر من أرضنا أو هضم ذرة من حقوقنا سنحارب حتى الموت))¹.

يصور لنا الرحالة غضب هذا الأمير ممّا هو حاصل في أرض العرب، خاصة أولئك الذين يتركون الانكليز يحكمونهم و يتصرفون في ملكهم و مصير شعوبهم، إنّ الرحالة في موقع المدوّن لما يراه ويسمعه، محاولا إيصال الصورة للقارئ بكل صدق، ويؤكد هذا قوله: ((كنت في كل قطر من الأقطار العربية أفتح الأذن دائما لجميع الناس، فأسمع الشريف والبدوي، والحمال والجندي، والتاجر والسياسي، فأدوّن حديثهم دون رأي لي فيها إذ ذاك أبدي، وإني أسألك أيها القارئ وأنا أشاركك الآن في ما سمعت وشاهدت، أن ترجئ رأيك كذلك إلى أن تسمع الحديث كلّ إن كان عن الإمام يحيى أو عن سواه))²، يريد مشاركة القارئ في قراره ويعمل على أن يوضح له الصورة التي يراها واقعية، تاركا الحكم له.

قد شهدت منطقة اليمن صراعا بين الإمام يحيى والسيد الإدريسي، إلى درجة أنهكت الأهالي، فقد أرهقتهم الحروب حيث فرقت بين الأب وعائلته، وقلّ الغذاء وخربت البيوت، هذا ما أثر في النفوس، وحمل على عدم توفر الأمن، منتظرين حلول الفرج راجين السلام، يقول أحد المرافقين للرحالة: ((كلنا

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ص 110.

2 - المصدر نفسه، ص 112.

والله نشتهي السلم، ولكن أين رجل السلم؟ أين هو الرجل الذي يستطيع أن يصلح بين السيد والإمام، لا في عسير ولا في اليمن موجود، لا يتم الصلح إلا بأحد الكبار يأتي من وراء البحار))1.

يوجد بالمنطقة قوم سمّوا بالزرانيق، عرف عنهم عدم انتمائهم إلى أي جهة رسمية، فلا هم مع الإمام ولا مع السيد ولا مع الإنجليز، هم مع من يدفع أكثر من مال وسلاح، هذا ما أجد نار الصراع في المنطقة، فبعد أن خرج الأتراك أصبحت المنطقة في صراع دائم، ولكل منهم مذهب وسياسة خاصة، يوضح الرحالة صورتهم قائلًا: ((كان الزرانيق أيام الترك كما هم اليوم عصاة عتاة، يأخذون المشاهرات من الدولة، ويقطعون مع ذلك التلغراف، وينهبون في البرّ القوافل، وفي البحر السناييك، أما شيوخهم فلا ينقصهم في السياسة ختل ودهاء، هم دائما يمثلون في رواية تهامة السياسة دورين، وثلاثة أدوار في وقت واحد ثم يميلون في النهاية إلى من يزيد في المال أو في السلاح))2 .

إنّ هذه الحالات لا نجد لها إلا حلا واحدا يتمثل في الحكم العاقل السديد وهذا ما يحاول الرحالة الإفصاح عنه، نراه بمثابة المحلل الاجتماعي والأديب المصلح يقول: ((إنّ البلية كل البلية في هذا الجهل المسلح، هذا الإجرام باسم القومية، هذه اللصوصية باسم الاستقلال، ليبدأ كل أمير في بيته، فيحكمه باسم الله حكما قاسيا عادلا، ليحكمه بعدل لا يعرف الرحمة والحنان، ليحكمه بيد من حديد وبقلب لا يرى غير الحق، كما يفعل اليوم السلطان عبد العزيز))3.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 256.

2 - المصدر نفسه ، ص 276.

3 - المصدر نفسه ، ج 1 ص 278.

يصل الصّراع إلى مداه حيث يقتل الأخ أخاه حتى يكون مكانه ملكا وحاكما، هذا ما حدث في الكويت بين أبناء آل الصباح حيث عمل مبارك الصباح على قتل أخويه محمد وجراح، ليكون الملك مكان أخيه محمد، دافعه في ذلك الشهرة وحب السلطة، ولا تهم الوسيلة بل الغاية، ويخبر الرحالة عن ذلك قائلا: ((فعندما فرغت كأس الصبر، وامتألت كأس التغيظ والنقمة عزم على أن يريح نفسه وآل الصباح والكويت من ذينك الآخرين، فنهض ذات ليلة للأمر ونهض معه ابنه، وكل منهما يحمل بندقيته، فقتل مبارك أخاه محمدا، وقتل ابن مبارك عمّه جراحا، و كان ذلك في شهر ذي القعدة سنة 1313هـ))¹.

و تزداد حدّة الصراع في المنطقة وتسقط جراء ذلك العديد من الرقاب في سبيل تحقيق أطماع شخصية حركتها الشهوة للمال، وللسلطة والشهرة، ويمكننا القول بأنّ هذا من أهم الدوافع التي حملت الرحالة على أن يقوم برحلته إلى شبه الجزيرة العربية، محاولا التوفيق بين الملوك المتناحرين، وعمل على أن يكون رسول السلام بينهم، وبأن يوصل رسالة كل واحد منهم للآخر، ويقنعهم بأن يستمع كل منهم للآخر من أجل وحدة قوميّة عربيّة.

و قد كانت هناك صراعات سابقة بين الملك حسين، والسلطان عبد العزيز كتلك التي حدثت سنة 1912م حيث ((خرج الملك حسين من الحجاز بجيش من البدو والحضر، في رجب من هذا العام ونزل الكويتية ديرة عتيبة، وراح سعد ينحر تلك الديرة للغاية التي ذكرت فلما وصل إلى أطراف الكويتية، خرج إليه فصيلة من خيالة عتيبة فظنهم جاؤوا يلاقونه ويرحبون به، ولكنه عندما دنوا منه أدرك قصدهم الحقيقي، ولم يكن معهم غير أربعين رجلا فركب وعشرة منهم الخيل وقفلوا راجعين، فلحق أهل عتيبة بهم، وهم يؤمنونهم قائلين نحن خدامكم قفوا ولا تخافوا، صدقهم سعد ولم يصدقهم رجاله، فوقف بالرغم من

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ج2، ص، 662.

تحذيرهم فقبض بنو عتيبة عليه وأخذوه أسيراً إلى الشريف حسين))¹، فقد كان هدف الشريف حسين من هذا إغاضة السلطان عبد العزيز، ودفعه إلى الاعتراف بملكية الشريف، لأنه عرف أو تيقن بقوته، وقدرته على احتلال الحجاز، هنا تدخل خالد بن لؤي أمير خرمة، وحاول إقناع السلطان عبد العزيز بكتابة ورقة يعترف فيها بسيادة الشريف على نجد أو على القصيم على الأقل، وأفهمه أنها مجرد ورقة لا تضره، وتتفع الشريف الحسين أمام الأتراك، وعاهده بأن يساعده إن اعتدى عليه الشريف وإن هو حافظ على حدوده ولم يتعدّها.

ينقل الريحاني مقابلة له مع السيد الإدريسي يقول: ((المسئلة 2 بيننا و بين الشريف -الكلام لحضرة الإمام - قريبة ميسرة، نحن أولاده، نحترمه و نجله، ولكننا نطلب منه أن يبادلنا الاحترام قال تعالى: "و شاورهم في الأمر"، اهّا؛ ليسألنا ليشاورنا نعم، هو لنا بمثابة الأب و نحن له أبناؤه الراشدون عندنا حكمة، اهّا، حكمة في الدين وفي السياسة، وعندنا القوة، القبائل في يدنا و الله لا تمر أربعة أشهر على المعاهدة إلا نكون أصلحنا الأمر بينه و بين ابن سعود، فتسير القوافل آمنة إلى مكة والمدينة.... إنّ عند الشريف الحرميين ونحن نبذل أنفسنا من أجل الحرميين، لا خير في حياة المسلم إذا كان لا يغار على الحرميين و يسعى دائماً في المحافظة عليها))³، إنّ العلاقة بين السيد الإدريسي والملك حسين تميل إلى التنافر، و ذلك راجع إلى وقوف السيد الإدريسي في وجه الملك حسين، و كأنه عثرة في

1 - الريحاني أمين ، تاريخ نجد الحديث، تقديم و تحقيق أمين ألبرت الريحاني، ط.1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980، ص191.

2 - هكذا وردت في المتن. و قد تكتب المسألة.

3 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 346.

اعتلاء العرش، كما يعدّ الإدريسي عدواً للعثمانيين، والملك حسين مسانداً لهم قبل أن يحاربهم بمساعدة الإنجليز.

يبين الريحاني حالة أمراء العرب في شبه الجزيرة العربية، في الرسالة التي كتبها للملك حسين بعدما غادر الحديدة، يقول: ((لأن الحقيقة الثابتة التي لا يماري فيها من كان عارفاً بأحوال الجزيرة، هي أن أمراءنا اليوم وإن كانوا يميلون إلى الاتفاق، لا يزلون متنافرين متشاقين، و قل كذلك متحاربين، فينبغي إذن أن تكون الخطوة الأولى خطوة سلم وولاء بين الأقران والأكفاء، يتبعها خطوات فيها ما ننشده من وحدة سياسية قومية عربية، وإني لأسعى طاقتي في هذا السبيل، ولكن لا نجاح لعمل لا يشارك فيه ذو الأمر، ذوي الآراء))¹.

قد سعى الريحاني إلى عقد الصلح بين أمراء العرب لكن ممّا يبدو أنه لا مناص من التنازع، فكل مطامعه ولا يمكن لأي منهم التنازل عنها، فيقرّ لنا بهذه النتيجة الأليمة قائلاً: ((ورغبت في خدمة الملك حسين بعقد معاهدتين تربطان الحجاز بكل من اليمن وعسير في البداءة، ولو بخيط من حرير، لاعتقادي أن جلالته يمثل فكرة عربية قومية شريفة، فلم يوقع واحدة منهما ولا أظنّه استحسنها، لأسباب أدركها ولا سبيل إلى تداركها، لم يعترف الإمام يحيى ولا السيد الإدريسي بأن الملك حسين هو ملك العرب، ولكنهما مدا إليه يد الولاء والمؤازرة فرفضهما))².

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق ، ص 388.

2 - المصدر نفسه ، ج1، ص 391.

الفصل الثاني

الصورة الاجتماعية

1. صورة البدو و الحضر:

قد عمل الرحالة على وصف مشاهداته، عاملا على إنتاج صورة للمجتمع المرتحل إليه مطلقا العنان لخياله في فهم وإدراك الذهنيات، ثم الحكم عليها مع ما يتوافق مع مرجعيته الثقافية والفكرية.

إنَّ الرحالة قد زار مناطق مختلفة، رأى فيها أفرادا وجماعات، تعمل وفق نظام خاص بها وتخضع لقوانين حددها المذهب أو الحاكم، ومن هذه الصور نجد صورة البدوي والحضري، اللذين يختلفان مظهرا وثقافة، وتكتمل الحكمة في التوفيق بينهما ((يجيء البدوي على البلد فيقف تحت نافذة القصر وينادي "يا بوعلي" وهو سامد الرأس صريح الكلمة لهجته لهجة الاكتفاء والقرناء قل هي لهجة أبناء القفار، والملك حسين يقبلها كما يقبل قبلة الاحترام والإجلال من المتمدنين المتتركين، بل يقبل فروض العبودية من الحضر باشا، كما يقبل هاشا من البدو خشونة الحرية، ولا يتغير في الحالين، ولا يأمر بتهذيب هذا أو بتثقيف ذاك))¹.

هي مقابلة بين فكرين يبدوان متعارضين لكنهما في الحقيقة متكاملان، هي صورة اجتماعية يرمز فيها الرحالة إلى ضرورة التعاون لأجل استمرار الحياة، وإن تطلب الأمر أحيانا كياسة وتعقلا في المعاملة حتى يستقيم الأمر.

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 28.

إن الملك هنا بمثابة المنظر الاجتماعي الذي يحدد مدى أهمية كل جهة، فيرى البدوي قوة يمكن استثمارها بقليل من التفهم، وكذلك الحضري، كما أنّ الأول له وظيفته الاجتماعية المتمثلة في توفير بعض الحاجات الغذائية كاللحوم المنتجة من تربية المواشي، وكذلك الجلود، وزراعة النخيل، كما يعتبر جندياً لا يخشى الوغى، والحضري له دور أيضاً في الاقتصاد وفي مسيرة الحياة، بوظيفته في التجارة مثلاً وفي الصناعة، وهو أيضاً جندي يعتمد عليه في الحرب ((ويغلب على الحضر الخلق التجاري، وبعض الجهات تمتاز عن بعض في هذا الخلق، فأهل القصيم والزلفى وشقرا أنشط من أهل نجد في التجارة، فقوافلهم تقصد سائر الجهات العربية (...)) وحياة البدوي حياة شاقة مضنية، ولكنه وهو يتمتع بأكبر قسط من الحرية، يفضلها عن أي حياة مدنية أخرى، هذه الحياة الخشنة هي التي جعلت القبائل يتقاتلون في سبيل المرعى والماء وهي التي جعلت سوء الظن يغلب على طباعهم، فالبدوي ينظر إلى غيره نظرة العدو الذي يحاول أخذ ما بيده أو حرمانه من المرعى))¹.

للعلم مكانتها الاجتماعية التي تتسم بالأهمية، فهي مرتبطة بزمانها من حيث التطور، ونجد منها ما تكون متوارثة وتتسم بالشعبية، ذلك ما نجده في منطقة بني سعد قرب الطائف قد امتازوا بحرفة الكي والمداواة به، وفيهم بيت يحسن أهله الجراحة ويتوارثونه جيلاً عن جيل، هذا ما يؤكد الريحاني في كتابه قائلا: ((وكشف جلالته عن نجاح طريقتهم في نفسه، إذ أنه مرض مرة بالحمى واكتوى، فأراني أثر الكيين واحد في زنده الأيمن، والآخر في ساقه اليسرى، السر في مكان الكي، فهم يختارون أماكن من الجسم تتصل بالأعصاب التي تنتهي بمجموعها عند موضع المرض، لذلك لا يتركون الكي مفتوحاً ليخرج

1 - وهبة حافظ ، جزيرة العرب في القرن العشرين، ط.1، بيروت لبنان، الدار العربية للموسوعات، 2010، ص 20.

منه الصديد، كما يفعل غيرهم، بل يختمونه حالا بشيء من الملح، أقول بشيء من الملح، يذرونه عليه))1.

هي طريقة عرفها العرب منذ القدم2، وعملوا على التداوي بها، ولهم اعتقاد كبير فيها، لذا نرى الملك محبا لها وداعيا إليها، وهكذا كان باقي سكان الجزيرة العربية، ((وهم يستعملون الكي في كثير من الأمراض و لا سيما الكلب، و في الإصابة بالرماح يستعملون نوعا خاصا من الكي، و هو أن تحفر حفرة صغيرة ثم تشعل فيها النار، حتى إذا خفت حرارة النار وضعوا العضو المصاب داخل الحفرة بطريقة خاصة، و هي و إن كانت من العمليات الشاقة، إلا أنها في الغالب يعقبها الشفاء))3.

ينقسم المجتمع الحجازي إلى قبائل حسب النسب هناك الأشراف كالعبادلة ومنهم البيت المالک، وذوو حسن وقریش، وتجتمع هذه القبائل في عدّة خصائص جسدیة وأخرى عملیة، فمما هو معروف عند هؤلاء العربان تمسكهم الشديد بالدين، وإن كان ذلك فيه اختلاف للممارسة عبر الزمن، كما نجدهم يعملون على احترام الضيف وإكرامه، كما نجد تلك النزعة القبليّة التي ما زالت قائمة، رغم أن الإسلام عمل على اقتلاعها من نفوسهم والتي كان يذهب ضحيتها خلق غير قليل، فترمل نساء و يتيم أطفال، وتقطع أرزاق وسبب كل ذلك العصبية والتعنّت وحب الذات المؤدي إلى هلاكها.

1 - الريحاني أمين ، ملوك العرب، ج1، ص 35.

2 - و قد ورد هذا في الحديث النبوي قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الشَّفَاءُ فِي ثَلَاثَةِ شَرَبَةٍ عَسَلٍ وَشَرْطَةِ مَحْجَمٍ وَكَيَّْةٍ نَارٍ وَأَنْتَهَى أُمَّتِي عَنْ الْكَيِّ" ،مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط.2، 1999، ج4، ص 85.

3 - وهبة حافظ ، جزيرة العرب في القرن العشرين، ص 161.

تمتد هذه الصفات لنجد التفاخر في الأنساب وفي الشجاعة، وقد يصل إلى العلم، وغالبا ما يكون هذا عند الحضر، وصفة التفاخر صفة قديمة عرفت عند العرب، وخلد ذلك أدبهم الشعري والنثري، ونجد على سبيل المثال لا الحصر، ما جاء في قصيد لحسان بن ثابت يفتخر بقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم قائدهم يقول:

أكرم بقوم رسول الله قائدهم إذا تفرقت الأهواء و الشيع

تختلف المفاخرات بين القبائل فكل تنسب إلى نفسها ما هو أصيل فيها، وله امتداد متواصل في العرق والممارسة، ((فأهل القصيم يفضلون أنفسهم على سائر سكان نجد بالعلم والمعرفة وسماحة الخلق، والإحاطة بأحوال العالم، وأهل العارض يفضلون أنفسهم بالشجاعة و الصبر على المكاره، والمحافظة على شمائل العرب، وأنهم جند التوحيد الموالون لأهله في أوقات الشدة)) 1.

إنَّ أوَّل ما يشد انتباه الباحث في المنطقة صفة البدو، باعتبارهم الشريحة التي تفرض كيانها على المنطقة، والقوة الضاربة في يد الحاكم، التي يوجهها إلى أعدائه ومعروف عن البدوي أنه يفتقر إلى الوعي المدني في المعاملة، ولا يقيم وزنا كبيرا للمجاملات تجاه الملوك والأمراء، فقد علمته طبيعته أن يطلب ما يريد ويتمثل بما هو أمامه كائن، هذا ما نراه ماثلا حين يريد محادثة الملك فإنه يكلمه بلا مقدمات ولا ألقاب، فأسلوبه مباشر بسيط خال من التتميمات والتكلف، فهو لما ينادي الملك حسين من تحت القصر قائلا : "يا بو علي" والملك قابل لذلك ومتفهمه، في حين نجده يقابل عرب جدّة والمدينة الذين يعتبرون

من الحضر، فهم يدخلون على الملك عامدين إلى التقبيل، فهناك من يقبل اليد والكف، وهناك من يقبل الركبة، والملك قابل لذلك، ويسحب يده لمن هم ذو مقام رفيع، كونهم من أشرف العبادلة.

هنا تدخل سياسة الملك في تنظيم مجتمعه و بأن يعطي كلا حسب ما يريد، ((إن الحضري عادة تاجر والبدوي غالبا مقاتل، والاثنان لازمان فنأخذ من الأول لنعطي الثاني، ونذل الأول أحيانا لنتمكن من الأخذ والعطاء، ولا سيما إذا كان الثاني خشن الخلق صعب الشكيمة، ويحمل فوق ذلك البندقية، والبدوي لا يفهم غير لغتين لغة الدينار، ولغة السلاح، بل لغة القوة التي تتمثل في سلاح أمضى من سلاحه، وساعد أشد من ساعده، أما جلالة الملك حسين فلسوء الحظ لا يحسن في معاملة البدو اليوم غير لغة واحدة، هي لغة الدينار))¹.

قد حمل إلينا الريحاني كلام الملك، ثم بين سوء حظه في تعامله مع البدو، بإعطائهم الدينار بدل إظهار القوة، فهو بذلك يعمل على هلاكه، فإذا نفذ منه المال انقلب عليه البدوي، الذي لا يتقن غير لغة البندقية، فالحرب عنده رياضة وجب ممارستها باستمرار، حتى ترتاح نفسه، ويهناً باله، وتمدّ له الحياة.

ومن سمات المجتمع الحجازي، إكرام الضيف والعمل على حسن استقباله، وحمايته إذا تعرض لهجوم أو مظلمة، وإكرام الضيف قيمة إنسانية بها يرتفع مقام المضيف بين أفراد قبيلته، والحديث عن الضيف وإكرامه قد حاز القسط الوافر من كلام العرب في حكمهم، وشعرهم وقصصهم، يقول الملك حسين في جلسة كان في ضيافته الريحاني بلباس البدوي، والقنصل الفرنسي وبعض التجار: ((ثلاثة لهم حقوق الخوة و الحماية، الضيف السارح² والطنب السابح¹ ورفيق الجنب، وإذا دخل الضيف السارح بلدا أو

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق، ج1، ص 29.

2 - من كان في سفر.

ديرة، يضيفه أول بيت يمر به له الحق الأول في الضيافة، أقول الحق الأول، فإذا تجاوز السارح إلى جاره يعدها إهانة يطالب الجار به، مر الغريب بيتا قبل أن يمر ببيتكم، وإذا كان لا يطالب بهذا الحق ينظر إليه بعين الاحتقار، ومن أضاف سارحا أيها العزيز عليه أن يحميه مدة اثنتي عشرة ساعة بعد أن يرحل، والاستجداء نعم له حدود يرفع العرب الاستجداء إلى خمسة أجداد فقط، و ما وراء ذلك فلا حق فيه لمستجد، ولا فرق بين العرب والأشراف من هذا القبيل، إلا في القصاص حياة الشريف إذا قتل عمدا بحياتين))2.

إن شيمة إكرام الضيف لا تقتصر فقط على من كان عربيا، بل تتعدى ذلك إلى كل من تجب له الضيافة، حتى ولو لم يكن عربيا، هذا ما حدث في منطقة عنيزة ((أجل إنَّ الغريب لينسى في هذه المدينة كونه غريبا، فسواء كان مسلما أم كافرا، موحدا أم مشركا، فهو يشعر هنا أنه بين أناس ألفوا مثله، وألفوا فوق ذلك إكرام الضيف أيا كان فيستأنس أيما استئناس، ويلي دعواتهم مسرورا شاكرا))3.

ومن عادات الضيافة نجد شرب القهوة، فقد لمس الريحاني محبة عرب شبه الجزيرة العربية لها، ويذكر هذا واصفا صدر القاعة التي سميت بالقهوة، لأنها أكثر ما يقدم للضيف وهي مكان جلوسه يقول: ((وفي الصدر مجوّف مستطيل لا يزيد إذا كبر على الثلاثة الأذرع، هو الموقد يجلس عنده ربّ البيت ويجلس إلى جنبه ابنه أو أخوه أو أحد من أهله، فينشئ الواحد يعمل القهوة، والآخر يدق البن في جرن الحجر كبير شبيهه بجرن الكبة في لبنان، إلا أن قطر ثقبه لا يزيد كثيرا عن قطر الهاون، وعند رأس

1 - من دخل الديرة مستجدا، و يراد بالطنب بيت الشعر و هو من باب تسمية الشيء بجزء منه، و يراد بالبيت صاحبه، و إن كان سابحا سائحا لا بيت له و لا مفر.

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 44.

3 - المصدر نفسه، ج2، ص 611.

الموقد خزانتي واحدة للحطب، والأخرى للمواعين، هما قيد يد الجالس هناك، فلا يضطر أن يقف ليتناول شيئاً منها، وأهم من كل ما ذكر الأباريق، وهي محور الدعوة، وركن الضيافة المادي، أباريق النحاس الوهاجة كأنها وصلت تلك الساعة من المعمل في دمشق، وقد صفت أمام المضيف صفا متناسقا من الأوّل الصغير الذي يكفي ضيفين إلى العاشر الذي يسقي مئة ضيف ويزيد، هذه هي القهوة عندهم، وفي شكلها ورسومها، ولون جدرانها وسقفها العالي، ونورها اللطيف، الذي قلما يمازجه نور الشمس، تعيد إلى ذهنك صورة معبد من معابد الأقدمين، فتحدثك بجلال العتق والقدم))1.

تعدّ عادة شرب القهوة من العادات التي لمسها كثير من الرحالة حين قيامهم برحلاتهم في الجزيرة العربية، ونجد على سبيل المثال ما ذكر الرحالة جورج أوغست والن قائلاً: ((معظم المنازل تحتوي على غرفة، في معظم الأحيان تكون منفصلة عن المباني و تسمى القهوة))2، كما ذكر ذلك الرحالة جيفورد بلغريف: ((إنّ وجود هذه الغرفة يعد شيئاً مهماً بالنسبة لكل بيت محترم في شبه الجزيرة، من أولها إلى آخرها والاختلاف فيما بينها في كل مكان هو اختلاف بسيط، فهي إما أن تكون كبيرة أو صغيرة في حالة حسنة أو سيئة، مفروشة أو خالفة ذلك، وتتحكم في ذلك ظروف المالك))3، يتفقون على وجود قاعة القهوة في كل بيت من بيوت الجزيرة العربية، هذا دال على مرتبة الضيف عند العربي.

كما شاهد الرحالة داخل المجتمع العربي الذي ارتحل إليه ظاهرة الفقر التي تهدد الأفراد، حيث شاهد أمام قصر السلطان جمعا من الناس رثة ثيابهم، ذابلة وجوههم، يبحثون عما يسد رمقهم ((وكننت

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج2، ص 612.

2 - عوض البادي، الرحالة الأوربيون في شمال الجزيرة العربية 1845-1922 منطقة الجوف ووادي السرحان، ط.2، بيروت، الدار العربية للموسوعات، 2002، ص 23.

3 - الريحاني أمين، رحلات ملوك العرب، ج 1، ص 63.

أرى كل يوم قبل غروب الشمس، ليس في ساحة القصر بل وراءه عند باب المطبخ جمعا آخر محتشدا هناك، جمعا كبيرا من فقراء البدو مخيمين خارج المدينة، نساء يحملن أطفالهن، وصبياننا عراة وبعض الرجال في أطمار ممزقة بالية، جمعا تأكله القذارة وتنتشر منه الروائح الكريهة، وكلهم جاؤوا في هذه الساعة وبأيديهم أوان من الخشب أو النحاس أو الفخار ينتظرون شيئا من الطبخ، ينتظرون فضلات المائدة العامة))1.

يرى الرحالة هذا المنظر البائس، فيحرك مشاعره وفكره، فيعمد للبحث عن حلّ له، تمثل في إيجاد عمل لهؤلاء الناس، وعمل على عرضه أمام السلطان، فينتفعون بعملهم، وتتفتح البلاد معهم بما يذر عليها من فوائد، فيعملون في إصلاح الآبار وتعبيد الطرق للسيارات، هي سياسة العمل والاعتماد على الذات، لتحقيق مجتمع متماسك وقوي.

كما نجد صفة أخرى عند سكان منطقة عسير، وخاصة سكان منطقة عبال تمثلت في لباس شبابها، وهي ظاهرة شاهدها الرحالة وأراد إبرازها فجاءت في منته الرحلي واصفا هذا اللباس وشكل الثياب: ((فالشبان في شعورهم الطويلة الجعدة المصففة المزينة، هم أشبه بالبنات لولا الشوارب والعضلات، فهم يدهنون شعرهم بالأدهان، ويربطونه بشرائط من الحرير أو الجلد، ويزينونه بالببريش أو الزهر أو الرياحين، ويقصونه مثل البنات اليوم ليساوي القذال، و لا يقصرونه كالرجال، وهم يتزرون بالفوطة مثل أهل لحج، وقد تكون طويلة ملونة مخططة، فيشدونها على الحوقين، ولبسون فوقها صدرة

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ج2، 584.

بيضاء بينها وبين الفوطة زار من القطن أو الجلد للخنجر دائما، وغالبا للخنجر والخرطوش، إن أول ما يدهشك من أولئك الشبان شعورهم المزينة كشعور النساء، وأرجلهم المخضبة بالحناء))1.

فهو يشير إلى التشابه بين الشبان والنساء في تزيين شعر الرأس وتخضيب الأرجل بالحناء، فهي بالنسبة إليه من الغرائب فلم يألف هذا المنظر ولم يره من قبل، ولهذا نجد السرد الرحلي كثيرا ما يعتمد على ما هو عجيب وغريب ((هناك عجائبي ذاتي مرتبط بأفعال الراوي وشخصياته في إطار تنويع الكتابة مقابل عجائبي موضوعي، متشكل من أفعال وظواهر موجودة في الطبيعة، مما يخلق الإعجاب في مخيلتنا))2.

من المشاهد الاجتماعية التي ذكرها الرحالة الحمام أو السباحة، كما يعرف عند أهل نجد، ويصف لنا حماما أخذه بعدما أخذت منه الرياح جزءا من عافيته، فيقول: ((جاءني مسفر بعد الظهر يسألني إذا كنت أبغي أن أسبح، فظننته يمزح وقلت ضاحكا: نعم ثم انتبهت إلى الجد في أمره لأنهم في نجد يعبرون عن الحمام بالسباحة، فجاء بعد ساعة بالمرجل الذي يطبخ فيه وقد ملأه ماء حارا، فقلت: بارك الله فيك يا مسفر سنسبح في القدر، فقال مستدركا وهو جاد في أمره، قد غسلته بالرمل ثم بالماء الحار))3.

إن للعلم أثرا كبيرا في حياة الفرد، فهو يعمل على توسيع ثقافته، ومعرفته بشؤون حياته بكل مجالاتها وميادينها، وما لمس الرحالة في رحلته أن العلم امتاز بالنقص إن لم يكن منعما في بعض المناطق التي تبعد عن المدينة أو عن العاصمة، لكن فكرة العلم موجودة والعمل عليها مؤسس، فقد وجد

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج1 ، ص 258.

2- حليفي شعيب ، الرحلة في الأدب العربي، ص 460.

3 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج2، ص 640.

عند البعض عزمًا وجدية في تحصيله، هذا ما رآه حينما كان في العراق عند جمعية المعهد العلمي التي يرأسها السيد ثابت عبد النور، الذي عمل على إنشاء المدارس الخاصة بمحو الأمية، لإقناع شعبه بأن العلم هو الطريق الحقيقي لتحقيق السيادة والتطور ((قد رأى مجلس المعهد العلمي في بغداد أنه لا يمكن من تحقيق مبادئه الاجتماعية إذا لم تستتر الأكترية بنور العلم الصحيح، وتتلقن مبادئ الأخلاق الراقية...ولهذا فإنه عزم على مكافحة داء الأمية في بلاد العراق... فوضع نظاما لهذا المشروع العلمي، وقرر إذاعته مع المبادئ الاجتماعية الآتية: حب الوطن من الإيمان، حب النظافة من الإيمان، طلب العلم من المهد إلى اللحد، مقت الكذب واحتقار الكاذبين، حب الخير وعمله))¹.

بما أن الرحالة يعتبر ناقدا ومحللا للظواهر الاجتماعية، فما هو ذا يطرق باب العلم الذي يراه أساس التطور البشري، فيعمل على مدح أعمال السيد ثابت عبد النور التي وجدت مكانا لها داخل أرض العراق، التي كانت تعاني من تهيش كبير من طرف المستعمر، كما أن الحكومة العراقية برئاسة ملكها فيصل بن الحسين بن علي، لم توفر لشعبها جو العلم والتعلم، هذا ما حرك السيد ثابت لإنشاء جمعية تعمل على تعليم الجيل الناشئ، حتى يضمن للعراق مستقبلا يؤمه العلم والتفكير الصحيح، ويخرجه من براثن الاستعمار.

كان الريحاني دوما محبا للعلم داعيا إليه، فقد أظهر هذا في منته الرحلي فهو دائم الدعوة إلى الاهتمام بالعلم، ونشره بين العامة، فقد لام كثيرا من السلاطين على تقريطهم في هذا الجانب، وعدم السماح لأبنائهم بالتعلم خارجا، يقول في مقال له: ((فإن العقل العربي لا يزال صالحا طيبا، والذهن العربي لا يزال حادا متوقدا، إلا أنه كالجواهر الدفينة أو كالآلئ في قعر البحار ونحن المسؤولون عن

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ج2، ص 918.

ضياعها، نحن العرب أبناء هذا الزمان، فإننا لا ننال ما ننشده من مجد الأجداد شيئا، إذا كنا لا نسعى في سبيل التعليم سعيا ثابتا متوصلا، فنسفل الجواهر في العقول ونستخرج اللآلئ من مدافنها))1.

2. صورة المرأة:

تعتبر المرأة فاعلا اجتماعيا مهما، لها دورها في تحريك دواليب الحياة فهي مؤثرة ومتأثرة، لهذا نجد الرحالة قد أولاهم اهتماما ضمن كتابته الرحلية، وتحدث واصفا إياها داخل مجتمعا في بيتها وقصرها، وأثناء عملها محاولا أحيانا وضع مقارنة بين المرأة العربية والغربية.

أعطى الرحالة جانبا لسفور المرأة، وضمه ضمن الغرائبي انطلاقا من فكرة أنه في بلاد عربية، فنراه يحدثنا عن مشهد رآه في منطقة عبال: ((عبال تعود بالسفور إلى أول الإسلام في عبال تعددت المدهشات، وكان أشدها وأحبها إلينا النساء، وقد وقفن في أبواب الخيام يتفرجن على الغرباء، ولا نظنّ أنهن كنّ أشدّ تعجبا منا، ونحن نتفرج عليهن، الجمال الأسمر نشدناه في كل مكان، فما لقيناه حتى وصلنا إلى تهامة))2.

1 - الريحاني أمين ، القوميات ج2، ص 213.

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب ج1، ص 258.

إنه يعود بالزمان إلى الوراء إلى بداية الإسلام رابطا إياه بالسفور، ولا ندري لماذا هذا الربط؟ وكأنه في أول الإسلام كانت آية الحجاب¹ لم تطبق بعد، ويقول في تحرير المرأة ((على المرأة الشرقية أن تسعى قبل كل شيء في تحرير نفسها، ولا بأس إذا تخلت في هذا السبيل المجيد، عن بعض أو كل أخلاقها التقليدية))²، ويظهر ميله إلى حب النساء والنفرج عليهن، وهنّ أيضا يبادلنه فعل الفرجة قد رأى الجمال الأسمر، فأحس بنوع من الراحة بعد العناء الذي ألم به في الطريق، مع الخطر الذي تعرض له والمشقات، فجاء الوجه الأسمر الجميل ليخفف عنه شيئا من هذا التعب.

يستمر أسلوب المحاورة مع ذاتيته، إنه يرى في المرأة الآخر الذي يريده، كما يراها عنصرا فعالا في القومية وفي النهضة العربية، فقد كان يدعو إلى تحرر المرأة وبمساواتها بالرجل يقول: ((فإذا سلمنا بوجوب تعليم المرأة فالففور هو أقلّ ما في المسألة من الأهمية، إنما الجوهر أن تشارك المرأة الرجل في الحياة الفعلية والوطنية، كما تشاركه في غيرها، ولا تستقيم هذه الشركة إلا إذا كان الإنسان الرجل والمرأة في مستوى واحد من العلم والتهديب))³.

يوصل سيره إلى منطقة البجاح هي قرية صغيرة، يدخل إلى مقهى تخدمهم فيها صبية حسناء تقدم لهم القهوة، يصف لنا لباسها ورشاقتها قائلا: ((بعد أن اجتزنا قاع عبال وصلنا في الساعة الأولى من النهار إلى البجاح، وهي قرية فيها مقهاية رحبة نظيفة، فدخلنا وكنا أول الزائرين، فخرجت من البيت

1 - تمثل في قوله تعالى: ((بَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا)) الأحزاب الآية 59، كما أتى الأمر بالحجاب في سورة النور الآية 31.

2 - الريحاني أمين ، القوميات تقديم و تحقيق، أمين ألبرت الريحاني، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1983، ج2، ص 29.

3 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب ، ج2، ص 249.

صبية حسناء ممشوقة القوام في جلباب أنيق الشكل، فوق دثار أزرق طويل الذيل، كأنها من بنات المدن، وقد تدثرت عند نهوضها فوق قميص النوم، هشت لنا وبشت وأسرعت في عمل القهوة))1.

إنّ ذلك الوجه الآخر للمنطقة، التي تعج بصراعات ومعارك أهلية وخارجية، خاصة أن كتابة النص الرحلي كانت بعد الفعل الرحلي، ليصل الرحالة إلى مرحلة الإنجاز، وتعتبر الكتابة هنا استرجاعا للذكريات واعتمادا على اليوميات المخطوطة، لهذا نلمس وصف مشهد النساء جاء مختصرا، ومتفرقا عبر صفحات رحلاته، إذا ما قورن بحديثه في السياسة ولقائه مع الأمراء والقواد، وسرده للتاريخ المتعلق بكل منطقة زارها.

نجدّه يركّز على صورة المرأة الفاتنة بجمال جسدها، وها هو ذا يصف مشهدا اتّسم بالدهشة والتعجب في المنامة، واصفا امرأة تخوض مياه الشاطئ وهي تنزل من الجلبوت مشمرة عن ساقها: ((وأغرب ما في النساء المحجبات يشمرن كالرجال، لم أتمالك مرة أن ظهرت دهشتي وبيدي آلة التصوير، إذ رأيت إحدى النساء تنزل من الجلبوت إلى المياه، وقد شمّرت بكرم فضاح، فقال صديقي: شيء مألوف خذ صورتها ولا بأس فصوريت آية النشور، أما الوجه فمحذور))2.

يتكلّم عن المرأة كذات و كآخر وجب معرفته وكشف صورته، خاصة إذا علمنا أنه كان يقطن بأمريكا وقد ألّف صورة المرأة الغربية، وهو يعمل على مقارنة صورة المرأة العربية بالغربية، وكل ذلك ناتج عن خياله الفكري لواقعين متباينين ((إن صورة المرأة كذات وهي صورة مباشرة بالأساس، هي في مجملها الصورة الخيالية التي تتكون في عقل الكاتب والمجتمع معا، مستمدة مادتها من المقروء والمسموع والمرئي

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج1 ص 262.

2 - المصدر نفسه ، ج2، ص 213.

والمعيش، ومن الذاكرتين القريبة والبعيدة، إنها تلك الصورة التي تعشش في اللاوعي عند مجموعة من الناس حتى إذا ما نضج فيها النبوغ عند مبدع ما، نحتها بما أوتي من إمكانيات وتكوين، وأخرجها في قالب خاص به بعد أن ألفها في غلالة من خياله))1.

ثم يطرح جانباً آخر خص به المرأة، فنراه يحدثنا عن كرمها، لكن بطريقتها الخاصة إنها المرأة التي تمنع أن يرحل ضيوفها من بيتها، دون أن يؤدي لهم واجب الضيافة، هي صفة لدى العرب لا يتنازلون عنها: ((سألتهم عن الفخار الذي رمونا به، فأخبرونا أن السلطانة، و هي في خدرها رأتنا من على السطح في أهبة الرحيل، فنهضت باكرا من أجلا فأرادت تنبيه الخدم النائمين في الطابق الأسفل، ولم تشأ أن تسمعنا صوتها أو ترينا من النافذة وجهها، فرمتهم بالفخار تستفيقهم، لينهضوا ويهيئوا لنا الطعام، الضيوف انهضوا للضيوف، والحقوهم بالفطور، وأطلقوا الرصاص إذا كانوا لا يقفون))2 .

يقف الرحالة مادحاً لها ولفخارها الذي كان سببا في نهوض الحراس، فهي تمثل المرأة العربية المضيفة، التي تكون دائماً في خدمة الضيف، وخاصة إذا كانت السلطانة ((أكثر الله أيتها السلطانة من فخارك، وجعلنا السنة فخارك إنك في الضيافة شاعرة الأقران، وفي البلاد العربية فريدة الزمان، وكيف لا وأنت السيف في إكرام الضيف تضربين من أجلا الكسل وتلحقينا بالعسل))3.

1 - الرحالة العرب و المسلمون اكتشاف الآخر المغرب منطلقا و مؤثلا، مقال صورة المرأة في الرحلة المغربية إلى أوروبا لسليمان القرشي، نشر وزارة الثقافة الرباط، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، ط.1، 2003، ص 73

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 96.

3 - المصدر نفسه، ج1، ص 97.

توجد صورة أخرى للمرأة، تظهر ذل هذه الأخيرة وشدة معاناتها في المجتمع، حيث تكون جارية وأمة تباع وتشتري، فهي لصاحب المال مملوكة، وما عليها إلا السمع والطاعة، يسرد لنا خبرا عن جارية، ولدت بنتاً فلم تعش، فأراد سيدها بيعها، فاحتجت بأنها أم ولد، وأصبحت في مرتبة الزوجة، فاشتكت إلى القاضي فعمل هذا الأخير على طرق باب الرحمة في السيد، وأقنعه بأنها جارية ضعيفة، قد ولدت له، فوجدت الرحمة سبيلا إلى قلب السيد ((هي جارية نحس، جارية جانية، لو أنها ولدت ابنة حية ما استحققت أن أرفعها إلى مقام الزوجة، فكيف وهي تجيئني بالأموات، جانية تستحق فوق البيع الموت، ولكني أرحمها و أبيعها فقط))¹.

يصور الرحالة تلك المرتبة التي نزلت إليها المرأة فهي مظلومة، ما ذنبها في موت الابنة، يصور هذا المجتمع الذي لا زال لم يصل إلى ذروة الوعي، ويعطي للمرأة حقها، حتى وإن كانت جارية، إنه في منطقة اليمن التي عرفت صراعات وصدامات فردية وجماعية، كما يخبرنا بجواب السيد، حين يهدأ ويقبل برد الجارية: ((سأشرفك ببذرتي مرة أخرى، فإذا جئتي بولد ذكر حي كان لك ما تريدين وإلا أتبعك بابنتك، قبلي يد القاضي وركبته ورجله، واشكري الله على مجيئه))².

هي سيادة الرجل الذي يريد تشريف الجارية بنطقته، حتى تلد، فمستقبلها مرتبط بما تلد، لا مكان لها من دون الولد، وتزيد مذلتها فتؤمر لتقبل يد القاضي، وركبته ورجله، إنه فكر الريحاني الذي يري في هذا التصرف تخلفا، وسط هذا المجتمع الذي لا زال لا يعطي للمرأة حقها. فهو ما زال بعيداً عن تحقيق الوعي و تحقيق الحضارة.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ص 363.

2 - المصدر نفسه، ج1، ص 363.

يظهر صورة أخرى تضییء لنا جانباً آخر من الظلم الذي كانت تعانيه المرأة: ((سيد عنده جارية وخادم متزوج من امرأة حرة، فزوجة الخادم تحتقر جارية السيد ولا تحترمها، ولو صارت أما وزوجة شرعية، وكثيراً ما يحدث في مثل هذه الحال أن السيد يبيع الجارية إلى خادمه، ويكرهه على طلاق زوجته فيتزوج بها، فساد لا يظهره غير الجحيم))¹.

يرى جزاء هذا الظلم عذاب الجحيم، هو المطهر لذلك الذنب، فعقوبات الدنيا غير كافية وقد لا يرتدع الجاني، هذا إذا كان يعاقب فيها، فهو يقر أنها صفة توجد في هؤلاء القوم ولا مناص من تركها.

تعدّ المرأة بصفاتها المكون الأساسي لحياة الفرد، المبنية على تكوين الأسرة، حيث نجد لها وظائف تتعدد وتتنوع من بيئة لأخرى، أو قل من بيت لآخر، فالمرأة ربة البيت وباعثة الحياة فيه، و هي قرينة الرجل، إن المرأة المغربية تمتاز بخصائص خاصة، وبعادات و تقاليد تميزها عن غيرها، هذا ما يكسبها شخصية هامة، ويبرز وظيفتها الاجتماعية والإنسانية، ونجد من هذه العادات امتلاكها للباس خاص، فهي تخرج محتشمة أو محجبة غير متزينة أو سافرة، يلفها في ذلك الحياء، و يلزمها الوفاء للعرف وللدين والمجتمع.

إنّ الرحالة قد أعطى للمرأة صورة معينة نراها ترافقه حيثما حلّ، فقد زار منطقة المغرب بعد زيارته للجزيرة العربية، ولا زال ينظر للمرأة بتلك الروح الباعثة على تحريرها، ولا يريد أن تكون سجيناً بعض العادات والتقاليد التي يراها باعثة على التخلف ومعركة لتطور الذات الإنسانية، فقد عمل على ترسيخ هذه

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 366.

الفكرة في مقالاته الفلسفية، الواردة في كتابيه القوميات و الريحانيات¹، فهو من هنا مفكر عامل على الإصلاح الاجتماعي.

((طبعاً ما كان الريحاني مجرد حالم! فهو مفكر رؤيوي و أديب ملتزم شغلته الهموم الإنسانية، وشغل العالم من حوله بفكره المجدد، بالقضايا التي عالجها وبالحلول التي طرحها لإحداث التغيير، ما كان الريحاني مجرد مثقف، بل شخصية مفكرة ومتقفة فاعلة متميزة))².

إنّ الرحالة قد رأى بمدينة طنجة ما يخالف هذا العرف، الذي كان في النساء الأجنيات اللواتي يعشن وسط المغريبات، وأكد أن يكون لهن تأثير عليهن، فقد وصف لنا هذه الصورة في قوله: ((و رأيت النساء الأوروبيات في تيرج صياح، و زي فضاخ، الشقراء منهن أكثر اشقراراً من أخواتها في باريس ومدرید، والحمراء الخدين والشفنتين، أبلغ احمراراً من أوانس الجادة البيضاء بنيويورك، والألوان دام اتثادك من معلمي الكيمياء والعطور لا من الأبوين الطاهرين))³.

نراه يصف ذلك الجمال الأجنبي الذي تنقاسمه الشقراء، وذات الاحمرار مفضلاً إياهن على نساء باريس ومدرید ونيويورك، لكن الألوان فيهن صناعة وتكلف، مكتسبة من معلمي الكيمياء، هن نساء طنجة اللواتي يجلبن قلوب الرجال إليهن، وهن في هذا مسترسلات وعاملات على تحقيق أهدافهن بما يرتدينه من ملابس يقول: ((ورأيتهن في الأثواب اللاصقة بأجسامهن، وقد يبالغن في شد الخصور كالساعات

-
- 1 - من بين مقالاته: المرأة المجاهدة ص 105، حبل التفاؤل ص ج 2 ص 84، و من مقالاته في القوميات: المرأة الشرقية ج 2 ص 221، السفور و القبعة، ج 2 ص 249،
 - 2 - الريحاني أمين و التجدد العربي، بحوث و مناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، مقال رؤية أمين الريحاني في حقوقية المرأة بين الواقعي و المتخيل لد.حجار نجمة ص 131.
 - 3 - الريحاني أمين ، المغرب الأقصى، ص 80.

الرملية، هي القباب من فوق ومن تحت، من أمام ومن خلف، فناء طنجة الأوريبات، وأخواتهن البلديات المباح لهن السفور، أي الإسرائيليات، هن منقطعات في المدن الكبرى المتصفة نساؤها بحسن الذوق والأناقة، إن كان في اللباس أو في التبرج))1.

يركز الرحالة على وصف المظهر الخارجي، الذي ينبئ عن عقيدة هؤلاء النسوة، اللواتي عملن على إظهار زينتهن والتباهي بها، فهي سياسة المرأة في فرض ذاتها، ولإثبات وجودها في مجتمع لا يريد لها إلا كما هي عليه، وكأنها تجد نفسها في تيار جارف يجب أن تتبعه و إلا كانت منعزلة منبوذة، لا مكان لذاتها في واقعها.

كما يذكر لنا صورة المرأة التي يعمل على ربطها بفضاء جغرافي، تمثل في الحديقة التي تملؤها الأزهار والأشجار، فتصبح فضاء لالتقاء النساء، وهي أيضا فضاء للشبان، حين ذاك يبدأ فعل الاستعراض أمام الآخر، كل هذا يرى بمدينة تطوان في ساحة مولاي المهدي شارع فرانكو ((فالحديقة العمومية في المدينة والساحة أو الجادة في القرية، هي كلها منظر واحد في تلك الساحة، ساعة النزهة والاستعراض، وإنَّ الشارع القصير مثل شارع الجنرال فرانكو بتطوان لأفضل من الطويل، بل هو المختار المستحب، لأن الغرض من الموكب هو العرض والاستعراض، فيسير العارضون والعارضات والمستعرضون والمستعرضات، من الطرف الواحد إلى الطرف الآخر، ثم يعودون ويستمررون غادين في ذلك الشارع رائحين والعيون منهم تتراشق بالزهور - بالنبال - بالزبيب حتى ساعة العشاء فيتفرق العشاق))2.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 80.

2 - المصدر نفسه، ص 136.

إن المرأة كانت على طبيعتها، فهي الفاتنة الجميلة كما تعتبر المربية المحتشمة، لكن الثقافة الإسبانية قد أمدت المغرب ببعض قواعدها، فتبنته المغرب وحضارتها، ونعلم أن الريحاني ذو شخصية مخضرمة، فإنه يميل إلى ما هو أوروبي إيجابي، فيرى فيه حداثة وتطورا، إن كان يخدم البشرية فيتركها تعيش عصرها كما تريده، عاملة على بناء حضارتها.

كما نال لباس المرأة المغربية عند الريحاني حقه من الوصف الساخر، فإنه رأى فيه كيسا أبيض قبيح المنظر يقول: ((أقبح ما رأيت في المغرب أكياسا تمشي في الأسواق، في الطرف الأسفل رجلان، وفي الطرف الأعلى رأس وعينان، لبنت من بنات حواء، وأفطع ما رأيت حجاب شبه بالكمامة، حجاب هو فوطة بيضاء تطوى عدة طيات، وتشد على الوجه من قصبة الأنف إلى الذقن، ثم تربط كالعصابة من وراء، ليس في أشكال الحجاب في البلدان الإسلامية شرقا وغربا أفطع من هذا الشكل المغربي، وليس في كل ما يطلق عليه من اللباس اسم جلباب أو معطف أو إزار أو عباءة، ما هو أقبح وأبشع من هذا الذي يغلف النساء في المغرب الأقصى ويدعى بلغة المغاربة حيكاً، وما الحيكاً غير ذلك الكيس الأبيض المنفوخ، لا كالمنطاد فهو منفوخ في أماكن منه، ومميد مجوف في الأخرى، بل هو مقبب ومضلع ومسنم ومبمعج، عنوان الفوضى في التقسيم، لا أثر فيه للاتساق والانسجام، ولا يشفع به غير النظافة، هو كيس أبيض نظيف سواء كانت فيه الفقيرة من النساء أم الغنية))¹.

إنه يرى في الحايك المغربي فضاة وبشاعة، وما هو إلا لباس عادي من عادات المغاربة لكنه يستنكره فهو صاحب الثقافة الغربية، إذ لا يرى في هذا التوجه أنوثة للمرأة، ولا ديناً ولا إنسانية فيه، فهو

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ص 526.

لباس ذو حشمة ينبئ عن ثقافة مغربية تمتد في جذورها إلى عصور قديمة، لكنه بحكم أنه رحالة و ناقد اجتماعي، يعطي للقارئ صورة عما أبصره من مشاهد بدت له غريبة.

هكذا نجد الريحاني واصفا للمرأة المغربية التي أبصر فيها متعة وثقافة، تبقىها في دائرة القرينة للرجل في حياته، فهي المساعدة على استمرار الحياة والبسمة فيها.

3. صورة الأجناس البشرية:

من خلال المسار الرحلي والمشاهد التي دونها الرحالة في متته الرحلي، نلمس ذكره لمجموعة من الأجناس البشرية في الجزيرة العربية، ونقصد بالجنس البشري تمايز قوم عن قوم آخرين، سواء تعلق ذلك بالديانة أو الصفات الجسدية، أو العرق.

نجد بعض القبائل عرفت بالخروج عن الحاكم، واشتهرت بالسلب والنهب ((يظل ذوو حسن إلى آخر الدهر لصوصا عصاة، وبدو الرؤيس لا يتغيرون ولا يصلحون والبقوم يتذبذبون وينافقون ولا يذعنون إلا للقوة))¹ ، قد ميّز كل قوم بما يشملهم من صفات، بين لصوصية وعدم الصلاح فهم مفسدون، وقوم منافقون، والكل لا يتعامل معهم إلا بالقوة.

زار الرحالة منطقة الحديد التي لاحظ فيها تنوعا وتعددا في الأجناس، ما أثر سلبا على تهجين النسب يقول: ((تعددت الشعوب في الحديد بل في تهامة، وامتزج دم السوداني بدم العربي، و دم

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 53

الصومالي بدم الهندي، ودم الجاوي بدم الإيراني، فكانت النتيجة مستهجنة مستتكرة))¹، إن التنوع في الأجناس أدى إلى التنوع في المعتقدات، وفي اللباس وفي الصفة، كما يمس ذلك تغير في العادات والتقاليد، هذا ما يميز الرحالة فإنه يكتسب عينا مبصرة تسجل كل ما تراه، محاولة فهمه وفق نظرية خاصة به، ويعمل على نقل هذه الصورة كما أدركها، محافظا على مسافة بينه وبين المتلقي، كما يعمل على محاولة التأثير عليه بصفته يعمل على عكس الواقع و وفق نظرة تخيلية.

كما يخبرنا الرحالة عن جنس بشري آخر رآه في اليمن، إنهم اليهود الذين كانوا يقطنون هذه البلاد، وكانت لهم صفات خاصة يمتازون بها عن غيرهم، فقد فرض لهم الإمام يحيى الحماية، وعليهم مقابل ذلك دفع الجزية، لكنها حماية يسودها شيء من الذل يخبرنا بهذا على لسان مرافق له في اليمن كلف بصحبته من طرف الإمام يحيى: ((حدثني السيد محمد قال: يجب على اليهود يا أمين أن يرسلوا السوالف كي لا نظنهم منا إذا شبت الحرب بيننا نحن العرب فنذبهم خطأ، ويجب عليهم أن يركبوا الحمير فقط لأنهم لم يتعودوا ركوب الخيل، والسلامة يا أمين قبل الفخامة، ويجب عليهم أن يرفعوا الزخارف من المراحيض، ويجوز لهم المتاجرة بها فيزيد مالهم، ويجب عليهم في بناء بيوتهم أن لا يتجاوزوا الطابقين علوا فيسلم اليهودي إذا وقع عن سطحه، ويجب عليهم دفع الجزية كي لا ينسوا أصلهم وقوميتهم))².

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 281.

2 - المصدر نفسه، ج1، ص 193.

ينقل لنا الرحالة صورة عن اليهود وكيف يعيشون في اليمن، مقيدون بمجموعة من الشروط، وهي حسب المتحدث لسلامتهم، هم يهود اليمن الذين كانوا يعيشون في نجران، يسمح لهم بتعليم لغتهم والحفاظ على تقاليدهم وديانتهم، وصناعة الخمر شرط بأن لا يبيعونها لغيرهم.

يعمل الرحالة على منهج واحد في كتابته الرحلية، عاملا على الوصف والإخبار، وتتبع كل ما هو لاقى للنظر حسب ما يوافق هدفه من الفعل الرحلي، يرتحل إلى بلاد المغرب الذي عرف هو أيضا تنوعا في الأجناس البشرية، حيث نجد فيه البربري والعربي، وقلة من اليهود، ويعود هذا التنوع لجذور تاريخية جمعتها الفتوحات الإسلامية، وهجرة بعض العرب من نجد والأندلس إلى المغرب، هروبا من اضطرابات سياسية، وطلبا للأمان.

و أصل البربر ونسبهم فيه اختلاف، فهناك من يرجع الأصل إلى أوروبا الشرقية، وهناك من يقول هم من ولد كنعان، وقيل من ولد إبراهيم عليه السلام، من ولده نقشان، وقيل من لحم وجذام وكانت منازلهم بفلسطين، وقيل من حمية، و قيل من ولد جالوت، وفي هذا يقول ابن خلدون: ((هذا الجيل من الأدميين هم سكان المغرب القديم ملؤوا البسائط والجبال من تلولة وأريافه وضواحيه وأمصاره يتخذون البيوت من الحجارة والطين، ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر، ويظعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعي، فيما قرب من الرحلة، لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفار الأملس، ومكاسبهم الشاء و البقر، والخيل في الغالب للركوب والنتاج، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب، ومعاش المستضعفين منهم بالفلاح ودواجن السائمة، ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والأطعان في نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة، ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف، يشتملون الصماء وبالأكسية المعلمة ويفرغون عليه البرانس الكحل، ورؤوسهم في الغالب حاسرة، و ربما يتعاهدونها بالحلق، ولغتهم

من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها وهي التي اختصوا من أجلها بهذا الاسم))1. ويعد كثير من سكان مدن المغرب الأقصى من البربر كطنجة وسلا وأزمور وأنفي وآسفي وبلدنا كاوست ولول من بلاد السوس. وفيما جاء عن أصلهم يقول ابن خلدون: ((وأما شعوب هذا الجيل وبطونهم فإن علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان، وهما برنس ومادغيس، ويلقب مادغيس بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه البتر، ويقال لشعوب برنس البرانس))2.

فأصل سكان المغرب إشكالية شغلت بال الباحثين لزمان طويل، لكنهم اتفقوا على قول يكاد يرضي الجميع: ((من هنا لابد من الاعتراف بوجود سكان قدماء جدا في هذه الديار، ولكنهم امتزجوا بأجناس عديدة أتت إلى البلاد في موجات بشرية مختلفة، منذ حقب موعلة في القدم))3. وإن تتبع الأجناس البشرية إن كان لغرض علمي فهو مقبول، وإن كان لغرض سياسي يقصد به التفرقة والعنصرية، وقيام مبدأ العصبية فهذا هو المرفوض برمته، والشعب المغربي يعيش منذ زمن طويل كشعب واحد متآلف، سواء كان بربريا أو عربيا، فالهدف الأساسي هو تحقيق وحدة عربية قومية، وهذا ما يرويه الريحاني قائلا: ((ووجهة نظرنا هي وطنية إنسانية ووطنيتنا هي عربية قومية، لا عربية إسلامية، قد جهرنا بذلك مائة مرة ومرة، ولا ننفك نجهر به فكل ما نكتب عن هذه الأمة العربية ونهضتها وأشواقها وآمالها، إن كان في

1 - ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ، كتاب العبر وديوان المبتداء والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت لبنان، 1971، ج 06، ص 115

2 - المصدر نفسه، ج 06، ص 116.

3 - الدراجي بوزيان ، القبائل الأمازيغية : أدوارها، مواطنها ، أعيانها، دار الكتاب العربي ، الجزائر، د.ط، 2007، ص

المشرق أم في المغرب، و إن لنا في الوطنية غرضا أكبر فيها، وإن كان قائما عليها ومتصلا بها ما كتمناه مرة، ولا حاولنا))1.

إن الهدف الأسمى لهذا المجتمع يجب أن يكون وطنيا، بحكم أنهم يعيشون في وطن واحد، وإن كانوا فعلا من أجناس مختلفة فهدفهم في الحياة واحد، هو حفظ الوطن حتى يعيشوا فيه بسلام، ولو عدنا إلى التاريخ لرأينا كيف اتحد العرب مع البربر، بعد معارك بينهم، ثم كانوا يدا واحدة على العدو البيزنطي والروماني، وحققوا بذلك فتوحات عدة وأشهرها فتح الأندلس الأول، تحت قيادة طارق بن زياد.

لكن الاستعمار يعمل على التفرقة حتى يسهل ويمهد طريقه للتملك والسيطرة، وجعل أفراد الشعب عبدا له، ويترك العربي يقتل البربري والعكس، حتى يخلو له الجو ويحكم هو بكل راحة وطمأنينة، وسياستهم في الأقطار العربية معروفة، فقد وضعوا ((الفرعونية بمصر والفينيقية بلبنان، والبربرية بالمغرب الأقصى، اخترعوا هذه النعرات القومية القديمة، وهذه النزعات الثقافية القديمة، القومية ظاهرا والاستعمارية باطنا، هذه النزعات والنعرات التي لم يكن لها اسم أو أثر في الزمن السابق للحرب العظمى))2.

ونستطيع القول أن الأجناس البشرية في كل مجتمع قد تكون متباينة، لكن التآلف الاجتماعي، والوحدة الدينية والعلاقات الإنسانية، هي التي تحقق الوحدة، ومتطلبات الحياة هي التي تفرض قوانينها على المجتمع، لكن إن دخلت العصبية سادت التفرقة، و يحل بذلك الهلاك والدمار.

1 - الريحاني أمين، المغرب الأقصى، ص 452.

2 -المصدر نفسه، ص 453.

كما نجد بالمغرب أقلية يهودية قد تكون من الأندلس والبرتغال، عاشوا كمغاربة ولا زالوا لحد الآن بالمغرب. هؤلاء هم سكان المغرب يحيون حياة الصراع مع المستعمر، محاولين جمع شملهم حتى يستطيعوا إيصال سفينة الحياة إلى بر الأمان.

4. صورة العبيد (النخاسة):

نجد في المجتمع الحجازي ظاهرة اجتماعية، يظن أغلب الناس أنها اندثرت وانقرضت مع العهود الأولى، إنها ظاهرة النخاسة والعبيد، هذا ما يصرح به الرحالة قائلًا: ((كنت أنكر وجود النخاسة في العالم اليوم، فجئت هذه البلاد ورأيتها بعيني))¹.

كانت هذه التجارة تبدأ من منطقة تاجوراء بجيبوتي، التي كانت تحت الحكم الفرنسي، وبها السلطان الدنقلي الذي يملك رجالا يأتونه بنساء وفتيات وصبيان من الحبشة، فيبيعهم لتجار يحملونهم في سنابيك² عبر البحر إلى الحجاز وعسير، ليبيعوهم للأغنياء والأمراء، وهذا حبا في المال، وأغلب الظن أنها كانت تجارة معترفا بها بين الأمراء ورجال المال، إضافة إلى ذلك نجد تقشي الفقر في أراضي إفريقيا السوداء كجيبوتي، فيعتمد التجار إلى شراء هؤلاء الفقراء، يوهمونهم بالعمل في القصور ونيل الحياة الكريمة، فيتوفر لهم على الأقل المأوى و الطعام.

وفي الحجاز هناك من يحبذ النخاسة ويرغب في استمرارها، ويلعن المراقبة البريطانية التي تعمل على محاربتها بمراقبتها، وتعمل على القضاء عليها، وإن كان الملك حسين يستنكرها، إلا أن الحكومة

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 377.

2 - السنابيك من السنبوق و جاءت في المتن على هذا الشكل، و المقصود بها زورق صغير.

النائمة يوما، والمتناومة بيوم آخر، تعمل على السماح بذلك، وتفرض ضريبة على كل عبد يباع مقدرة بـ: عشرين ريالاً على كل رقيق، وتقول ما قاله الريحاني للأعيان: ((رحماكم أيها السادة أنتم أعيان الحجاز، ووجوه اليمن أنتم حياة التجارة بالرقيق، أنتم أمل النخاس الأكبر، ومورد رزقه أنتم الطالبون أنتم الراغبون في الاستعباد، فإذا كنتم حقا مسلمين فعودوا إلى كتابكم، واقرأوا عفا الله عنكم ما جاء في سورة النساء، وسورة المائدة، من النصح بالإعتاق الجزئي المتدرج ثم في سورة البلد، وسورة التوبة وفيها الأمر بالإعتاق التام))1.

يفصح الرحالة عن صورة تظهر مدى البؤس الذي يعانيه من استعبدوا، حيث نجدهم يمشون لأميال حفاة عراة، تحت لهيب شمس حارقة ((امش-امشوا. وهم يمشون حفاة عراة من الحديد إلى ميدي، منتي ميل في شمس تهامة وقيضها، وإنك إذا وقفت دقيقة في تلك الطريق في النهار تخترق النار نعلك، وتحرق رجلك))2.

وكان العبيد يستعملون في الأعمال الصعبة والشاقة كالرعي ونقل الماء وصبّه، ونصب الخيام وجمع الحطب، وكان بعضهم يخدمون في القصور أو في بيوت الأشراف، يعدون القهوة والطعام، ويسهرون على راحة سيدهم، وكثيرا ما يصبح هؤلاء العبيد جزء من العائلة، وقد يصبحون ورثة لهم، هذا إن لم يكن هناك وارث للعائلة.

يتحدث الرحالة عن الآخر السلبي، الذي يبرز سلبيته في عدم موافقته لمكارم الأخلاق الرامية إلى تحرير الرقاب، والرفقة بالإنسان الذي يحتاج إلى المساعدة فقيرا كان أو مسكينا، هذا الآخر المتمثل في

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1 ص 383.

2 - المصدر نفسه، ص 383.

العربي الداع إلى المساواة والعدل والحرية، ويستشهد بحديث نبوي يقول إنه موجود في صحيح البخاري¹:
 ((دخلت جارية على عائشة فقالت اشتريني واعتقيني، فقالت عائشة: نعم فقالت الجارية: ولكن لا يبيعونني
 حتى يشترطوا ولأني، فرفضت عائشة، ولما علم النبي بذلك غضب وجاء إلى عائشة يقول: اشترها
 واعتقها ودعهم يشترطون ما شاءوا))².

5. صورة المدينة:

من الصور الاجتماعية التي اعتنى بها الرحالة، نجد صورة المدن التي زارها، فقد جذبت انتباهه
 بجمال شوارعها، وزخرفة بيوتها وتمايز تضاريسها، ولكل مدينة ميزة خاصة بها، فإنك تجد المدن
 الاقتصادية التي تكثر بها التجارة، وذلك راجع لموقعها إما على الساحل أو في الوسط، هذا ما يوفر لها
 قوة اقتصادية، يصف مدينة صنعاء قائلا: ((إن صنعاء مدينة عربية صافية روحا وشكلا، أسواقها مثل
 أسواق جدة غير مرصوفة ولكنها أوسع وأنظف، أما بيوتها العالية وبعضها ست طبقات فبناؤها أجمل
 هندسة وأكثر إتقاناً، لأن الأسلوب العربي فيها لا يشوبه شيء أجنبي هندي أو أوربي، وهي مبنية بالحجارة
 البيضاء والسوداء، و بعضها بالآجر والبعض باللبن، وبين كل طابق والآخر زنار من الجص الأبيض،
 المنقوش أشكالاً هندسية وفوق كل نافذة كوة فيها لوح من المرمر، يكاد يكون كالزجاج رقيقاً شفافاً ولكنه
 أمتن من الزجاج وأجمل، وهناك في الطابق الأخير لأكثر البيوت غرفة واحدة هي غالباً مطلقة من جهاتها
 الأربع تشرف على المدينة، تدعى المنطرة يستخدمها الناس للاستقبال والقبولة، فيفرشونها بالطنافس

1 - الحديث موجود في صحيح البخاري في باب المكاتب و باب العتق و فضله.

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1 ص 384.

والمساند والوسائد، ومنهم من يستعملون الزجاج في النوافذ فيقسمونه أشكالاً هندسية، ويلونونه أحمر وأخضر وأزرق، أي الأصباغ الأربعة التي يصنعونها في اليمن فيستخرجونها من النبات))¹.

إنها نظرة إلى بيوت عربية تخالف البيت الهندي والأوروبي، نجد الرحالة يحكم بأنه المكتشفة التي ترى الآخر غريباً في مسكنه ولباسه، حتى في فكره، فهو مغاير له، لكنه منتم إليه، فقد صرح أنه ينتمي إلى العرب، إلا أنه عاش بعيداً عنهم في بلد أوروبي ثم عاد إلى بني جنسه ليتعرف عليهم عن قرب، ويصلح فيهم ما أمكنه إصلاحه، ونلمس الواقعية في وصفه، حيث يصف ما يراه ماثلاً أمامه وهو وصف تفصيلي، وكأن الرحالة مطالب بهذا وقد أقرّ بذلك فهو ناقل للحقيقة كما يراها، إنه ينقل لنا صورة مدينة "الجديدة"، هذه المدينة الاقتصادية التي كانت تزدهر فيها التجارة، والتي آلت بعد الحرب إلى خراب، وإلى تنافس الأعداء عليها، كل يريد لها لنفسه لما يوجد بها من منافع اقتصادية: ((الجديدة التي كانت من أجمل البلدان العربية على البحر، وأكبرها تجارة، هي اليوم مجردة من الاثنين فريسة الحرب هي، وفريسة السياسة، ترى نفسها بين عوامل سياسية ودينية، تتجاذبها وتتقاسم ما تبقى فيها من حياة ومن أمل، أجل هي بين الانكليز والسيد والإمام مثل فتاة بين ثلاثة يخطبون ودّها، و لكن التحاسد بينهم يفوق الحب والإخلاص، فلا تركز إلى أحد منهم بل هي تخشى إذا ما أظهرت ميلها أن تفقد الثلاثة، وهناك الشرّ الأكبر وهناك الفوضى))².

إن فقدان المدينة لأصحابها يعتبر شراً كبيراً، فهذا يؤدي إلى حرب ضروس تخرب الحرث والنسل، وتحطم آمال الشعوب، وتنافس الثلاثة عليها جعل المدينة في تفهقر مستمر، فلا الإنجليز يدفعون

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ج1، ص 124.

2 - المصدر نفسه، ج1، ص 272.

المال للتجار لخسارتهم، لما تحطمت سفنهم بسبب مدافع أسطولهم البحري، ولا السيد الإدريسي قادر على تسيير شؤونها السياسية والتجارية، ولا الشوافع قائمون بأمر الإمام فيخدمونها ويدفعون له الضرائب إنها فوضى، ولا سلام لها إلا باتفاق يرضي كل الأطراف، لكنه صعب المنال، هي صورة اجتماعية يرسمها الرحالة بحروفه مخاطبا فيها غيره مشيرا بذلك لفترة زمنية معينة، محددا ودارسا لذهنية شعبية تنازعتها العداءات، وجانبها الصواب في تحقيق السلام.

ومن المدن الساحلية نجد مدينة "جيزان"، وهي عاصمة السيد الإدريسي، لكنها مدينة لا زالت تعمرها أكواخ القش، فقد كان أميرها لا يملك من المعرفة والقوة ما يجعله قادرا على بناء عاصمته بشكل أكبر مما هي عليه، يخبرنا الرحالة عنها: ((نظرنا إليها من القلعة شمالا، فإذا هناك مجموعة أكواخ من القش الهرمية الشكل، تتخللها بيوت من الحجارة شبيهة بمعابد الأقدمين مربع أعلاها أصغر من مربع أدناها، وبينها مفردات وثریات من النخيل، وحولها ذاك الخط الذي يحيط بها كنعة الفرس، وهو أزرق ساعة المد، أسود ساعة الجزر، أصفر في ساعة الشفق والغروب))¹.

هي مدينة بسيطة تحمل على السكينة والاطمئنان، قد ذكر لنا الرحالة صفة أميرها وديانته فهو متصوف، وقد انعكس هذا على مدينته فامتازت بالقداسة، وتركت التفاخر في البناءات ((و استأنسنا بمشاهد من نوافذه لا أبهة فيها ولا جلال، ولكنها تومئ كلها إلى حياة بشرية بسيطة، أجمل ما فيها من وجهة فلسفية، القناعة والصبر والسكينة والاطمئنان))².

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ص 334.

2 - المصدر نفسه، ص 336.

ثم يصل إلى مدينة يقول عنها أنها مدينة الشرك لا مدينة التوحيد، هي مدينة عمومية تقاسمها العربي والشرقي، والأوروبي، إنها مدينة "عدن" التابعة لسلطان لحج "عبد الكريم فضل" التي يكثر بها السكان، وهم على ملل مختلفة، فنجد فيها المسلم واليهودي والمسيحي، والإسماعيلي والهندي، وكلهم يعيشون في سلام يجمعهم العمل ويفرقهم الدين يقول: ((كل هؤلاء يتاجرون ولا يتنافرون ويربحون ولا يفاخرون، أما بيوتهم فواحدة لا تعرف أعربية هي، أم هندية أم أوربية، وأما أديانهم فهي كالأشجار والأدغال في الغاب، وهم في ظلالها لا يتغيرون ولا يتطورون))¹.

و مدينة عدن تنقسم إلى قسمين: ((عدن الفحم والحصون السياسية وتدعى التواهي، وعدن التجارة والموبقات وتدعى كمب أي المعسكر، في الأولى وهي على الشاطئ، دار الإعتماد والقنصليات، وبيوت الضباط والموظفين والإنزال، وبعض المخازن التي تباع فيها بضائع الشرق والغرب الرديئة بأسعار غالية، وفي الثانية وهي وراء الجبل على مسافة خمسة أميال في فم البركان، أو ما كان بركانا في قديم الزمان، وفيها أربعون ألفا من السكان من كل شعوب الأرض والأديان))².

وكما أن هناك مدنا تتعم بالخيرات، نجد مدنا أخرى قد عمّها الخراب، ما يدفع الناس إلى هجرانها والبحث عن مأوى آخر ((كانت العينينة من مدن نجد العامرة يوم فر هاربا منها محمد بن عبد الوهاب، ولجأ إلى الأمير سعود بن مقرن في الدرعية، بل كان هذا الوادي وادي حنيفة عامرا في أيام الصحابة بالبلدان والقرى، التي كان يتصل بعضها ببعض من الدرعية إلى العينينة، أما اليوم فقبور الصحابة فيه، وديرة مسيلمة مسقط رأس الشيخ بن عبد الوهاب، هي كلها مثل القلبان تحت الأرض واحدة في الخراب

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 402.

2 - المصدر نفسه، ص 402.

والهجران، بل قد هجر وادي حنيفة حتى الأطيّار والأزهار، ولم يبق من الشجر غير الشوكي كالطلح والسلم، كأنها مخالب الزمان في كبد العمران أو أكاليل من الشوك للطلول الدوارس))¹.

يوصل الرحالة مساره الرحلي مستكشفا فضاءات كان يجهلها، ومكتشفا في الوقت نفسه ذاته، حيث يرى المشاهد وفق نظريته التي تتصف بالحدّثة، والمقارنة بين ما هو شرقيّ وما هو غربيّ، يقارن مدينة عنيزة الموجودة في نجد، مع مدينة باريس حيث يضع عنيزة أفضل من باريس بما تكتسبه أرضها من نخيل يقول: ((عنيزة حصن الحرية ومحط رجال أبناء الأمصار، عنيزة قطب الذوق و الأدب، باريس نجد وهي أجمل من باريس، إذا أشرفت عليه من الصفرا لأن ليس في باريس حين إشرافك عليها لأنها صغيرة وديعة خلابة بألوانها، كأنها صورة صورها مانه²، لقصة من القصص ألف ليلة وليلة، وكأنّها لؤلؤة في صحن من الذهب مطوق باللازورد))³.

إنّه يربط صور مدينة عنيزة بصورة من قصص ألف ليلة وليلة، والتي رسم لها المصور الفرنسي كلود مانه صورة، أظهر فيها ذهبها المخبوء في رمالها الصفراء إنّه جمع بين زمانين متباعدين، زمن الليالي العربية القديمة، وزمن العرب المعاصر، فقد كان الرّحالة يذكر تاريخ العرب حتى يعطي صورة كاملة عنهم، فهو منتّم إليهم محب لبعض عاداتهم كأكله للخبيص يقول: ((ثم جاءنا بخبيص يدعونه عبيطا يعملونه من التمر والسمن استلذته واستعدته، فضحك العوسجي الكريم وأثنى على حريتي قائلاً: كأنكم من القصيم))⁴.

1 - أمين الريحاني، المصدر السابق ص 600.

2 - كلود مانه، مصور فرنسي.

3 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج2 ص 610.

4 - المصدر نفسه ، ج2 ص 610.

لعنيزة صورة أخرى تمثلت في اقتصادها الذي شهد تنوعا في البضائع، وتباينا في اللغات، إنها تشبه أمريكا وإنجلترا، فأسلوب المقارنة مائل في الكتابة، واستذكار الذات المستكشفة التي تحاول فرض نفسها، حتى تتمكن من معرفة الآخر ((قد تصغر عنيزة دون أهلها، وهم زهاء ثلاثين ألفا، لأن النفوذ تقيدها فلا تستطيع التبسط والامتداد، فهي لذلك مزدحمة بالسكان، وأكثر أسواقها كالسراديبي، لأنهم يبنون فوقها الجسور وفوق الجسور البيوت، ولكن هناك سوقا للتجارة كبيرة منيرة، تدهشك بما فيها من الأشكال والألوان، فتذكرك بأمريكا وبلاد الانكليز، وتنقلك إلى الهند واليابان، وتسمعك اللغات الإنجليزية والفرنسية والهندوستانية، ولهجات من العربية متعددة))¹.

يذكر الرحالة هنا شعوبا اجتماعية متباينة، عاملا على إحلال أسلوب المقارنة، الرامز إلى تحديد مرتبة كل شعب، محاولا وضع فضاء يقارب فيه بين ما هو مقبول من تطور وتنمية، ورفض ضمني لصورة التخلف الاقتصادي والفكري، الذي أفصح عنه غير مرة في خطابه الرحلي ((إن حضور الاجتماعي وما يتضمنه من تأثيرات مكملة لصورة الآخر من سلوك وعلاقات ينظر إليها الراوي متراكبة غير مفصولة، رغم ما قد تفرزه من تعدد يقود بدوره إلى التنوع في التقديمات بين القبول والرفض بين الانسجام والاختلاف))².

إنَّ غربة الرحالة تبقى قابضة في أعماق الذات من خلال رحلاته المتتابعة من بلد لآخر، ومن عند سلطان لآخر، إلا أنَّ حنينه لبلده الأصل دائما موجود، ما إن يرى مكانا أو عادة تذكره بأصله إلا ذكره وأشار إليه، فما هو ذا في منطقة عنيزة يبصر فيه عادة الضيافة التي تنسيه غربته، وحتى الضيافة التي

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ج2، ص 611

2 - حليفي شعيب ، الرحلة في الأدب العربي، ص 323.

يصحبها تقديم القهوة، مقارنا بين العربي والإنجليزي، يقول: ((على أن ضيافة العربي العنيزي تمتاز عن ضيافة الانكليزي، في أن ربّ البيت يخدمك بنفسه، من حين الاستقبال، إلى حين الوداع))¹.

كما توجد مدن للأحياء، هناك أخرى للأموات، إنّها المقابر وقلمًا ذكرها الرحالة في منته إلا أنّنا نجده يذكرها حين زار البحرين، فقد كان بمدينة المنامة ثم اتجه جنوبا ليصل إلى قرية عليّ فرأى هذه المدافن يقول: ((فانكشف أمامنا مشهد غريب خصوصا وهو في جزيرة صغيرة مجهولة كالبحرين، تلال وأطلال تظنّها لأول وهلة آثار مدينة قديمة، ولكنّها آكام هرمية اصطناعية، قائمة في سهل فسيح بل في قفر سبب، بين المنامة والرفاع يدعى المراقيب، هي مدافن البحرين، وقد نبت فيها العوسج والقيصوم، هي مدينة الأموات في كف الزمان، وفيها أحياء كالمدينة متفرقة متعددة، وفي كل حيّ مئات من القبور، مدينة دراسة لا يعرف لها تاريخ، كأنّ سكانها خلقوا وماتوا قبل أن يستكشف الإنسان للقراءة سلما وللكتابة مسمارا))².

نظرة فيها تعجب ودهشة، فهو لأول مرة يرى مدافن على هذا الشكل، مدافن تشبه المدينة لها أحياء وشوارع لكنها في طيّ النسيان، فالتاريخ لم يبق لها ذكرى، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الإنسان حينها لم يدرك الكتابة والقراءة، إنّها رؤية علمية للرحالة يحاول الإحاطة بكل مظاهر المدينة، بما تحمله من كثافة سكانية وحركة اقتصادية، وتاريخ إنساني مبني على خصائص القوم، فيذكر ما هو إيجابي ويدعو إليه، وإلى المحافظة عليه، ويشير إلى ما هو سلبي، فيدعو إلى إصلاحه حتى يستقيم أمر هذا المجتمع ويرتقي، ليحقق حياة عصرية، بوعي فكري إنساني متحضر، محافظا على ثنائية العلم والعمل.

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق ج2، ص 612.

2 - المصدر نفسه، ج2، ص 711.

تعتبر المدينة من الفضاءات الاجتماعية والعمرانية، التي يسكنها الفرد، عاملا فيها على تحقيق وجوده وكيانه، كما تعد فضاء للترحال، لتجد بذلك مجالا واسعا عند الرحالة، فهي أول ما يقع نظره عليها، فنراه يتأملها ويبصرها بعين نافذة وفكر متفحص، وامتازت مدن المغرب بصفات عدة تداخلت فيها ثقافات متميزة، جمعت بين الأصالة والمعاصرة.

نجده يصف مدينة طنجة قائلا: ((طنجة أوروبية حافلة بالصروح الفخمة، الحديثة الهندسة، والفن وبالشوارع والساحات الرحبة، الحاملة أسماء الأمم حبا وكرامة، فهذه ساحة إسبانيا، وذاك شارع باستور، وهاهنا جادة إيطاليا، وهناك شارع الإنجليز، وفيها كلها المقاهي والحانات البهيجة، خدامها في أثواب الخدم، لا أثواب البقالين والسقائين، كما في المقاهي البلدية، فتطلب منهم بلغة الإسبان أو الفرنسيين أو الإنجليز، وأنت جالس إلى مائدة من القش الملون، في كرسي بجانبها تطلب كأسك المعتاد، أبيسنت، ويسكي، شرى، سنزانو، كأنك في باريس أو في مدريد))¹، هو ذا يصف المدينة بثقافتها المعاصرة، الموازية للحدثة، حيث الخدم باللباس الوظيفي، والشوارع ذات الهندسة الغربية، وكأنك في مدريد أو باريس، فالبلاد العربية تحولت إلى بلاد غربية، حولها المستعمر إلى ما يروق له، مبعدا بذلك آثار الغربية ليحيا حياة المقيم الخالد.

كما نجده يذكر السوق الذي عرفها العرب منذ القدم، حيث يأتي أصحاب المهن والحرف، وكل يبيع ما يملك، فيأتي المتفرج وذو الحاجة، حتى ينتقع بشراء أو بكلام، فيصبح السوق مكانا يتصف بالمتعة وميدانا للثقافة، ((إن تلك السوق المزدهمة على الدوام بالناس، من جميع الطبقات والأمم، تنتهي عند الساحة الكبرى التي تدعى الساحة الكبيرة، وفيها مظهر من مظاهر الحياة الشرقية المغربية، الوادعة

الشريفة، ها هنا يجتمع في يومين من الأسبوع: الثلاثاء والأحد، أبناء القبائل المجاورة لطنجة، القبائل المزارعة وقد جاؤوا من الضواحي نسوة ورجالا يحملون الأحمال، أو يسوقون الحمير المحملة من خيرات الأرض، البقول والثمار والحبوب والأبازير والدجاج والبيض، والزهور والرياحين والحطب والفحم، حتى الحشيش الأخضر للدواب، هاك في ظلال الأشجار الوارفة عجوزا تبيع طاقات من البقدونس والصعتر أو قليلا من الفول الأخضر والتين، وهاك فتاة مغربية سافرة على رأسها برنيطة كالمظلة، وقد تربعت على الأرض وراء صف من طاقات البنفسج، وآخر من الزنابق والورود، وهاك أحمال الحطب وأكياس الفحم تباع لمن يحرقونها لا من يتاجرون بها، لا وسطاء في هذه الساحة ولا سماسرة¹.

يتحول الريحاني إلى أصالة المغرب حيث لا إسبان، ولا فرنسيين يؤثرون، فنجد المغربي والمغربية، كل يعمل في تقان لأجل تأمين لقمة العيش، هذا ما ينبئ عن فكرة العمل وبساطة العيش، فالعجوز تبيع البقدونس و الصعتر، والفتاة تبيع الورد، نرى هذا التجانس بين البائع وسلعته، كما يجمع السوق رواة الحكاية، و المنجمين والراقص والزمار، كل بما أوتي من فن، والناس في حلقات يسمعون ويبتهجون ويندهشون، هي ذي الثقافة الشعبية للمغرب التي تنبئ عن حياة شعب عرف الحياة في بيع و شراء، رقص وأنس، فقس يومه قسمين جزء للتعب والشقاء، وآخر للراحة والهناء، حيث يكمل هذا بذاك، وتستقيم له معركة الحياة ليعترك معها حتى تهلكه وما هو بمهلكها.

كما نجد من المناطق الجميلة في المغرب ، منطقة شفشاون التي تسحر زائرها وتبعث فيه الحياة، هي المدينة ذات الطبيعة الخلابة، وذات البنايات العجيبة، و لا تسأل عن هوائها وترباها، فهي لوحة إبداعية من الخالق، بها راحة للنفس، و جلاء للبصر، و لنترك الريحاني يصفها لنا كما رآها: ((صروح

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق ص 84.

مديدة منخفضة ظاهرها أبداً جديد، صروح بيضاء كزهر السوسن، ناعمة كفجر الربيع مزخرفة منمنمة، صروح كقصور الجن بنات الخيال و قصص المحال، بعمد كفتيات الحور بأقواس كالنونات، خطها قلم ساحر فعكستها يد عابثة، صروح بتيجان اقتبست من أعالي الحصون لتتوح فوقها الحمام وتغرد الحساسين، صروح لفنانين مولوهين، فروا من حقائق الوجود إلى حقيقة الحياة الخالدة، من الأشكال المتناثرة إلى الوئام والتجانس في وحدة الجمال، صروح خفيفة الظل فوق أرض قاسية، تحت سماء كلها بهاء وحنان، صروح كاللعب لأطفال الأرباب، وما هي باللعب ولا هي للاعبين¹.

نلمس تلك الروح الرومانسية للكاتب حينما يضمن كتابه ألفاظ الطبيعة، فيذكر (زهر السوسن، فجر الربيع، فتيات الحور، الحمام، الحساسين)، يحاكي الطبيعة جاعلاً إياها من رفيفات الروح، خادمة لراحتها وعاملة على تطويرها وأنسها، كما يصف الطريق و المارة من رجال ونساء، كل ماضٍ إلى شأنه، وهو بين مراقب ودارس و محلل، قارئ لملاحم الوجه وسابر لخبايا النفس، راسم للمستقبل ومتخيل للماضي، ((الطريق و أبناء الطريق: رجال البوادي يسوقون الدواب المثقلة بأحمال الأرض الجوّادة، يسوقونها إلى المدينة بما تنبت الأرض وتثمر بالحطب والفحم والبقول والحبوب، وبنات البوادي بقبعاتهن الشبيهة بالمظلات، تتناقص تحتها العيون النجلي في سمرة الخدود، وهنّ ممتطيات ظهور الأتّن الوديعة، الطائعة الصابرة المكودة))².

1 - الريحاني أمين ، المغرب الأقصى ، ص 300

2 - المصدر نفسه ، ص 301.

يصف سكان المنطقة رجالا ونساء، وهم متجهون إلى المدينة، هذا ما ينم عن الحياة الفلاحية البسيطة، التي نجد فيها الفلاح يعمل بجد وكد، حتى يوفر قوته، الذي يأتي ببعضه من المدينة بما يبيعه من حبوب وخضر أو يقايض به.

كما نجده يشبه هذا البلد المغربي بلبنان، حيث يأتيهما الربيع في وقت واحد، وينزل على كل منهما نفس الأزهار والزينة، ((الربيع واحد في المغرب وفي لبنان، طرفي هذا الشاطئ الإفريقي الآسيوي، هو واحد في فيضه وأشكاله وزمانه ، يجيء البلدين على اليوم على الساعة في الرزنامة لا يبطئ و لا يسرع، و لا يتقدم و لا يتأخر، فيسمع صوت الحسون وتشهد طلعة السوسن في آن واحد هنا وهناك، وذي هي النباتات اللبنانية ذوات الأريج الكامن و المنتشر، الصعتر و القسعين و القندول الزاهر، وهاك الدفلى البيضاء والحمراء تتمايل على ضفتي النهر، وقد شاهدنا في بعض الأماكن شقائق النعمان و الأصفر من الأقحوان))¹. هو الربيع الذي يراه الريحاني، ويرومه في الأفق لكل البلاد العربية، التي اختلط ترابها بالتراب الأوروبي، كما اختلطت عاداتها وتقاليدها، لكن هي الطبيعة تحل بجمالها على أرض المغرب، فتحوله إلى تحفة، ينعم فيها الإنسان، عاملا على بناء حضارة، تزيد من مدنيته، وتظهر رقيه الفكري، وحسه الروحي.

إنّ وصف المدن من اهتمامات الرحالة، ويعتبر من مميزات السرد الرحلي، حيث يصف الرحالة كل ما يراه ذا أهمية كالقصور والحدائق والمزارع و البيوت، كما تعتبر المدينة مجمعا لشرائح اجتماعية متباينة، نجد فيها السيد والعبد، الغني والفقير، العالم والجاهل، العامل والعاطل، الحاكم والمحكوم، الكلّ

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ص 302.

يتفاعل مع بعضه البعض، مكونا ما يسمّى بالمجتمع، هذا الأخير الذي يعطي الحياة للمدينة، فيكسوها بال عمران، ويزينها بالحدائق حتى تكون ملاذه في الفرح و الحزن، وحصنه الأمين إذا ما بادره بلاء.

من أبرز المدن الاسبانية مدينة اشبيلية هذه المدينة التي يشبهها الريحاني بالمرأة التي تفتن بزينتها و تقيد بحبها، المتقلبة المزاج، قد ترضي فتحسن، و تجازي بالضعف، وقد تغضب فتعاقب أيضا بالضعف، فهي ذات أحوال وأهوال.

((هذه المرأة هي اشبيلية سيدة الشقيقات، و بنت الكنيسة، وربة الخصب والمتع، ترقص فتسمع الدنيا صوت خشبياتها، وتصلي فتتردد صلواتها المدن والقوى، فهي الأم وهي الابنة وهي فتنة العاشقين، تضع المشط الرفيع العريض التاج في شعرها، وتهز رأسها غنجا ودلالا، تقتل خصرها إذ تسكت الخشية بيديها، فتفتتح طيات فستانها، وتنتشر منه الأمانى والصدود، ثم تضرب الأرض برجلها فتتصت إليها قلوب الرجال))¹.

إنها مدينة مرّ عليها أقوام عدّة، وخلفوا فيها آثارا دلت على تواجدهم، فقد سكنها الرومان لزمان طويل ما يقارب الثمانية قرون، ثم جاءها القوط الإسبان، فعمروها إلى حين دخول المسلمين إليها في القرن الثامن ميلادي سنة 711م، فكانت بذلك مدينة عرفت حضارات متباينة، لا زال لكل واحدة منها أثر ينبئ عن وجودها ومجدها وحسرتها يوم سقوطها، وهي الآن اسبانية تشهد الأعياد الدينية في كنائسها وصراع الثيران، كما تجد بها بهجة الخمر بين بساتينها وشوارعها، ويصفها الريحاني قائلا: ((هي مدينة

1- الريحاني أمين ، نور الأندلس، ص 621.

الأعياد والمواكب، والمهرجانات مواكب القديسين، ومهرجانات الربيع، وحرب الثيران، هي مدينة البهجة والحبور بما فيها من خمر وبخور، وبما يتضوع في عرساتها من طيب الرياحين والزهور))¹.

يصور الرحالة المهرجان الأسبوعي، المتّجه إلى الكتدرائية التي توجد بها تماثيل لأشهر الرسامين، تلك الرسوم التي تحقق لهم جواً من العبادة، في رؤية أبطالهم وقداهم عليها، ((هي اشبيلية تتأهب لمهرجانها الأكبر، مهرجان الأسبوع المقدس المهرجان المنقطع النظير في العالم المسيحي، بل في العالم أجمع، فمن أحد الشعانين، إلى أحد الفصح، تغدو اشبيلية بأجمعها مهرجاناً حافلاً باهراً، يستمر أسبوعاً كاملاً، هو أسبوع الآلام عند نصارى الشرق، والأسبوع المقدس عند الأوربيين))².

إنه أسبوع الآلام والأسبوع المقدس، الذي يسبق عيد الفصح وهو احتفال بخروج عيسى عليه السلام، من القبر، ورمزوا إليه بيوم الأحد، لذا نجد أن معظم الجماهير تكون فيه لأنه يوافق فترة عطلتهم، التي تكون بسببه، فهم يجدون فيه لذة ومتعة يناجون فيه الرب، حسب طريقتهم ويقدمون القرابين ليغفر لهم، ويتطهرون من ذنوبهم، ليسكنوا عند موتهم الملكوت.

كما يصف لنا الرحالة مهرجاناً آخر يتجه إلى ربّة العيد، والتي تدعى أيضاً الحمامة البيضاء، الواقعة بقرية مريسماء، التي تبعد خمسين كيلومتراً عن اشبيلية، ((والسيدة ربّة العيد تدعى عذراء الظل أو الندى، ومركزها في مريسماء، وهي قرية خارج اشبيلية على خمسين كيلو متر منها، و ربّة العيد تدعى كذلك الحمامة البيضاء، فيقام لها مهرجان يليق باسمها الطاهرين، مهرجان يدوم ثمانية أيام))³.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 621.

2 - المصدر نفسه، ص 625.

3 - المصدر نفسه، ص 629

إنه الموكب الذي يخرج من اشبيلية متجها إلى مريسم، على عربات تجرها الثيران يركبها الرجال و النساء، يحفهم الغناء والرقص و شرب النبيذ، ويستمر معهم الهرج والمرج إلى أن يصلوا إلى مبتغاهم.

وما كان يميز هذا المهرجان نسوة يصحبهن، ينشدن ويرقصن صحبة الرجال، وكان هذا المهرجان أنوثيا أكثر منه ذكوريا، كيف لا يكون وهو لزيارة القديسة "ربة العيد"، الحمامة البيضاء، إنها بهجة المهرجان بما فيه من النساء الراقصات، حتى إننا نجد الرحالة يتجه ببصره إليهن ليخفف عن نفسه عناء مواكبة المهرجان، ((كنت أتأمل غير الثيران، كنت أتأمل النساء المعبدات بأيديهن وأصواتهن، فما كانت تقف تلك الخشبيات في ترتباتها، حتى خلال الانتظار، ولا تلك الأصوات في أغانيها، بل كانت تزداد عملا وعنفا لله درها))¹.

هذه الحركة المستمرة في سكان اشبيلية، هي ما أعطى لها صورة خاصة جعلتها تحتل المراتب الأولى للمدن الإسبانية، فقد توفر لها الجو الطبيعي والمهرجان الأسبوعي، والعمران الدال على ثقافة عريقة، كما نجد الكنيسة الدالة على دين متبع له قوانينه وقداسه، ونجد عند الرحالة وصفا قائما على تمازج الألوان التي تجد فيها النفس فسحة، وللعقل فيها تأملا، فيهم فيها الزائر، وتجد لها الأقلام وصفا وتعريفا، فقد واكبتها حضارات متباينة، وكل أضاف إليها لمسة خاصة عبرت عن زمن معين وفكر خاص، ((إنما تختلف اشبيلية عن سائر المدن، بلطف مزاجها وتقلبه، وشدة هواها على الدوام، هي روح مركبة من أرواح مختلفة متعددة، - صاحبة الألوان - حمراء حتى الأرجوان، صفراء حتى الذهب، زرقاء حتى اللازورد، خضراء حتى الزمرد، فهي الرافضة وهي القديسة وهي المحسنة، وهي العاتية القلب))².

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق ، ص 633.

2 - المصدر نفسه ص 672.

إنها مدينة مشكلة من نواقض، قد سادها حكم روماني، وغوطي وإسلامي، ثم صليبي إسباني، فكانت للبعض نعيما تحول إلى جحيم، ونورا أضحى ظلاما، وهي بين هذا وذاك مدينة تسمو بأنفتها، واقفة أمام الأعاصير، خاضعة لميول البشر فهي ماثلة بين نشوة المنتصر ومرارة المنهزم.

تعتبر طليطلة من المدن التي عرفت استيطاناً بشرياً كبيراً منذ أن وجد بها الرومان، وأثناء وجود القوط وخلال الفتح الإسلامي، وبعد حين عمرها أهل الصليب الإسبان، وهي في ذلك من المدن التي عرفت بنهرها الكبير نهر تاجة، الذي منح لأراضيها الزرع والتمر وشجر الزيتون، كما عرفت بجبالها العالية التي زادت من ثبات المدينة وجمالها، هي تلك الأرض التي ألفها سكانها فأحبوها وأفنوا العمر في خدمتها، وإن كثرة خيراتها لدليل على هذا الحب، وما وجد بها من معادن ومجوهرات، وعلى رأس ذلك المائدة التي وجدها المسلمون بها، والتي حملها موسى بن نصير إلى خليفة المسلمين.

ويعصفها الريحاني قائلا: ((مثل لنفسك نجدا من الأرض ثمانمائة مترا فوق سطح البحر فيه ضلوع وتجاويف، هي منازل المياه ومجاريها، وبطاح شاسعة بينها مزروعة قمحا، مغروسة زيتونا يحيط بها عند الأفق هلال من الجبال العالية، ثم مثل في وسط ذلك النجد راية صخرية تعلو مئة متر عن مستواه، يجري عند سفحها ويكتنفها نهر نشيط ضحاك هو الطاخوس، فتنصل صخور ضفتيه العاليتين بالصف الأول من الحجارة المرسوخة المتراسة على تلك الرابية، وقد تخللها خطوط وحروف رفيعة، معوجة كالظلال الممدودة المتقطعة، هي ذي طليطلة بأسواقها وساحاتها وبيوتها المزدحمة، وهي طيطة في بيئتها الجغرافية))¹.

1 - الريحاني أمين ، نور الأندلس، ص 712.

يرسم لنا الريحاني صورة لطليطلة، ذاكرًا ذلك وفق نزعتة الفنية، فقد كان فنانا تشكيليًا مارس الرسم، وها هو يرسم بالكلمات مجسدا مدينة قد زارها فأعجب بطبيعتها وعمرانها، فهو الرحالة الذي يجول بجسده وفكره مشاهدا ودارسا ومؤرخا، واصفا بعين ترى الواقع من أبوابه الواسعة محاولة ربط السكان بمحيطهم الثقافي والاجتماعي والسياسي والديني والتاريخي، فالرحالة دارس لوضعيات الشعوب عاملا بمبدأ المقارنة، واندماج الشعوب المختلفة في البلد الواحد.

6. صورة الصحراء:

من خلال ما جاء في السرد الرحلي للرحالة، يثبت أن المدن التي زارها في شبه الجزيرة العربية كانت تتمتع بصحاري كبيرة وشاسعة، يتكد فيها المسافر مشاقا كثيرة، وتحيط به المخاطر من كل جهة حتى إنه كان يوشك على الهلاك، وطريق الصحراء صعبة لما يصاحبها من ارتفاع في درجة الحرارة وندرة في المياه، وتشعب المسالك وصعوبتها، وليس للمسافر فيها غير الإبل مركبا، لتكتمل المشقة إن كان لا يحسن ركوبها.

يصف لنا الرحالة ركوبه للذلول وهو في نجد، متجها لملاقاة السلطان عبد العزيز آل سعود يقول: ((أعدت لنا الركائب فسرحنّا - سافرنا - صباح الخميس أنا ورفيقي الأديب يصحبنا خمسة من الخدم، وكان أول عهدي بالذلول وبالنفوذ، فأبهجتني هذه وأزعجني ذاك، بل كنت في كل حركة أحس بشيء تحتي أو حول رجلي، وجنبي لا يجوز في نظري أن يكون هناك، والغزلتان بليتان تدق الواحدة صدري، والأخرى ظهري، كلما حدوث إلى الأمام وإلى الوراء، والكور أكاد أطيح هو مائل إلى الأمام، مائل إلى

اليمين مائل إلى اليسار، والشداد -الرحل- أن فيه ما يحتك بالجنب ويقرص الرجل، وما يسيء-يسيء الأدب! يا سيد هاشم! . . فأجابني بقوله أبشر أبشر¹.

يصف ما ألم به من جهد جراء ركوب الذلول، وسميت هكذا لأنها معدة للركوب، وذللت لتركب، لكنها تعد مشقة للذي لم يألفها، نراه يتمتع بذات مستكشفة تريد ركوب المخاطر والمصاعب حتى تحقق ما تريد، خاصة وأنه كان يريد السلطان عبد العزيز الذي تمنى لقاءه، وكان ينظر إليه على أنه أرفع سلطان في المنطقة.

تعرف الصحراء برمالها، وتعتبر فراشا لكل مسافر إليها، فهي مكان جلوسه، ومائدة طعامه، هذا ما كان بين الرحالة والسلطان عبد العزيز، حين دعاه قائلاً: ((تفضل يا أستاذ هذه أحسن سجادة عندنا))²، ويجيب الرحالة السلطان موضحاً للقارئ كلام السلطان: ((يقينا هي كذلك فأني فرش أنعم من رمل النفوذ وأنظف؟ وأية سجادة أجمل لونا وأعجب صنعا؟ جلسنا متربعين على أفخر الطنافس في مجلس الله، وكان السلطان فينا أجملنا اتضاعاً، وأفضحنا في لغة الحكمة والورع لساناً، "حنا" أهل نجد نبغي المحافظة قبل كل شيء على أمرين: ديننا وشرفنا))³.

إنه يشير إلى فضيلة من فضائل العرب، هي صحراؤهم التي يعتزون بها، وفيها يحافظون على عاداتهم، ودينهم وشرفهم، قد تبدو للغير بسيطة مجرد رمال، لكنها عندهم حياتهم وموطنهم الذي ألفوه، ولا

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب ج2، ص 522.

2 - المصدر نفسه ، ج 2، ص 533.

3 - المصدر نفسه، ص 533.

يستطيعون العيش دونه، كما يشير الرحالة إلى إبراز ذات البدوي النجدي الذي يريد إثبات ذاته أمام الآخر الغريب.

إلا أنّ الرحالة قد يجد في الصحراء ما يؤرق ويزيد من المشقة خاصة إذا أراد المسافر الخلود إلى النوم بعد يوم شاق فيجد الذباب يملأ الخيمة، ويمنع المسافر راحته، ((عدت إلى خيمتي وبني شيء من التعب والنعاس، فوجدت فيها جيشاً من الذباب استحال عليّ طرده والتغلب عليه، ما رأيت في حياتي أثقل وأقبح من الذباب في البادية، في صحراء الرمل، في تلك الجنة التي جردها الله من كل شيء سوى السكينة والهواء الطيب، فجاء الذباب يفسدها عليك، ومن أين يجيء؟ هو يركب الذلول وإياك، على ظهرها وعلى ظهرك وعلى رأسك، يرافقك مؤاخياً فيسبقك إلى الخيمة ويذبح فيك ما تبقى من أمل في الحياة))¹.

نلمس أسلوب الحوار الذي يتبعه الرحالة في الكتابة، لأجل تنبيه القارئ وبلوغ درجة التأثير، حتى يضمن نجاحاً لخطابه، معتمداً على المشهد المباشر، وعلى المقارنة هادفاً بذلك إلى إقناع القارئ، بأن يوصل إليه ثقافة معينة، تجد مكاناً لها مع ما يكتسبه من مرجعية ثقافية، فيخلق فيه شيئاً من التفكير والتدبر، دون أن يخرج من عالم المتعة والتسلية.

لركوب الذلول منفعة لا يدركها إلا من جرب ركوبها، فهي رياضة جسدية وذلك راجع إلى تنوع في المشي، فهي تمشي وتدرهم، ولها أيضاً الغارة تكون فيها مسرعة وقد تكون من الإغارة، حين يغير القوم فتكون فيه الذلول مسرعة ((إن في ركوب الهجين خير الرياضات الجسدية وهو يلذ ولا يتعب، إذا بدل

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق ج2، ص 534.

الراكب السير هونا بالدرهام، والدرهام بالغارة من حين إلى آخر، أي إذا سار يمشي الهون عشر دقائق مثلاً، ثم مثلها درهماً ثم بضع دقائق غارة، و كذلك في المسير كله فلا هو يتعب ولا تتعب الذلول، بل في هذا السير المختلط صحة الراكب والمركوب وسرور الاثنين معا¹.

من أشهر الصحاري المعروفة في نجد هناك صحراء الدهناء التي تتميز ببياض رمالها، وشساعة مساحتها وتنوع أعشابها وغزارة مراعيها ((وهاكم الدهناء تبسط لنا النمارق البيضاء، وترحب بنا فينبغي للقارئ أن يعرف بعض الشيء عنها قبل أن نصل إليها، تختلف الدهناء عن النفوذ بأشياء، بطولها وهي تمتد من الشمال الغربي فتتساب كالحية أو تتعرج كالنهر شرقاً بجنوب، حتى تصل إلى الربع الخالي - بلون رماله و هو أبيض إلا في أطرافها- إلا بقلة كثيها ونجوفاتها، فلا يتجاوز أعلى كثيب فيها المئة قدماً، بتنوع أعشابها وغزارة المرعى فيها، زد على ذلك أنها قليلة العرض جداً بالنسبة إلى طولها، والعرب لا يقطعونها إلا في الأماكن التي هي أقل عرضاً من سواها، لذلك هي أسهل سيرا وأينس مشهداً من النفوذ².

إن الصحراء عند الرحالة هي فضاء للحركة والسير، فقد كانت صلة وصل بينه وبين السلطان عبد العزيز آل سعود، كما اعتبرت مكاناً للراحة والطمأنينة، خاصة إذا كان المصاحب فيها السلطان، فهي سجادة العرب، عليها أكلهم ونومهم وسيرهم هذا من جهة، ومن جهة أخرى هي مكان للمشقة والعناء، فصحراء الدهناء طويلة ولا بد لعابرها من ركوب الذلول، وفي ذلك من المشقة الشيء الكثير،

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق ج2، ص 601.

2 - المصدر نفسه، ج2، ص 624.

إضافة إلى ذلك حرارتها المرتفعة، وهي في نفس الوقت تعتبر مكانا للرياضة المتمثلة في ركوب الدلول، تكسب الراكب قوة وصلابة.

7. صورة التجارة:

من المشاهد التي تجلب انتباه الرحالة داخل المناطق التي يزورها صورة التجارة، فهي المحرك الأساسي للاقتصاد، والمؤمن الأول لحياة الأهالي، لهذا نجده مهتما بشتى أنواع التجارة، وذكر مواردها وكيفية تسييرها، لكن ذكرها في المتن كان قليلا إذا ما قورن بما ذكر عن السلاطين وعن العلاقات السياسية بينهم وبين الانكليز، وعن المدن.

يذكر الرحالة تجارة البن في اليمن، التي أراد الفرنسيون الاستيلاء عليها، بغرض توسيع دائرة نفوذهم في المنطقة، منافسين في ذلك الإنجليز، فقد كان هدف الإمام يحيى من هذه الصفقة بيع البن وشراء السلاح، حتى يستطيع مواجهة أعدائه وحماية حدوده، كما أراد الجانب الفرنسي امتلاك ميناء المخا لكن ذلك لم يتم يقول: ((قد علمنا أنهم لا ينالوا الامتياز الكبير الذي طلبوه، وهو احتكار تجارة البن، فالإمام لا يسلم بذلك، ولكنه يعاهدهم على بيع حصته أو بالأحرى الأعشار من البن التي تبلغ عشرة آلاف كيس في السنة، ويشترى منهم ما يوافقه من السلاح))¹

يؤكد الرحالة في مدونته على أهمية التجارة، وقد عدّها من مقومات الوحدة العربية، فبها تزداد البلاد قوة وتحقق اكتفاءها الذاتي، فتتخلص من التبعية الخارجية الأجنبية، كما يدعو إلى النهوض

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 201.

بالتجارة والعمل حتى يتحقق للأمة استقرارها وتنال حياة طيبة: ((فالأمة تحتاج إلى ثياب تقيها البرد، وإلى تعليم يقيها الجهل والمرض، وإلى تجارة تقيها الفقر والشقاء))¹.

زار الرحالة مدينة ميدي، وقد شاهد فيها أثرا للتجارة، خاصة تجارة السلاح والرقيق، كما بين أنها محل للذين يودون الهروب من الضرائب، ومن المراقبة الجمركية، كما يوجد فيها اللؤلؤ، المعروف أيضا في البحرين يقول: ((أما تجارة ميدي فأكثرها بالسلاح وبالرقيق وبالتهريب، إذا احتاج إمام صنعاء مثلا إلى الذخيرة والبنادق يشتريها في ميدي، أو يطلبها لترسل عن طريق ميدي، وإذا أراد أحد تجار الحجاز أن يهرب بضاعته فلا يدفع عليها رسوم الجمر ك يستجلبها إلى ميدي، ومنها برا إلى جدة وإذا أراد أحد السادة شراء جارية حسناء يجيء إلى ميدي، فلا تضل خطاه ومناه، وإنك لتجد فيها اللؤلؤ ودهن السمسم، الذي يعصرونه بين حجارة تديرها الجمال والبنيات السافرات اللواتي ينفرن من آلة التصوير نفور الغزلان، ولا غرو وشهرة ميدي هي في المحرم الممنوع، أي في الرقيق والسلاح وسهام الملاح))².

إلى جانب مدينة ميدي هناك مدينة جيزان، وكلتاها تحت حكم السيد الإدريسي، هذه المدينة الساحلية تزخر أيضا بميناء تؤمه التجارة، لكنه يبدو أنه يتمتع بشيء من الصرامة والمراقبة، تتم فيه عمليات البيع والشراء، وتحمل فيه أكياس الفضة والذهب، إنها مركز تجاري هام، يأتيها الناس من المغرب الأقصى ومن عسير ومن تهامة ومن مصر، يأتونها بالحنطة ويحملون منها الملح، كما تعد ميناء

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق ج1، ص 170.

2 - المصدر نفسه، ج1، ص 368.

لتبادل السلع من خلال السفن التي ترسو فيه فجيزان ((مركز استيراد و توزيع، جيزان مورد تجري إليه الأموال من هذه الجهة و من تلك، فتنوزع منه إلى الجهات كلها وهكذا تعيش جيزان من لا شيء يرى))¹.

يواصل الرحالة مساره ليصل إلى البحرين، وبالتحديد مدينة المنامة فيلحظ فيها مكانا للتجارة، يختلف عما رآه سابقا في ميدي وجيزان، فالتجارة في المنامة تتخذ شكلا منظما بما فيها من تدوين للبضائع ومواعيد للسفر، ودفاتر تقيد فيها الأموال، فتشابه بذلك المدن الكبرى مثل القاهرة وبمباي ((وإذا ما السائح وطئ أرض الجزيرة، وجال في أسواقها يستلفت نظره كذلك حركة تجارية، لا ينبئ حتى ظاهرها بكل ما هناك فهو يشاهد في المخازن من الملبوس والمأكول والمشروب، ومن أسباب الزينة والترف ما يندر إلا في المدن الكبيرة مثل بمباي والقاهرة))².

أشار الرحالة أيضا إلى تجارة أخرى تمثلت في اللؤلؤ الذي يعتبر من الجواهر الثمينة، ويستخرج من طرف الغواصين، الذين يعملون على بيعه إما للأوروبيين، أو يسافرون به إلى بمباي، وتكون هذه العملية في فصل الصيف، وتتم عملية استخراج اللؤلؤ بطريقة بدائية بسيطة حيث يغطس الغواص في الماء دون آلات للتنفس، لهذا لا يزيد وقت الغوص عن ثلاث دقائق.

إنها تجارة يحصلون من خلالها على زادهم، كما تعتبر عمل يسيره رجال خواص حيث يجتمع فيه الفريق كل ووظيفته، من صاحب للجلبوت ويدعى "ناخوذاه" والغواص "الغيص"، والذي يجر حبال الغيص "السيب" والمساعد لهم "الرظيف"، وأخيرا التلميذ المتعلم ويدعى "التياب"، ((وهناك تجار اللؤلؤ في

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق ج1، ص 337.

2 - المصدر نفسه ، ص 208.

البحرين، فهم يبيعون ما لديهم منه في الجزيرة إلى تجار أوروبيين وإلى الذين يجيئونها في الموسم لهذه الغاية، أو يسافرون به إلى بمباي فيبيعونه هناك¹.

8. صورة الزراعة و موارد الماء:

اهتم الرحالة بمظاهر الزراعة وموارد الماء، لأنها تشكل مصدرا هاما من مصادر الحياة، ومهنة أساسية للأهالي، وقد لاحظ هذا في كل المناطق التي زارها من زراعة للحبوب، وأشجار النخيل بتمورها الزاهية، وأشجار الفواكه من رمان وعسل مصفى، هناك بعض المزروعات رآها بنفسه وتمثل الأغلبية، والبعض الآخر أخبر به، ومثال ذلك ما أخبره به الملك حسين عن رمان وعسل الحجاز: ((ولكن الحجاز على فقره يفاخر سائر الأقطار العربية بشيئين، بعسله ورمانه عندما جاء الخديوي عباس حاجا أكل من عسلنا، وكان يقول بعد الشهادتين وأشهد أن لا عسل مثل عسل الحجاز، أما الرمان وهو يجيء من وادي لية قرب الطائف فيصير كبيرا كالحبيب (البطيخ)، وهو كبير الحبة خال من البذر أكبر وألذ ما في الدنيا²)).

إن منطقة الحجاز لم تعرف تطورا كبيرا في ميدان الزراعة، وذلك راجع إلى مناخ المنطقة فهو مناخ جاف شبه استوائي، ما أدى بكثير من البدو إلى مزاوله حرفة الرعي للأغنام، والنوق التي يستفاد من ألبانها، وصوفها، وأوبارها، ولحمها، وشحمها، وكثير من الحبوب التي لا توجد في المنطقة تضطر الحكومة إلى استيرادها، من المناطق المجاورة وخاصة الحجاز، لموقعها الساحلي حيث ترسو السفن، كما نجد قوافل التجارة التي تجوب الصحراء الرابطة بين مدينة وأخرى، فنجدهم يستوردون الأرز والقمح

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ج2، ص 720.

2 - المصدر نفسه، ج1، ص 45.

والشعير والسكر، من مصر واليمن، والبن الذي له شعبية كبيرة في المنطقة من اليمن، والتوابل من الهند، والفواكه المجففة من سوريا.

كما يحدثنا الرحالة عن منطقة اليمن، التي زارها حين قصد الإمام يحيى، وأثناء سيره لاحظ الأرض الخضراء الحاملة لمزروعات طابت روائحها، والوديان العامرة بمياهها، كوادي الذهب ووادي نحلان، هي أرض اليمن التي عرفت بجنتاتها وبساتينها من أقدم العصور، وتكثر بها الرياحين كالينسون والبيلسان، وأشجار البطم والغار، هي صورة الطبيعة التي تأخذ الرحالة، وتذكره ببلده لبنان، وقريته الفريكة التي لازمته طيلة فترة رحلاته.

ثم يصل الرحالة مدينة آب مستقبلا إياه عاملها إسماعيل، الذي يصحبه في نزهة إلى بساتينه الغناء، حاملا في يده باقة من ورد نيسان يقول: ((زرت وإياه بساتينه التي يزرع فيها من الثمار أنواعها، تلك التي تصلح في الشمال وفي الجنوب، في المنطقة الباردة والمناطق الحارة، فرأينا الزيتون والموز والعنب والتفاح والرمان، زاهية كلها زاهرة، إن هذه الأشجار تنمو كلها في اليمن الأسفل، لأن تلك البقعة من الأرض في حين أنها تعلو خمسة آلاف قدم عن البحر، فإنها لا تبعد أكثر من عشر درجات عن خط الاستواء))¹.

توجد زراعة القطن والعنب في منطقة لحج، لكنها أيضا ما زالت تقتقر إلى التطور، فقد رأى الرحالة العمال يعملون في حفر بئر فأرجعهم إلى عهد عاد وثمود، لكنه دعا إلى فكرة قد تكون خادمة لتطوير الزراعة، هي توفير المياه ببناء السدود، لأن الوديان تقل وتجف في فصل الصيف: ((ها هنا

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق ج1، ص 107.

وجدنا النقص في الزراعة فإن أرض لحج خصبة جدا، ويمكن أن يزرع فيها القطن، الذي رأينا قليلا منه في البساتين، إذا بني سد في طرفيها الشمالي على مرتفع من وادي دبن، تصب مياهه في الصيف فيسقي الأرض المزروعة كلها))¹.

من اليمن يتجه الرحالة إلى نجد، فيتأسف على مظاهر الطبيعة التي لا تعطي للشجرة قيمة كبيرة، فالأنعام وفأس الحطاب كانا عليها، تمثل هذا في منطقة وادي حنيفة: ((مررنا في وادي حنيفة ببقعة تدعى الحيسية، فيها غاب من الطلح والسلم هو أول ما شاهدت في نجد، ولكن الأشجار متفرقة متكسرة قليلة الاخضرار ضئيلة الظل، تسطو على أصولها وجديدها الأنعام، و يفتك بفروعها فأس الحطاب))².

إنّ الماء يعد ثروة طبيعية هامة لا غنى للإنسان عنه، إلا أنه قد يهمله ولا يعيره اهتماما كبيرا، فينعكس ذلك سلبا على مردوده الزراعي والطبيعي، فبعد أن دعا الرحالة إلى بناء السدود في اليمن، ها هو ذا يدعو إلى الاهتمام بالماء في منطقة الحفر بنجد، هذه المنطقة التي شهدت صراعات كثيرة بسبب موقعها الاستراتيجي الهام، هذا الصراع خلف نوعا من عدم الاهتمام بها، ما أثر سلبا على الإعتناء بالزراعة بها، فلا تكاد ترى عشبة خضراء و لا زهرة يانعة، مع أن كل شروط الزراعة متوفرة من أرض خصبة، وماء وافر، وأسمدة عضوية ناتجة عن روث الإبل حين تأتي للشرب، ((فوا أسفاه إن الحفر حفرة دفنت فيها كل آمالنا وأحلامنا، هو القفر السبب يقينا، تربة رملية ولكنها سوداء، لا ظل فيها ولا ورقة

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق ج1، ص 438.

2 - المصدر نفسه، ج2، 602.

عشب خضراء أو يابسة وإنه ليحزن الفلاح خصوصا إذا علم بأن الأرض حول الآبار على مسير ساعة في الجهات الأربع، هي سوداء من السماد فيها لكثرة ورود المواشي على مائها¹.

إنّ الزراعة في الجزيرة العربية عرفت تطورا ملحوظا رغم ما شابها من نقائص في الاهتمام بها، يوجد بها النخيل الذي عرف بجودة تموره وبأنواعه التي تزيد عن مائة نوع²، كما يوجد بها أشجار الليمون والموز والخوخ، وزراعة القطن، والبن في اليمن، إضافة إلى هذا نجد الثروة الحيوانية وعلى رأسها الإبل التي تعتبر الثروة الأولى في الجزيرة، ونجد كثير من الرحالة العرب الذين زاروا المنطقة وتكلموا عن مزروعاتها ومياهاها كابن بطوطة، وابن جبير، والعبدري، والرحالة الأوروبيين كالبارون إدوارد نولده³، والليدي أن بلنت الإنجليزية، والفنلندي جورج أوغست والن.

يواصل الرحالة ذكر مشاهدته الزراعية، متحولا شطر المغرب الأقصى، حيث يجد للزراعة باعا كبيرا ويبدأ عاملة نشيطة، يرجع ظهور نشاطها عندهم منذ عهد مبكر، خاصة إذا علمنا أن سكانه الأوائل كانوا من البربر، وأهم شيء كانوا يعرفونه هو الزراعة، إضافة إلى هذا فقد كان الشعب المغربي يزاول هذه المهنة، جاعلا منها قوته اليومي، وعمله الذي يرى فيه رياضة ومنتعة، إلا أن الزراعة أصبحت عاملا مهما من عوامل التطور الاقتصادي، وتحقيقا للاكتفاء الذاتي للبلاد، وقد أخبرنا الريحاني عما رآه من

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق ج2، ص 638.

2 - المصدر نفسه، ص 729.

3 - ولد نولد عام 1849 في كورلاند لعائلة ألمانية مقيمة في جمهورية لاتفيا التي كانت تحت الحكم الروسي، في عام 1870 دخل متطوعا في كتيبة الحرس أولان التي كانت موجودة في وارسو، و في عام 1872 ذهب إلى اسبانيا حيث عمل متطوعا في صفوف فرسان كارل، و في عام 1879 انتقل إلى بطرسبورغ وعين في وظيفة مفتش ضريبة خمر، وفي عام 1888 بدأ رحلاته إلى القسطنطينية و افريقيا والجزيرة العربية، توفي منتحرا سنة 1895، في لندن عن عمر يناهز 46 سنة.

حقول مزروعة، وأيد تمارس عملها بكل جد ونشاط، إضافة إلى ذلك أن العامل الأساسي للزراعة الماء، وهو متوفر حيث يوجد بالمغرب ستة أنهر وهي : ((نهر مارتيل المجاور لتطوان، ونهر لو النابع من جبل شفشاون، الجاري بين جبال بني حسن وبني سعيد إلى واد لو فالبحر، ونهر النكور والفيش إلى شرق وغرب بني ورياغن، إلى جون الحسيماس شرقا، من سنخورخو و نهر إيجان الذي يجتمع بنهر الكرت في الناحية الشرقية، ويجري في أرض بوغفر إلى المتوسط، ثم أكبرها وأطولها نهر ملوية، وهو ينبع من جبال الأطلس إلى نحو أربعمئة كيلومتر من البحر، أما في الناحية الغربية فأكبر الأنهر نهر لوكوس، النابع من جبال جنوبي شفشاون، الجاري غربا إلى القصر الكبير، فالعرائش فالأقيانوس، وهناك أنهر صغيرة تجف في الصيف مثل أنهر لبنان الشتوية))¹.

إن هذه الأنهر توفر عاملا زراعيًا مهما، خاصة وأنها تمر أمام أراضي زراعية فتوافق بذلك أهم عاملين للزراعة الماء والأرض، ليجدا اليد العاملة التي تجعل الأرض خضراء بشعيرها وقمحها وأشجارها، ويذكر لنا الريحاني بعض التقارير لسنة 1934 يقول: ((أمامي الآن تقرير الحكومة لسنة 1934 وفيه أن الأشجار المغروسة في هذه الإيالة مائتين وأربعة وثلاثين ألف شجرة، والأرض المزروعة قمحا وشعيرا تبلغ ثلاثة وستين ألف هكتار، أكثرها لقبائل بني عروس وبني غرفط وأهل سُرِف، مما هو جدير بالذكر أن بني غرفط القبيلة الجبلية في هذه الإيالة تكثر من زرع الحبوب، خصوصا الحمص والجلبان (البسلة)، فقد زرعت منها بموجب إحصاء هذه السنة ألفين وخمسمائة هكتار، أما إيالة غمارة فهي جبلية في مجملها، وتزيد فيها القرى على الزرع، وقد بلغ عدد أشجارها مليونًا ونصف مليون شجرة، وما تجاوز زرعها الثمانية عشرة ألف هكتار، هذا التباين في القرى والزرع كائن أيضا في الريف، فالأرض المزروعة

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج 1 ص 146.

فيها أربعون ألف هكتار، وتندو الغراس في عددها من غراس الغمارة، أضف إلى ذلك أن فيها من القبائل الواسعة الأملاك أكثر من سواها منها: بوفراخ وورياغل وبنو جميل وبطفت وبقوية))1.

يظهر لنا جلّيا اهتمام سكان المغرب بالزراعة خاصة إذا اعتبرت أنها من أهم مصادر عيشهم، فالمغربي يعيش على الحبوب خاصة القمح والشعير، كما يستفيد من طحينها ويعطي التبن للمواشي، التي يستفيد من ألبانها، ولحومها، وصوفها، فيكون بذلك محققا للاكتفاء الذاتي الغذائي.

كما عرف المغرب بزراعة، قيل أنها ممنوعة، لكنها كانت تزرع ولا وجود لقانون يمنعها، إنها زراعة الحشيش، أو ما يسمى بالكيف، وهو نوع من المخدرات موجود في بلاد المغرب، وهو يزرع لحاجة الناس إليه بعدما ألفوه واعتادوا عليه، يخبرنا الرحالة عما يزرع في إيالة الريف: ((وفي هذه الولاية يزرع الحشيش وهو غير محظور، الحشيش الذي يسمى عندهم الكيف تزرعه قبيلة واحدة فقط هي: بنو سدات، فقد جاء في تقرير الحكومة أن بني سدات زرعوا في تلك السنة سبعة هكتارات من الكيف، قيل لي إن هذا الكيف المغربي لا يكف مثل الأفينيون عند الهنود أو القنب عندنا لضعف في مادته السحرية))2، و لازلنا نرى هذه المادة الكيف ليومنا هذا موجودة بالمغرب، ومتداولة بين الناس، ولها تجارة رائجة قد اعتاد عليها كثير من الناس.

هذا النبات المعروف بالحشيش يذكر ما يقابله في اليمن إنه القات، وعند الإنجليز ساعة الشاي: ((ساعة القات* عند أهل اليمن، مثل ساعة الشاي عند الإنجليز، و لكن القات غير الشاي، القات مخدرهم وتبغهم ومسكرهم، وهم يدمنونه إدمان الأوروبيين الخمر، قال شاعرهم العامي:

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ص 149.

2 - الريحاني أمين، المغرب الأقصى، م02، ص 150.

زمردا يقطف الأصحاب أوقاتا يصفو به العيش أحيانا وأوقاتا

يا عاذلي عن حصول القات متكدا لا نترك القات أحياء وأمواتا))1

كما امتاز المغرب بزراعة الأشجار المثمرة وعلى رأسها الزيتون، وهناك أشجار أخرى يذكرها الريحاني: ((أما الأشجار فأكثرها ما يغرس منها في المغرب الخليفي التين والكرم، ثم الزيتون واللوز ثم المشمش والسفرجل، والرمان والليمون والبرقوق والتفاح والقراسية التي يسمونها حب الملوك))2.

كما اشتمل المغرب على مادة أساسية وثمينة تمثلت في العسل، الذي يصفى من خلايا النحل، وهي موجودة في المنطقة الغربية، وتبلغ ستة عشر ألف خلية، وبالمطقة الشرقية أربعة آلاف خلية، هذا ما يبرز اهتمام المغاربة بالزراعة، بشتى أنواعها و حسب الظروف المتوفرة.

قد اهتم الرحالة بالجانب الزراعي لمنطقة الأندلس، فهو رحالة يعمل على المقارنة بين المشاهدات التي رآها من منطقة لأخرى، محاولا التوغل في الأوساط الاجتماعية، دارسا لتاريخها و حياتها المعاصرة بمختلف جوانبها، حتى تتكون له صورة واضحة عن ذاك الآخر الذي يراه مغايرا له وجبت معرفته ودراسته، حتى تكتمل صورته في ذهنه.

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، م 01، ص 99.

* - جميع الناس في اليمن من رجال ونساء و أولاد و من أغنياء وفقراء يأكلون القات يخزنون. و التخزين أن تمضغ الأوراق مضغا بطينا طويلا، كما يمضغ بعض الأمريكيين التبغ ويحفظونها تخزينة "أي كتلة" في الفم يجثرونها، ولكنهم لا يبصقون مثل الأمريكيين إلا عندما تذوب التخزينة، فيبصقون إذ ذاك في إناء من نحاس ما تبقى منها ويخزنون غيرها، إن مجلس القات لا يتم بغير أباريق الماء وكؤوس النحاس الجميلة الشكل، الشبيهة بالكؤوس الذهبية التي تستعمل في الكنائس وقت القداس.

2 - الريحاني أمين ، المغرب الأقصى، ص 151.

كما توّصل إلى أن العامل الزراعي ذو أهمية بالغة في الحياة الاجتماعية، وتعتبر هذه المهنة من المقومات الأساسية للحياة البشرية، وذلك لملاءمة المناخ الذي يسمح بزراعة أنواع الحبوب والأشجار، كما نجد عامل وفرة المياه الذي عمل على ازدهار الزراعة، واليد العاملة التي استفادت من هذه الثروات، وعملت على تسخيرها لفائدتها، هذا ما أدى إلى إنشاء الجنان بالقصور كقصور قشتالة: ((ثم محطة صيد لملوك قشتالة، فشيدت فيها القصور، وغرست الحدائق، بكل نادر من الشجر والزهور، وهي لا تزال مشهورة بحديقتها الغناء، وبطيورها الفريدة، خصوصا القبرة))¹.

كما يوجد بالأندلس الوادي الكبير الذي يساهم بقدر كبير في اتساع رقعة الفلاحة، فهو مشابه لنهر النيل في مصر، لهذا تكثر الزراعة على طرفيه، كما يستغل للملاحة وللتجارة: ((و إن الوادي الكبير هذا لأكبر نهر في اسبانيا بعد نهر إبرة، فهو ينبع في جبال قزرولا (KAZAROLA) ويجتمع إليه أنهر عدة صغيرة، تجري من سفوح جبال مورينه، أعاليه هائجة صاخبة، ولكنه يصل إلى قرطبة هادئا، ويجري في البساتن متسعا مرتاحا فيصلح للملاحة منها على خليج قادش فالبحر الأطلنتيق))².

وقد كان اعتماد أهل الأندلس في زراعتهم على أدوات تقليدية رغم وجود الآلات الحديثة، وقد يرجع هذا إلى عدم توفرها في الأرياف، كما نلمس تلك العلاقة التي تربط الإنسان بماضيه، وتعامله مع الحيوان الذي يعتبر مرافقا له في حياته، يقول: ((وفي هذه الأرض حياة زراعية اجتماعية قديمة العهد، رأينا النساء يحملن على رؤوسهن الجرار، وقد ملأنها من العين كأنهن لبنانيات أو فلسطينيات))³، كما

1 - الريحاني أمين ، نور الأندلس، ص 727.

2 - المصدر نفسه، ص 610.

3 - المصدر نفسه، ص 732.

نجد النساء تعملن في الأرض فتقوم بالحصاد بالمنجل، مرافقة في ذلك الرجل مما ينبئ عن اجتهداها، ودورها في المجال الاقتصادي للأسرة.

هي الطبيعة التي تلامس فؤاد الرحالة، والتي تظهر لنا أدبيته ورومنسيته، فنراه يجمع بين رهافة الحس وبراعة التعبير، يصف مكانا بين اشبيلية وقرطبة، يراه أجمل بقعة في الأندلس، فما سر هذا الجمال؟ يجيب الريحاني: ((إن أجمل بقعة في الأندلس، هي التي بين قرطبة واشبيلية، كنا نرسل النظر في الآفاق البعيدة المشرقة، والأرض بيننا وبينها تتموج ألوانا بما في حقولها ورباها من البقع المزروعة والمحسودة، البقع الخضراء والحمراء والذهبية والبنية، وهناك الأراضي التي تهبط وتعلو برفق ورشاقة، فتبدو كالأراجيح وقد غرست بالزيتون صفوفًا كأنها العمدة في الجامع الكبير، أو صفوفًا من الجنود جنود السلام، هي ذي الطبيعة في مجدها ولطفها وحسنها وسكونها وثمارها))¹.

9. صورة الصناعة:

إذا تحدثنا عن الزراعة فهذا لا يعني أن المغرب لم يعرف الصناعة، بل عرفها وعمل فيها بكل كد وبكل ما أوتي من معرفة وقدرة، نريد بالصناعات تلك الصناعات الفردية التقليدية التي اتسمت بالبساطة في أدواتها وبالجودة في نوعيتها، توجد صناعة السجادة أو ما يسمى بالزربية التي تعتمد بالدرجة الأولى على اليد الفنانة.

وقد كان للأجنبي الإسباني دور في هذا، حيث نجد في تطوان مدرسة الصناعات التي يترأسها السنيور "موريانو برتوشي" الفنان الإسباني الغرناطي، وقد كان من أهداف هذه المدرسة الحفاظ على

1 - الريحاني أمين ، نور الأندلس، ص 616.

الصناعات التقليدية التي تقترب من الإندثار، يروي لنا الريحاني ذلك عن السجاد فيقول: ((فإن كانت صناعة البساط "السجاد" من تلك الصناعات فهي إما مضمحلة، وإما مجددة للأصل الخشن الزري، وقفنا عند سجادة كبيرة والأصح أنها تدعى بساطا أوروبيا، طولها ثلاثة أمتار، وقد جلست على الأرض أمام النول ثلاث بنات تعمل كل منهن في قسم منها، فتعقد العقدة تلو العقدة وتقطع أطرافها بالسكين، وهي تلزم الرسم المرسوم لها، إنه لعمل بطيء وغير دقيق ولا عجب فالتناسجات طالبات ولا تتجز الواحد منهن في اليوم الواحد أي في سبع ساعات أكثر من خمسة عشر سنتيمترا، ولكنها تتعلم وترتق معا، فتكسب فوق الصناعة بسيطتين أو ثلاث بسيطات (عشرون أو ثلاثون قرشا) كل يوم، وعندما تتزوج تقدم لها المدرسة المواد اللازمة للعمل في بيتها))¹.

وكما نجد صناعة النجارة وتكوين النجارين الذين يتعلمون على صناعة الجرة، والموائد والأطر، مماثلين في ذلك الصناعة العربية الأندلسية، إلى جانب ذلك نجد صناعة البلاط الأندلسي، وهي الآن مشهورة ومعروفة عند المغاربة، ((أما صناعة البلاط الأندلسي العربي فلا تزال شائعة زاهرة، وفي مدرسة الصناعات فرع لها يتعلم الطلبة فيه الأولويات في جبل التراب، وسنّه وصبغه بالأصباغ، ثم تقطيعه مربعات ومثلثات ومخمسات، لصناعة الفسيفساء، أما الألوان والرسوم فأكثرها مأخوذ مما يشاهد اليوم في دور الحمراء))².

كما توجد صناعة النحاس والحدادة ولها في ذلك صناع مهرة، ولا زالت هي أيضا موجودة خاصة أباريق الشاي، وما يسمى "بالصينية"، عبارة عن صفيحة من نحاس أبيض أو أصفر مرتفعة الجوانب

1 - الريحاني أمين ، المغرب الأقصى ص 137.

2 - المصدر نفسه ، ص 138.

بحوالي اثنين أو ثلاثة سنتيمتر، وعليها نقوش وزخرفة عجيبة، كما تجد صناعة الخناجر والبنادق، وهي صناعة قديمة بالمغرب، قد فرضتها متطلبات الحياة كغيرها من الصناعات، لكنها تبدو قليلة إذا ما قورنت بغيرها يقول الرَّحالة: ((ومن الصناعات المغربية القديمة المتسمة بميسم الفن المغربي، صناعة الخناجر والبنادق (البواريد)، وخصوصا تلك البارودة الطويلة الرفيعة العنق الواسعة القبضة، التي تدعى "أم كحلة" المشهورة بهذا الاسم في المغرب، وقد أمست للزينة بعد عزها في ساحة الوعى، وليس لها في مدرسة الصناعات غير غرفة صغيرة وأستاذ واحد وطالبان اثنان أو معاونان له في المحافظة على مجدها وكيانها))¹.

هكذا نجد الشعب المغربي قد زاول صناعاته بكل تقنية وحب، ويبدو أن اليد الإسبانية كان لها دور فعال في تطوير هذه الصناعة، والمحافظة عليها، وقد أدرك المغاربة أهميتها فعزموا على مزاولتها، هذا ما نراه قائما وما زاد الأمر جمالا، هو ممارستها في واقع تقليدي محض أي فتح محلات تقليدية واستعمال وسائل قديمة وبسيطة.

يُسخر الفرد الصناعة لخدمة حاجياته، مستمدا موادها الخام من محيطه الحاوي للمعادن والخشب والحيوان والنبات، وإذا ما تفحصنا بلاد الأندلس ألفيناها ذات ميادين صناعية شتى، خاصة إذا رجعنا إلى عهدها العتيق، حيث القصور والنافورات والجوامع، وحسبك في ذلك قصر الحمراء بغرناطة، والجامع بقرطبة.

هذا الجامع الذي شاع منه نور الأندلس، وتاريخ الإسلام و براعة البناء، هذا المعلم الثقافي والديني الذي تعرض للهدم والتخريب من طرف النصارى الذين اعترفوا بأهميته بعد ذلك، فقد ((روي أن

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ص 139.

الملك شارلس الخامس قال يوم زار الجامع بعد أن استولى المسيحيون عليه، لو كنت عالماً بما زعموا على عمله لما آذنت به، لأن ما بنيتم موجود في كل مكان، أما ما هدمتم فمنقطع النظر في العالم¹، هذه شهادة حية على عظمة الجامع الذي ضم الروافد المنقوشة الملونة والقناديل النحاسية التي تنور الجامع، والتي لم يبق منها إلا قنديل نحاسي واحد وهو داخل الكنيسة.

لقد أدرك الإنسان أهمية الآثار الإسلامية وما لها من فوائد في تزيين المدينة، وجلب السياح، إضافة إلى ذلك لما تحويه من مواد ذات قيمة، من رخام وبلاط، وأشكال هندسية لها ما يرفعها من جمال وبهاء.

كما تزخر بلاد الأندلس بالمناجم كمنجم النحاس بجوار شريش²، ((إننا الآن في الطرف الجنوبي الغربي من الأندلس السفلى، حيث كذلك المناجم والمرافئ التاريخية ففي جوار شريش في شمالها الغربي سان لو كارده باراميدا (SANLVCARDO BARAMIDA)، التي يصب الواد الكبير في برزخها، المتصل بالبحر، فقد كان ميناؤها عامراً في الماضي يجاري ميناء قادس، ومنه سافر كولمبوس سفريته الثالثة إلى أمريكا، ومنها بحر ماجلان (MAGELLAN)، ليرحل رحلته 1519 حول الأرض³)).

إن وفرة المناجم والموانئ، لدليل على وجود حركة صناعية وتجارية داخل المجتمع الإسباني، هذا إضافة إلى صناعات أخرى كالنسيج والجلود والروائح والأخشاب، التي كانت تنتقش لتزين بها الكنائس،

1 - الريحاني أمين ، نور الأندلس، ص 615.

2 - من كور شذونة بالأندلس، بينها وبين قلشانة خمسة وعشرون ميلاً، وهي على مقربة من البحر، يجود زرعها وبكثر ريعها، (الحميري، الروض المعطار، ص 340).

3 - الريحاني أمين ، نور الأندلس، 617.

((أما الخشب المحفور على وفره وأنواع فته في هذه الكنيسة، فهو دون الفن العربي الذي نشاهد في القصر أمثلة منه رائعة))¹.

ولابد لهذه الكنائس من فولاذ ونسيج، هذا الذي كان متوفرا أيضا في الأندلس، حيث كانت هناك مصانع للفولاذ والنسيج بطليطة، كما نجد صناعة السلاح التي كان لها دور كبير في حروب اسبانيا، سواء على مستواها الخارجي مع دول الجوار، أو في حربها الأهلية، ((ومما لا ريب فيه أنه كان أسعد زمان من أزمنة هذه المدينة فازدهرت فيها الثقافة العربية، والعبرية وشيدت فيها صروح للعمران، فتعددت أنواع النسيج وتجددت مصانع الحديد و السلاح))².

إضافة إلى ذلك نجد البناء الذي كان موجودا ومتمثلا في بناء الكنائس والبيوت، التي اعتمدت على هندسة متقنة، ومواد صناعية من حديد وخشب وزجاج وإسمنت، إننا نلمس حركة دؤوبة في العمل، خاصة إن كان هذا العمل هو إعداد لعيد أو مهرجان شعبي كبير، حيث نجد بالكنائس عدة مواد دلت على وفرة الإنتاج وتنوعه، ((في الكنائس ضجة، في البيوت والمخازن ضجات، فالشمامسة ينظفون تماثيل القديس والقديسات، والكهان يخرجون الحلي من أسفاتها والخدم يزيلون الغبار عن الأثواب التاريخية والصور، والنجارون يبنون السدد والهواذج، والنساء يملأن القماقم بماء الورد، والبنات ينظفن أكاليل الزهور وبائعوا السمك يجلبون القناطير من القريديس، ومعامل البيرة تضاعف إنتاجها))³.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 636.

2 - المصدر نفسه ، ص 715.

3 - المصدر نفسه 625.

الفصل الثالث

الصورة الدينية

إنّ الدين من المقومات الأساسية التي لمسها الرحالة في مختلف المناطق التي زارها، وقد كان له في كل منها رأي ونقد، فقد كان كل ما يراه يفسره من خلال ذاتيته، وانطلاقاً من مرجعيته الثقافية، محاولاً الوصول إلى حقيقة يراها خادمة لتلك الشعوب، عاملاً على جعل الدين وسيلة للتوحد لا للتفرقة، مؤكداً اختلاف العقائد والملل، لكن الأثر الإنساني يبقى هو الأسمى.

من خلال رحلاته لمس ديانة الإسلام بمختلف فرقها فقد وجد السنيين والشوافع والزيديين، كما لمس طرقاً دينية كالصوفية، التي كانت بعسير مع السيد الإدريسي، وبنجد تكلم عن الحركة الوهابية التي تعتبر عاملاً أساسياً في قيام الدولة السعودية، إضافة إلى هذا تطرق إلى صورة الأولياء، وأثرهم على التدين الشعبي.

إنّ حركية الرحلة المستمرة في الزمان والمكان، جعلت الرحالة يعمل على استنباط سمات دالة، جمع فيها بين العقل والذات، محاولاً استيعاب الآخر واحتواءه، وفق ما يراه خادماً لرحلاته، فنلمس بذلك سلطة الآخر تتحكم في المسار الرحلي، فالكتابة قد أحكمت بمشاهد ومحادثات وقعت أثناء الرحلة، فهي الفعل المسيطر على السارد، الذي اتسمت كتابته بوظيفة تعليمية، حددها السؤال الشفاهي المتكرر عبر محطات الخطاب الرحلي.

إنَّ الرحالة معتق للديانة المسيحية، فالآخر العربي المسلم يعد بالنسبة إليه آخر مخالف، يريد كشف خباياه ومعرفة حقيقة جوهره وفكره، مستخدماً في ذلك أسلوب الحوار، المبني على السؤال والجواب، والمحتوي على فرضية الإقناع وإظهار الحجّة، عاملاً على إحكام العقل حتى تتضح الأمور، ولا يحدث الخلط بين ما هو أصيل سماوي إلهي، وبين ما هو إنساني أرضي وضعي، والمقصود بهذا كيف يفهم الفرد الدين ويتعامل به مع باقي الأفراد.

1. صورة الدين بين الفرد والجماعة:

من ركائز الدين ودعائمه فهمه، وإيصال فقهه إلى الخاصة قبل العامة، فالفرد الاجتماعي تابع لمرشده بصفته المطلع على تعاليم الدين في البلد، والفارض لقوانينه، والعامل على تهيئة الجو المناسب للممارسة الدينية، حتّى يحيا الناس في ظل أمانه وهدايته، هذا ما كان الناس يرونه في الملك حسين منقذ الأمة الأكبر - كما سماه الريحاني - يمنع كل شيء يرى فيه خروجاً عن الإسلام، لكن هناك حرية في الفكر تؤدي إلى التطور والرقى، هذا ما يراه الريحاني قائلاً: ((ألا هو الشرع لنعد إلى الكتاب والسنة، وأن كل ما يخالف ذلك في حياة المسلم قولاً أو عملاً، وكل ما فيه شيء يطلق في المسلم حرية قد تخرجه عن المشروع والمنقول، بل كل ما فيه جرثومة علم قد تكون نتيجتها ولو بعد جيلين، حيوان كفر كبير، فهو من الولايات التي يحاربها المتشرع الحكيم والحاكم البعيد النظر، أجل إنه يحاربها قبل أن تظهر إلى عالم الوجود))¹.

إنَّ الريحاني يبيِّن التوجه الديني للملك حسين، الَّذي يريد أن يحصر الدِّين فيما يعلمه هو، ولا يزيد عن ذلك أي من كان، فيكون بذلك مشددا الخناق على حرية الفكر، والاجتهاد في الدين، وإحلال فقه الواقع، كما يظهر أنه يريد إبقاء العامة تحت نظره فلا يكون له مناهض ولا رافض لرأيه، ونجد من علماء جدة من يرفض هذا الواقع، فيرى التَّعلم عند الأجنبي فيه مصلحة، لكنَّهم لا يستطيعون مواجهة الملك.

هناك جدلية الدين والعقل، من المفروض أن للدين نسبة من العقل والفرد يهتدي به، وبالعقل تستقيم حياة الفرد وبه يصبح فاعلا اجتماعيا ايجابيا، يحفظ استمرارية المجتمع وصلاحه، لكن إذا استعمل الدين كمصلحة لتحقيق المقاصد فهنا أصبح الدين لا يخدم الجماعة، هذا ما رآه الرحالة حينما قابل الملك حسين ((على أنه إذا أنعمنا النظر في سيرة الملك حسين وفي ما له من الدهاء وغريب أساليب السياسة، نتأكد أنه اتخذ الدين أو العاطفة الدينية في العرب، سبيلا إلى تحقيق مقاصده))¹.

يتكلم الرحالة عن هذا الملك الذي جعل من الدين منفذا لتحقيق أهدافه الخاصة، وهذا راجع إلى النصوص التي تضمنها منشور الاستقلال، الذي دعا إليه الملك حسين وكان موجها إلى الأتراك، فالرحالة يتعجب من مناهضة الأتراك، من طرف الملك وهو قد تربى عندهم، فهم أدركوا بسلوكاته وفكره، فبالتالي لا يستطيع الانتصار عليهم، حتى ولو انتصر العرب على الأتراك في الحجاز فالبلية في الفكر التركي للملك: ((ومهما كان من انتصار العرب على الترك في الحجاز وفي سوريا باسم الدين أولا، فإن انتصار الروح التركية على زعيم النهضة وكبيرها، إنما هو رأس الخيبة والفشل في سياسته كلها))².

1 - الريحاني أمين، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 61.

2 - المصدر نفسه، ج1، ص 62.

إن الرّحالة يرى في الدّين عقما للعقل، فالفرد إذا ما ابتعد عن الدين كان فطنا، وذا بصيرة أما إذا ارتبط بالدين فقد حاد عن الصواب، وقارب بذلك الخطأ، فالدين حازر للإبداع، وقيد لحرية الفكر، أما إذا فارق الدين العقل صار التفكير حرا، فتزيد بذلك مساحة إبداعه، يرى في تلك التعاليم الشرعية حدودا للفكر، فالشرع وضع حدودا لا يجب تخطيها، لكن هل ينطبق هذا على الجميع؟ يقول: ((فإنك تلقى امراة ذا فكر وقاد ونظر نقاد، سليم الذوق والعقل، كبير النفس والخلق في كل أعماله وأقواله، إلا ما كان له علاقة منها بدينه ومذهبه، فتلقاه إذ ذاك سخياف الفكر وإن ضنّ به، سقيم الذوق وإن عالجه بالأعذار، وحلو الكلام عقيم العقل وإن أغرق في الاجتهاد قليل الثقة بالناس وإن عظم ايمانه بالله))¹.

قد يكون دين الفرد عقيما وسط جماعة تختلف معه في الدين، فالرحالة زار مناطق في الجزيرة العربية، ومن بينها منطقة الحديدة التي رأى فيها اختلافا في الأجناس وفي الأديان: ((فيهم من أجناس الشعوب العربي والسوري والمصري والسوداني والصومالي والهندي والجاوي والایراني، وفيهم من تعدد المذاهب والأديان، الشافعي والمالكي والحنفي والزيدي، والجعفري والاسماعيلي والماروني والبارسي عابد النار، والهندوسي عابد البقرة، والبوذي عابد اللاشيء في اللانهاية السرمدية))².

يرى لكل جنس سمة يمتاز بها عن الآخر، لكن اختلاطها يعتبر استهجانا وخطا في النسب ينقص من شخصية الفرد، وبالتالي في أدائه الاجتماعي، يخص هذا في نظريته لأهل المشرق، الذين يرون أن تمازج الأجناس عن طريق الزواج يحسن النسل، وهذا عند الريحاني أمر خاطئ.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج1، ص 177.

2 - المصدر نفسه، ج1، ص 281.

إنّ الدين من الأمور الهامة التي تجلب عيون وأفكار الرحالين، فنجدهم إما مشيدين به، أو رافضين أو معجبين مستغربين، نجد الرحالة الورتلاني يصف ليلة السبت عند قبر الإمام الشافعي يقول: ((ويتخذ عند قبره كل ليلة سبت مولد يجتمع فيه أناس كثيرون يضيق بهم المسجد وأفنيته ما بين فقراء وأمراء -رجال و نساء- يبيتون طوال الليل بين ذكر بجماعة وصلاة وقراءة قرآن، لا يفترون إلى طلوع الفجر))¹.

كما نجد الرحالة العبدري في رحلته الحجازية التي قصد بها البيت الحرام مارا بتلمسان وبجاية وقسنطينة، ثم بطرابلس وتونس فمصر فالحجاز، وأثناء رحلته كان يركز على وصف المدن، وعلى تراجم العلماء والمشايخ، ومن بينهم الشيخ أبو علي حسن بن بلقاسم بن باديس الذي لقيه في مدينة قسنطينة الجزائرية يقول: ((ولم أر فيها من ينتمي إلى طلب، ولا من له في فن من فنون العلم أرب، سوى الشيخ أبي علي حسن بن بلقاسم بن باديس، وهكذا قيد لي اسم أبيه بخطه مخلوطا وقال لي إنه اسم وكنية، وهو شيخ من أهل العلم، يذكر فقها ومسائل ذو سمت وهيئة ووقار، وليس في البلد من يذكر بعلم سواه البتة، وليست له بالرواية عناية ولم يرو إلا الموطأ وحده))².

إن صورة الفرد في الرحلة هي صورة الآخر، الذي حاول الريحاني الوصول إليه، خالقا بذلك حبالا للتجاوز، و أحيانا مصدرا لأحكام حسب ما يقتضيه الحال، فقد حاور السلاطين ورجال الفكر، كما حاور التجار والجنود، وبعض أفراد البدو والحضر، فكان الناقد والمحلل لخطاباتهم، وفي أغلب الأحيان كان

1 - الورتلاني الحسين ، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار المشهورة بالرحلة الورتلانية، تعليق ابن مهنا القسنطيني، المعرفة الدولية للنشر و التوزيع، الجزائر، 2011م، المجلد 2، ص 70.

2 - العبدري أبو عبد الله، رحلة العبدري، تحقيق و تقديم، د.علي إبراهيم كروي، ط.2، دمشق، دار سعد الدين للطباعة والنشر و التوزيع، ، 2005، ص 95.

رافضا ومخالفا لنظرتهم التعصبية الدينية والقبائلية، فهذا زيدي وذاك شافعي، وهذا مسلم وشيعي، وهندي وماروني ونصراني، كل قد تشيع لدينه وقبيلته، وقد حجبت المصلحة العامة، وغابت مبادئ الإنسانية، لتظهر المصلحة الخاصة، ويطفو على السطح عامل العصبية، فيجانب بذلك الصواب وتعم الفوضى والهلاك.

ونجد سلطان لحج أحمد بن فضل يقدّم كلمة للرحالة، يوضح فيها صورة التعصب وعواقبه يقول: ((وما التعصب وما المذاهب كلها؟ بلية الأمم والله نكبة الأوطان، لو كان العرب يعقلون لعلموا أن خلاصهم ها هنا لا ها هنا (و أشار إلى رأسه ثم إلى قلبه)، نعم إنَّ العقل وأنت يا حضرة الأستاذ أدري بما قاله شاعر العرب الكبير، أبو العلاء المعري أن العقل مصباح الحقيقة، والحقيقة أساس كل عمل صالح ثابت مفيد سياسيا كان أم دينيا، أما القلب فغالبا ضال، هذا الزيدي يغمس ثيابه وجسمه في النيل لظنه أن النيل يقيه البرد، والظن يصبح بالممارسة عقيدة، والعقيدة يثبتها الوهم، أنا جربت النيل لما كنت شابا فلم يدفع عني البرد، ولو حكّم كل امرئ عقله في الأمور لبان الضلال في كثير منها))¹.

يدعو السلطان إلى تحكيم العقل، وهي فكرة يوافقه فيها الريحاني، فالفرد يجب أن يهتدي إلى عقله حتى يميز صالح الأعمال من طالحها، والظن من ينظر إلى عواقب الأمور، فمصلحة الفرد قائمة على مصلحة العامة، وما التعصب إلا سوسة تتخر عظم الوحدة فتسقطها، والعقل داع إلى التعاون والتآزر محققا بذلك وحدة عربية تؤمها ذات إنسانية.

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 439.

أدّى هذا إلى قيام تيارات دينية بالمنطقة، تجلّى عنها ظهور فرق دينية متباينة، والتعصب إلى قائد أو داع، عاملين بذلك على التفرقة، دون التفكير في طريقة عقلانية للمّ الشمل وتحقيق الوحدة، ما جعل الفرد يعيش وسط متغيرات تفرضها عليه الحياة اليومية من جهة، وتعاليم إسلامية من جهة أخرى، فيعمد إلى اتخاذ سبيل يراه مناسباً، هذا ما قد يجره إلى الوقوع في الخطأ، والانحراف عن بعض التعاليم، والزيادة فيها، كالاعتقاد في الأولياء وعبادتهم.

إضافة إلى ذلك انتشار الجهل والفقر، وهذا راجع إلى عدّة أسباب نجد على رأسها قلة العلم الشرعي، والنقّح في الدين من جهة، وعدم توفير المدارس وغياب الجهة الوصية التي تحافظ على الإسلام وتطبيق تعاليمه من جهة أخرى، أمران يؤديان إلى التطرف الديني، لذا نجد الريحاني يذكر الشريف حسين بصفته من السلالة النبوية، التي تحمل رسالة الدعوة إلى الإصلاح ومن يخالفها فهو مذنب، فالملك هو المرشد و حامّي الدّمة.

ظل الإسلام في الحجاز قائماً بمعظم أركانه، خاصة في المدن الحضرية، كجدة والمدينة ومكة، لكن حياة البدو نجدها تتسم بالانحراف أحياناً، وذلك راجع إلى غياب العلماء و ندرة المدارس وأمكنة التعلم، فالإسلام بها متوارث، هذا ما يؤدي إلى ترزّع الإيمان والاعتقاد فيما هو خارج عنه و ظاهر للعين.

أشار الريحاني إلى عدم الاستقرار الاجتماعي الذي أثر سلباً على الجانب الديني، كما مثل انشغال الملك وتفكيره في كيفية الفوز بالملك، واكتساب لقب الخليفة، إلى تضائل الوقت للتفكير في إصلاح الرعية، والعمل على تقوية الدين في النفوس والعقول، فالبلد بلد حرب والحالة الاقتصادية متدهورة، والعامل الغربي المسيطر على الثروات، ومفرق بين السلاطين والأمراء.

وسط هذا الجو الاجتماعي المضطرب، الذي ميّزه تعصب ديني لبعض الأفكار، ونظرة الفرد لغيره بمنظار ضيق يجر إلى فك الروابط الاجتماعية السحاء، لتحل مكانها البغضاء دعا الريحاني إلى التساهل الديني، وإلى اعتماد مبدأ التسامح يقول في ريحانياته: ((التساهل هو التسامح بوجود ما يخالفك، وهذا تحديد عام، أما الخاص فهو إجازة العقائد والطقوس الدينية، التي تخالف العقائد، والطقوس المألوفة، وهذا تحديدا لا يطابق حالتنا ولا يوافق الظروف الحاضرة، فإليك بتحديد يأتي المراد: التساهل الديني هو الاعتبار والاحترام، الواجب علينا إظهارهما نحو المذاهب المتمسك بها آخرون من أبناء جنسنا، ولو كانت هذه المذاهب مناقضة لمذاهبنا))¹.

والفرد مهما كان فأخلاقه هي صورته وسنامه التي يحترمه بها الناس، وبها يلقي محبة في نفوسهم، وكذلك عند خالقه، أما إذا خالط النفس شر وطمع، فسدت الأخلاق، يقول الريحاني: ((إنما الأمم الأخلاق ... صحيح ، ومن الأخلاق ما هو متين وما هو جميل، وقد تقرر المتينة بالجميلة وقلما تعكس، فالأخلاق المتينة في المتوظفين كالاستقامة والإيلاء والعزيمة، والصراحة والثبات، والجرأة الأدبية، هي كلها من المثل العليا، التي تقل بمجموعها ولا تتدر بمفردها، في كل حكومة من حكومات العالم، وأما الأخلاق الجميلة أي اللطف والوداعة، والكرم والأريحية وما إليها من الرأفة والورع والتقوى، فهي في هذا المغربي كما هي في الشرق العربي موفورة مشهورة، وقد يصح التعميم إن قلت إن الفرق الصارخ الأظهر بين الأوروبي والعربي - المغربي والشرقي - هو في هذه الأخلاق الروحية، أي الكرم واللطف والوداعة والأريحية))².

1 - الريحاني أمين ، الريحانيات، ج.1، ص 48.

2 - الريحاني أمين ، المغرب الأقصى، ص 253.

إنه يقسم الأخلاق إلى قسمين : متين وجميل، ونستطيع القول أصل وفرع، فهناك من يكتسب الأصل ويحافظ عليه ويجاهد لأجله، فهو مبدأ من مبادئه لا يحيد عنه مهما كان الثمن، وهناك الفرع الذي قد تجده من الأخلاق الموجودة عند الأغلبية لكنه دون أصل، هذا ما يدل على أنه قد يزول أو يتغير حسب الطبيعة البشرية وظروف محيطها.

2. صورة الصوفية:

التصوف والصوفية مذهب عرف عند المسلمين قديما، وربط بالزهد وعدم الميل إلى ملذات الدنيا وشهواتها، قد عرف هذا المذهب انتشارا واسعا عند العرب في الجزيرة العربية وامتد إلى إفريقية والأندلس، فأصبح له طرق ومشايخ، وله أتباع ومريدون يقومون على الخدمة، ومعروف عن التصوف الصفاء والصدق، لكنه قد ينحرف عن هذا المسار فيأخذ شكلا مضادا ((ولكن التصوف اجتهاد شخصي، ونعمة فردية، لا تورث ولا تعلم ولا تنتشر بالإجازات، ومن الأسف أنه لا يبقى منها بعد موت صاحبها غير الطريقة أو الحلقة، وخزعاتها والمشايخ وشعوذاتهم))¹.

اتخذ التصوف أشكالا أخرى، خاصة على مستوى تابعيه والقائمين على تخليد بنياته الأساسية، وهو الاعتناء بالأولياء وزيارة أضرحتهم، كما نجد فرقا صوفية متنوعة على حسب الطرق الموجودة بين القادرية، والتيجانية والرحمانية، والعيساوية، وغيرها، لكن البحث في حقيقة التصوف هو موضوع شائك وطويل، لكن ما يمكننا ذكره أن التصوف - وإن عرف قديما عند أناس يرتدون الصوف زهدا في الحياة، فسموا به، أو لصفائه ونصاعته البيضاء دلالة على صفاء النفس لخالقها- مؤسس على

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 288.

التقوى وإخلاص العبودية لله، لكن أعتقد أن ما نراه اليوم عند بعضهم يختلف عما سبق، حيث أصبح تصوفا شعبيا داخله كغيره عادات وتقاليد لها جذور وثنية وجاهلية.

إنّ الرحالة ينظر إلى الممارسة الشعبية للطرق الصوفية، نظرة بها ازدراء وسخرية، ها هو ذا يحضر جنازة الشيخ المرغني، و طريقته كانت معروفة في عسير وعدن، واصفا تلك المشقة التي واجهتهم في الصلاة ((استمرت مناقب الشيخ المرغني ساعة، وعندما وقف القارئ الوقفة الأخيرة فيها هتف فيها المصلون: آمين، ثم ارتفع صوت شجي ينشد قصيدة يرثي فيها الفقيد الأبر فكانت مثل المناقب طويلة، وما كنت وحدي مضجرا، قال مدير الشرطة وهو يمسح العرق عن جبينه: طويلة والله طويلة الشيخ يحتاج إلى الصلاة لا إلى الأشعار))¹.

يصوّر الرحالة تلك الطقوس الجنائزية التي يقوم بها أصحاب الطريقة المرغنية، والتي تقرأ فيها أشعار ومناقب الميت، حتى تظهر منزلته وسط تابعيه، ويعرف الغير درجة أهميته، لكنها عند الرحالة غير مجدية، وما هي إلا تصرفات تدل على جهالة، وبعد عن العقل، وعن المسار الصحيح الذي يجب أن تتبّعه الجماعة الصوفية، فالمطلوب هو العمل الإيجابي الهادف إلى تنمية المجتمع، مقللا من حدة الجشع والظلم، والصراعات الداخلية التي أدت بالأمّة إلى الانحطاط ((لعمري أن أجمل الكمالات التي ننمناها محققة في الحياة، هي تلك التي تقتنن فيها روحية الصوفي الحقيقي، بالأعمال السياسية والاجتماعية والأدبية كلها، فتصفو مجاري العقل في مواردها، وتدق خيوط النفس في منسوجها، يقل الجشع والخداع والوهم في نواحي الحياة))².

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج1، ص 290.

2 - المصدر نفسه، ج1، ص 288.

يرى في الممارسة الشعبية تغييب للعقل، وخروج النفس عن المألوف، حيث تكون هناك مفسدة تنعكس على الذات وعلى الآخر، فتضيع بذلك حقوق الناس في اهتمامهم بما هو بعيد عن العقل قريب من الجنون، وتركهم لما هو خادم لحياتهم بشتى مجالاتها المختلفة.

إنّ التصوف إنّ أخذ بالطريقة الصحيحة، التي تعتمد على شيخ حقيقي عرف بالعلم والتقوى كان ناجحاً، حيث يُعلم مصدر الكلام فتطمئن النفس ويهدأ العقل، لهذا يذكر الرحالة في مدونته أن الطريقة الصوفية في تهامة وعسير وعدن، تعود لأصول مغربية، فالسيد أحمد من العائلة الإدريسية التي استقرت في المغرب، حينما جاءت من الجزيرة العربية، التقى بالشيخ عبد الوهاب التازي، الذي كان واسطة بينه وبين النبي عليه الصلاة والسلام، والشيخ التازي أخذ عن شيخه عبد العزيز بن مسعود الدباغ من فاس، فأصل التصوف عند أحمد كان من المغرب، و منها صار شيخاً في التصوف، وبلغ مقاما رفيعا حتى أصبح يجتمع مع النبي عليه الصلاة والسلام دون واسطة، ((قال السيد أحمد: اجتمعت بالنبي اجتماعاً سورياً ومعه الخضر، فأمره النبي أن يلقنني أرواد الطريقة الشاذلية فتلقنتها بحضرته (ص) ثم لقنني بأمر من النبي أيضاً سائر الأذكار والصلوات، ثم رفع النبي السيد أحمد إلى مقام الخضر وصار يكلمه دون واسطة: يا أحمد قد أعطيتك مفاتيح السموات والأرض وهي التهليل المخصوص، والصلاة العظيمة، والاستغفار الكبير))¹.

بعد أن اكتملت الروح الصوفية للسيد أحمد، وهو مقيم في مكة حرك الله داعي السفر في قلبه، فتوجه موجهاً وجهه شطر اليمن نازلاً بتهامة، عند السيد عبد الرحمن الأهدل، ثم زار بعد ذلك الحديدة

وباجل ثم صبيبا، التي استقر فيها حتى وافته المنية، فدفن بها و أمسى قبره مزارا من طرف العديد من الناس.

إنه يبين أصل المذهب الصوفي في عسير، الذي يعتبر فيه السيد الإدريسي حفيدا لأحمد بن إدريس، ومنه كانت له السلطة الروحية، التي حكم بها في عسير، يظهر التصوف في الزهد وهو البعد عن ملذات الحياة، وطلب حب الله وعبادته، لكن في الزهد اختلاف فالرحالة يورده على أنه ترك للعمل على حسب الحديث النبوي، وعلى حسب ما جاء به كتاب "كيمياء اليقين" لأحمد بن إدريس التفرغ للعبادة والرزق آت بلا تعب، كما يركز الرحالة على أن العمل قانون طبيعي، وعنصر أساسي في الحياة: ((وقد أكون كذلك فصيحاً بليغاً فأكتب رسالة كيمياء اليقين، كما فعل سيدي الأبر أحمد بن إدريس، فأبرهن فيها أن طلب الرزق حرام، وأجيب بالشواهد الدينية والأحاديث النبوية، والنوادر والملح أثبت ما أقول وأستغوي به الناس، فأظلم أمة كاملة بحديث من الأحاديث النبوية، لو ركب الإنسان الريح وهرب من رزقه، لركب الرزق البرق وأدركه حتى يدخل فمه))¹.

نلمس فلسفة الرحالة التي ترمي إلى أن الحديث يرمي إلى عدم العمل، والتكاسل وانتظار الرزق فهو يدخل إلى الفم حتى ولو هرب الإنسان منه، أعتقد أن فهم الرحالة خاطئ فالمقصود هنا أن رزق ابن آدم مقدر له، وهو حاصل عليه بتعبه وعمله، حسب ما شاء الله له، لكن هذا لا ينفي ممارسة العمل، واتخاذ الأسباب، ونراه قد وضع الحديث النبوي في درجة واحدة مع النوادر والملح، وهذا أمر لا يوافق المنطق، فكل ومقامه وكلام النبي عليه الصلاة والسلام أعلى منزلة، وأشرف مقاما.

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق ، ج1، ص 305.

إنَّ الكرامة كثيرا ما تدرج في سيرة المتصوفة خاصة ذوي المقامات العالية من الأقطاب، وهم من الأولياء الذين شملهم الله برحمته وأكرمهم بأفعال وأقوال، زادتهم رفعة وعلوا، لكن قد تكون بعض هذه الكرامات أحيانا ضربا من الخيال ولا أساس لها من الصحة فهي أوهام، فهناك من يستغل غياب الناس وبساطتهم، ليظهر أن له كرامات، وأنه من أولياء الله، وقد يكون هذا من الشعوذة والسحر، أو من الحيل المدبرة ومما يروى في ذلك: ((أن رجلا كان يصلي ليل نهار في المسجد، فسأله الإمام من أين تأكل؟ فقال: له من ملك السموات، فقال: و هل يدلي لك القفة فأجاب نعم فأخذه الإمام الى بيته ودلاه في البئر وذهب إلى السوق، و كانت امرأة الإمام وخادمتها أمامهما أكلة طيبة همتا بأكلها فطرق الباب طارق، فخبأت الأكل في البئر، دلته بسلة فوقعت على الزاهد فتناولها، وأكل هنيئا دلى له الأكل ملك السموات))¹.

لكن هناك كرامات قد تكون فعلا واقعية وصحيحة، لكن نسبة صحتها تتوقف على حسب تقوى الرجل وثقة الناس به، وهي منحة من الله تعالى لعبده، شرط أن تكون غير مخالفة للناموس الكوني، وتأتي لهداية الناس، كما ترفع من شأن صاحبها، إذا كان داعيا للحق وثابتا عليه، وكرامات بعض الصحابة لخير دليل على ذلك، كما جاء في سيرة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين حذر القائد سارية بن زعيم قائلا يا سارية الجبل الجبل وهو على المنبر يخطب في الناس، والكرامة لا يقصد بها التحدي كالمعجزة التي أوكلت للأنبياء، بل هي منحة من الله تعالى لمن رضي عنهم.

يذكر الرحالة كرامة للسيد أحمد بن إدريس متمثلة في تفسير القرآن الكريم، والحديث الشريف بالنظر إلى كفه، وكأنها اللوح المحفوظ: ((على أن هناك أمرا يختص بعلم السيد أحمد قد يظن في ظاهره

الشعوذة التي أجلسه عنها، لكنه استحال عليّ فهم السر في يده، فقد كانت كما قيل لوح العلم المكنون ينظر إليها فيرى ويسمع ما وراء المحسوس والمظنون، بل كان إذا سئل عن شيء في القرآن ينظر إلى باطن كفه ثم يشرع يفسر بما شاء من العلوم الدينية، و إذا سئل عن حديث شريف ينظر إلى ظاهر كفه ثم يتكلم بما يبهر العقول))¹.

ظن الرحالة أن أحمد بن ادريس من المشعوذين، لكنه تراجع فهو يدرك أنه من الصالحين، غير أنه لا يجد تفسيراً منطقياً لكلام السيد أحمد، فكيف يفسر بالنظر إلى كفه باطناً وظاهراً، إنها الكرامة، كما يتأسف على عدم وجود تفسير لأحزاب وأوراد السيد أحمد لأنه بوجود التفسير قد يتوصل لحل لهذه الإشكالية.

إن الصوفية تنبئ عن الولي الذي رأى الرحالة مكانته وسط المجتمعات التي ارتحل إليها، فهو شخصية محاطة بالتقديس، الناس يتهافتون إليه بغية تحقيق رغباتهم، فهو عندهم قادر على كل شيء، يذكر الرحالة أحد المواقف له في عسير حين كان مع فضل الدين الوكيل السياسي لبريطانيا وسفيرها إلى السيد الإدريسي، حيث يأتي الناس إليه طالبين الشفاء مستجبرين بالشيخ أحمد: ((تجيب المرأة إليّ وهي تشكو من مرض أو ألم فأعالجها فتشفى بفضل "الشيخ أحمد"، ويجيء البدوي ويصرخ من أوجاعه ويصيح جرنى يا شيخ أحمد، يا شيخ أحمد لا تتسنى! يغيظني هذا الإشراف بل هذا الكفر، أكاد أجن منه فقلت مرة لأحد المرضى، رح للشيخ أحمد يداويك))².

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق ، ج1، ص 300.

2 - المصدر نفسه، ج1، ص 289.

يوضح الرحالة من خلال هذا الموقف صورة الجهل التي وصل إليها أهل تلك المنطقة، ومقابل عدم وجود العلماء الذين يبينون طريق الحق، وذلك للأوضاع السياسية المتدهورة التي تعاني منها البلاد، فالسيد لا يملك قوة لنشر العلم، كما إنه يريد بقاء القوم على حالهم حتى تبقى سيطرته الروحية، كما أن الإنجليز لا يسمحون بتلقي العلوم، ولا الإمام يحي يسمح بذلك بصفته العالم الأول في البلاد.

في رحلته إلى العراق يتعرف على قبر وليّ، قد ذاع صيته في الوطن العربي، إنه الشيخ عبد القادر الكيلاني الموجود في بغداد، كان الرحالة سعيداً بقرية، فقد كان يرى فيه قوة و قداسة فشتمه تسطع على حدود دجلة، وله سلطة روحية كبيرة في قلوب البغداديين، ((كيف لا ومن شاطئ دجلة تشع شمسها شرقاً وغرباً فتتير ضفتي الكنج والنيل، كيف لا وهو مولانا عبد القادر الكيلاني، المدفون رمزه المادي تحت تلك القباب اللازمة في جامع يعد من أفخر وأجمل ما في بغداد))¹.

لقد اتخذ التصوف أشكالاً أخرى، خاصة على مستوى تابعيه والقائمين على تخليد بنياته الأساسية، وهو الإعتناء بالأولياء وزيارة أضرحتهم، كما نجد فرقاً صوفية متنوعة على حسب الطرق الموجودة بين القادرية، والتيجانية والرحمانية، والعيساوية، وغيرها، لكن البحث في حقيقة التصوف هو موضوع شائك وطويل، لكن ما يمكننا ذكره أن التصوف وإن عرف قديماً في أناس يرتدون الصوف زهداً في الحياة، فسموا به، أو لصفاته ونصاعته البيضاء دلالة على صفاء النفس لخالقها، والتصوف مؤسس على التقوى وإخلاص العبودية لله، لكن ما نراه اليوم عند بعضهم يختلف عما سبق، حيث أصبح تصوفاً شعبياً داخله كغيره عادات وتقاليد لها جذور وثنية وجاهلية.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج2 ص 858.

ومن الطرق الصوفية في المغرب نجد : القادرية والدرقاوية والتيجانية والناصرية والكتانية والعيساوية نسبة إلى محمد بن عيسى المولود في مكناس، ((وأما الأولياء فإنني أعيد القول ما أكثرهم في هذا المغرب، وإنهم لفي ازدياد على عقم الزمان في القداسة، فأصغرهم سنا في الولاية هو سيدي محمد بن صديق أحمليش المتوفى منذ اثني عشر عاما، والمدفون بقبر ذي قبة في قبيلة بونصار))¹.

إنّ الريحاني يتساءل لماذا الأولياء والقباب في تزايد، والتدين والتقديس في تناقص، وكأن هذا الفعل في حد ذاته هو نقص في الدين، حتى إن أصغر وليّ دفن منذ اثنتي عشرة سنة، هذا دليل على كثرة الأولياء، كما يمكن أن يطرح سؤالا: كيف يصير الولي وليا، وما هي مقاييس ذلك؟ أهو العالم الحافظ المجتهد لربه تعالى، أم كان مصاحبا عالما أو رجل دين ، أو إمام مسجد عرف بالتقوى، هي إجابات تتطلب دراسة عن كل وليّ، حتى يمكننا وضع هذه المقاييس وقياسها بمقياس تشريعي إسلامي.

ومن أشهر الطرق الصوفية تلك الطريقة القادرية لصاحبها عبد القادر الجيلاني² الذي يقول عن التصوف: ((الصوفي هو من جعل ضالته مراد الحق منه، ورفض الدنيا وراءه فخدمته ورزقته أقسامه، وحصل له في الدنيا قبل الآخرة مرامه، فعليه من ربه سلامه))³. من هنا تتجلى صفات الصوفي فهو خلق كغيره لعبادة الله تعالى، لا ليتبع الدنيا ويكثر من مصاحبته، فرزقه من عند الله تعالى نازل. حيث يكون له في الدنيا هدف معين، يتجلى له نور الإيمان و يرزق كراماته، وله من ربه سلام يزكيه به، و يشفع له يوم لا ينفع نفس إلا إيمانها وعملها.

1 - الريحاني أمين ، المغرب الأقصى، ص 353.

2- هو محي الدين أبو محمد عبد القادر الجيلاني الحسن الحسيني الصديقي ابن أبي صالح موسى جنكي دوست، بن الإمام عبد الله بن يحيى الزاهد، بن محمد بن داود بن موسى الجوني، بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

3 - زيدان يوسف محمد طه ، عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب، ط01، بيروت، دار جيل 1991، ص 22.

كان لهذه الطريقة أتباع يعملون عل نشر الطريقة الصوفية، وإفهام الناس ما جهلوه وتعليمهم، كما نجد أعمالهم شاهدة عليهم، وذلك ما يتجلى مثلاً عند أبي العباس السبتي، فقد عملت دعوته على تأسيس الزوايا في مختلف أنحاء المغرب، حيث كان يلتجئ إليه الفقراء والعجزة وابن السبيل، هذا ما كان مثلاً للصوفية فتتافسوا على هذه الفضائل الاجتماعية.

لكننا نجد أتباع بعض الطرق الذين حادوا عن طريق الحق، وابتعدوا عنه مثل أتباع الطريقة العيساوية لصاحبها محمد بن عيسى في القرن السادس عشر، فما لبثوا أن ذهبوا إلى ممارسة الدروشة والعمل على الرقص، حتى يغشى على الواحد منهم ذاكرين اسم الله باستعمال آلات للعزف كالدف ويسمونه الرقص الصوفي، وفي زمنهم بالمغرب كان الحكم لمحمد الخامس فردعهم و منعهم من ذلك.

يذكر الريحاني مظاهر هذا الرقص: ((وهاكم في المغرب النساء والرجال في الحلقات وخارجها اليد باليد، ها هنا فيثييون جميعاً ويحجلون والصدور للصدور، فيهزون الرؤوس إلى الأمام وإلى الوراء، هزات عنيفة ويقعصون، وهناك الحلقات الغير المختلطة حلقات الرجال وحلقات النساء، وهاكم من النساء المتفردات كل واحدة حلقة بنفسها ولنفسها، وبينهن الصبايا الحسان، وقد احمرت خدودهن وانحلت شعورهن، وذبلت عيونهن، من الاهتزاز العنيف المستمر، فهن يهززن الرؤوس والصدور والأرداف، والعيون منهن شاخصة إلى الأعلى أو إلى لا شيء أمامهن، فتراهن غائبات ذاهلات، هائجات مشغوفات بما لا يعلمه غير الله، أو بمن لا يعرفه بعد الله إلا هنّ، هي عمارة الخضر غيلان بمظاهرها الدرويشية وبما يضطرم في صدور النساء والرجال والفتيات والفتيان، من التشوقات الروحية والجسمانية))¹.

1 - الريحاني أمين ، المغرب الأقصى، ص 351.

نرى هذه العادة التي ما زلنا نراها إلى اليوم في المغرب وحتى بالجزائر، ولها أشياع و أتباع، وفيهم أكثر مما ذكره الريحاني، فهم يعملون على طعن أنفسهم بالخناجر ويلعبون مع الأفاعي السامة، وهم في مأمن منها فكما يقولون إنهم مرقيون أو مسقيون، وهي طريقة تبعد عن الدين بعد السماء عن الأرض، ونجد أن كثيرا من حقائق الإسلام اندثرت أو تناست، بتأثير العامل البشري والزمني عليها فغلب الغالب على المغلوب.

وفي هذا يقول الريحاني: ((بعد الإسلام عن مهده فسادت في أندلسه الفلسفة، وكادت تتغلب عليه وسادت في مغربه روح القبائل البربرية، ففتح أبوابه لتقاليدهم وخرافاتهم الوثنية، ولأوهامهم وسحرهم وتعاويذهم، بعد أن أخفق في مقاومتها، وعجز عن التغلب عنها))¹. قد عادت التقاليد البربرية إلى مجراها الأول، لكن بصيغة إسلامية، فاختلط هذا بذاك، فصاعت الشرائع وأصبح الاحتكام للطبائع والأهواء، فسادت الفوضى، و قل باب الإصلاح والإخلاص لله تعالى، وفي ظل الفضاء الاستعماري زادت هذه الطبائع قوة، وقد وجد البعض منهم الدعم من الفرنسيين فجدوا في خدمة المصالح الاستعمارية.

ومما عرف عن الأولياء الكرامة، فنرى الولي يشفي المريض ويجعل الفقير غنياً، ويأتي إليه السارق لبيته ليسرقه فيخرج من عنده مؤمناً، وتزيد كرامات الأولياء حتى بعد مماتهم، فلهذا تكثر زيارتهم، والذبح بأضرحتهم وإشعال الشموع وغير ذلك من العادات الشعبية وبدعهم.

يقول الريحاني: ((قيل لي إن سيدي هدي في بني عروس يشفي المجانين، ولكن طريقته غير طريقة الرهبان في دير قزحيا بلبنان، طريقة سيدي هدي علمية عصرية تختص بتربيته فهو مدفون بمكان قريب من تازروت يتفشى فيها نوع من الحمى التي تصعد سريعا إلى الدماغ، فتغلب على ما به من

1 - الريحاني أمين المصدر السابق ، ص 303.

مرض أو اختلال، فإذا جيء بالمجنون إلى ذلك المزار لا يلبث أن يصاب بتلك الحمى، فتصعد توا إلى رأسه وتطرد الشيطان منه، تشفيه من الجنون، إنها لعجيبية العجائب، فالمعروف أن الحمى إذا ما تصاعدت إلى الرأس تجنن صاحبها، ويجوار سيدي هدي تفعل عكس ذلك، تعقل المجانين¹.

فباب البركة عند الولي مفتوح، فهو يشفي المريض، ويزوج البنات، ويجعل العقيم ثلداً، ويجلب الرزق، وغير ذلك مما يريده الناس من الولي، ((ونظرا لاعتقاد الناس في بركة المتصوفة والإيمان بكراماتهم، فإنه وردت عليهم أصحاب العلل المزمنة كالمقعدين وغيرهم، و لقد تأكد ابن قنفذ القسنطيني من بركتهم، إذ لم ينصرف هؤلاء المقعدون إلا وقد استرجعوا عافيتهم، لذلك يعتبر حضوره في هذا الاجتماع مفيداً، خالط فيه رجال التصوف وشهد كثيراً من أحوالهم ، يقول: "رأيت في ذلك المجتمع العظيم والمشهد الجسيم غرائب وعجائب لا يرى مثلها أبداً لتغير الأحوال بعد ذلك"))².

إن الفرد ليعتقد أن ذلك الولي له قدرة كبيرة وأنه منح هذه القدرة من الله، والله مستمع له مجيب لدعوته، فتصبح روحه قادرة على الفعل بعد مماته، وقدرته غير منتهية، وغير محددة في الزمان والمكان.

إن الرحالة يعمل على دراسة علمية لسلوكات الأفراد، فقد لمس هذا الجانب الديني من خلال ما رآه من ممارسات لطقوس مختلفة، وقد دَوّن ما رآه، محاولاً مساءلة الفكر ومحاورته، فهو ينقل صورة حيّة عن الآخر داعياً القارئ إلى التأمل والتدبر.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ص 354.

2 - الشاهدي الحسن، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ط02، الرباط، منشورات عكاظ 2002، ج02،

3. صورة الوهابية:

ظهرت في الجزيرة العربية الحركة الوهابية بزعامة محمد بن عبد الوهاب، داعياً إلى تجديد الدين مما رآه شائعاً من ابتعاد عن تعاليم الإسلام الأولى، وقد استمرت هذه الدعوة إلى غاية وصول أمين الريحاني إلى الجزيرة العربية، حيث شاهد مظاهر الدعوة الوهابية متمثلة في بعض البدو ورجال الدولة، وقد أقرّ الريحاني البعد الإصلاحي لهذه الحركة وهو ما ذكره في كتابه تاريخ نجد: ((قبل ظهور هذا المصلح النجدي، كان العرب في نجد بل في الشطر الشرقي من شبه الجزيرة، منغمسين في عقائد وعبادات جاءتهم من النجف ومن الأهواز، أو بالأحرى من بلاد فارس، فكان لا يزال للقرامطة أثر في الأحساء وكانت للقبور شفاعاة لا شفاعاة فوقها، فحلها الناس المحل الأعلى في العبادة والتوسل، والحق يقال أن هذه البدع أو هذه الخرافات القديمة أبعدت العرب بادية وحاضرة عن حقيقة الدين الكبرى، وجوهره الروحي))¹.

لكن بالرغم من هذا الإصلاح الذي جاءت به الوهابية، فالرحالة يتساءل عن حقيقة حالهم وسبب اشتغالهم، قد أمدتهم بصورتين متباينتين تمثلت الأولى في صورة الهول والموت، بدافع الجهل والتعصب، وصورة نشر الدعوة المحمدية وتعاليمها، ساعدهم في ذلك نصرة السلطان عبد العزيز آل سعود لهم، فقد كانوا جنوده المدافعين عنه، ((هم جنود عبد العزيز ابن سعود الذين كانوا بالأمس من العرب الرحل، من

1 - الريحاني أمين ، تاريخ نجد الحديث، تقديم و تحقيق أمين ألبرت الريحاني،، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980، ص 35 .

البدو الجاهلين فدينوا أي دانوا بدين التوحيد فصاروا مسلمين، وهم في غلوهم يعتقدون أن من كان خارجا عن مذهبهم ليس بمسلم¹.

يصفهم بأنهم من البدو الرحل الذين اتسموا بالجهل والتعصب، هما عاملان فاعلان في تحطيم مسيرة الفرد إلى الإصلاح والتمدن، هم رافضون لمبدأ الحوار وكل من خالفهم فهو عدو، وجبت محاربته، ((فيحملون أو كانوا يحملون على كل من لا يدين من العرب، وكأني بهم لا يرون خيرا في حياة لا إكراه فيها على التوحيد، فينادي الأخ منهم ممتثقا حسامه أو رافعا بندقيته: أنا خيال التوحيد أخو من طاع الله، بين راسك يا عدو الله !!².

هي فترة دينية عاشتها أرض نجد ولا زالت، يرجع إليها الرحالة ليضمن خطابه السردى بمادة تقوي سرده التقريرى لحقائق إنسانية، فهناك رواية تقول أنهم أساس ملك ابن سعود، وكلما كان الكلام عن السلطان عبد العزيز، كان رديفه الكلام عن الوهابية الذين ساعدوه على تأسيس ملكه في نجد والحجاز، ((هم شوكة ابن سعود أيام الحرب، وهم أيام السلم الشوك في غصن الدين³.

يعود الرحالة إلى التمثيل وإلى إقامة الحجة على ما يقول مستشهدا بحادثة وقعت له أثناء رحلته من العارض إلى القسيم، التي دامت ثلاثة أشهر، كانت وسيلة السفر فيها الإبل، كان يرافقه خادم من البدو يدعى نوار الذي كان من الوهابيين المتعصبين، الذي كان يرفض سماع الغناء من أحد الرفقاء في السفر، كما كان يرفض التدخين، وقد كانت مدة مرافقته لهم عشرة أيام، كان يرفض الكلام مع الرحالة

1 - الريحاني أمين، رحلات ملوك العرب، ج2، ص 569.

2 - المصدر نفسه، ص 570.

3 - المصدر نفسه، ص 571.

حتى إنه لما طلب الدعاء له في الصلاة بأن يشفى حين مرض بالحمى رفض، هذا ما زاد من غضب الرحالة فاستعمل التهديد معه بأن يذبحه بمساعدة أصحابه، فهو الوحيد الوهابي بينهم، فدعا له قائلاً: الله يجيرنا وإياك من النار.

الزهد والصبر من صور الوهابية القائمة في مذهبهم، فهم يطلبون الآخرة ولا همّ لهم في الأولى، هدفهم الدعوة إلى التوحيد وعبادة الخالق دون إشراك به، والدعوة تكون من فرقة تسمى المطاوعة لهم عمامة بيضاء شبيهة بالضمادة، يحملون عصا من الشوحط أو من الخيزران، و يجوبون البلاد في سبيل التوحيد، والعلماء يعلمونهم أصول الدين ليبلغونها للناس، و هم في حالتهم الدالة على التقشف في الحياة ((ترى الأخ في الطريق حافيا لا يحمل غير عصاه، ينفخ الهواء في أطماره فيكشف عراه، وقد يكون مشى يوما أو يومين أو ثلاثة، دون أن يذوق الخبز والتمر فتسأله بعد السلام "وتسايف انت" (كيف انت)؟ فيجيبك بصوت عريض وقلب وطيد كأنه يمثل دورا في رواية: بخير ونعمة والحمد لله! إنما هذه فضيلة الإخوان بل فضيلة النجديين الكبرى))¹.

كما يذكر رحالة أوربي يدعى "جورج أوغست والن"، الذي زار الجزيرة العربية خاصة منطقة الجوف، الوهابيين بعمليتين: تمثل الأول في تهديم قبر في حيّ الدرع كان مزينا بقبة وله حرمة كبيرة عند الأهالي، وقيل إنه لذي القرنين، والثاني في حفظهم للأمن في البلاد ((لقد توقفت العداوات والحروب، وأقيم العدل وأعيد الأمن في كلّ المنطقة الواسعة الواقعة تحت نفوذ ابن سعود، وجميع الناس هنا ما يزالون يتذكرون تلك الأيام بحماس، إلا أنّه وعندما سقطت سلطة الوهابيين أمام الباشا المصري، واحتلت قواته

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ص 575.

كل منطقة نجد وشمال الجزيرة العربية عدا الجوف وحدها، رجعت البلدة إلى حالتها السابقة من الضياع وعدم الاتفاق¹.

بالرغم من الصداقة والتحالف القائم بين الوهابيين وابن سعود، فقد قام هذا الأخير بسجن بعض شيوخ الوهابية بسبب هجوم قاموا به في منطقة الجوف، فرأى أنهم قد ظلموا الأهالي، فالأمير معروف بعدله واحتكامه للعقل، هي صورة أوردتها الرحالة في هذا الموضع حتى يبين موقف الأمير ويبعده عن دائرة الجهل والتعصب التي ألصقتها بالوهابية، ويورد كلام الأمير مخاطباً شيوخ الوهابية: ((لا تظنوا يا إخوان أن لكم قيمة كبيرة عندنا، لا تظنوا أنكم ساعدتمونا وإنا نحتاج إليكم، قيمتكم في طاعة الله ثم طاعتنا، فإذا تجاوزتم ذلك كنتم من المغضوب عليهم، أي والله ولا تنسوا أن ما من رجل منكم إلا وذبحنا أباه أو أخاه أو ابن عمه، وما ملكناكم إلا بالسيف))².

1 - د. عوض البادي، الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية، منطقة الجوف و وادي سرحان 1845-1922م، الدار العربية للموسوعات، ط.2، 2002، ص 33.

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج2، ص 576.

4. صورة الكنائس:

هذا المعلم الديني المسيحي لا يذكره الرحالة في بلاد الجزيرة العربية، لأنها كانت تحت حكم إسلامي، ولا يذكره أيضا في بلاد المغرب، فالرحالة متابع وواصف لما يراه ماثلا أمامه، فهو مخبر عن واقع محاكيا إياه، عاملا على نقل صورة حية للقارئ، نجده يذكر هذا المعلم الديني في بلاد الأندلس، لأن سكانها كانوا من المسيح، يدينون بالنصرانية، وأضحت المساجد كنائس، تقام فيها الطقوس، يؤمها المصلون للصلاة أمام القديس أو الراهب.

للكنائس هندسة خاصة، يعلو فيها الجمال، وتبدع فيها الأنامل، ذلك ما يصفه لنا الريحاني في الكنيسة الواقعة ببلدة برغوس بلد السيد، وتسمى كنيسة " الجسد المقدس " التي يوجد بها جسد البطل في قديم الزمان بطل إسبانيا الملقب بالسيد ((ولبرغوس كما لغيرها من مدن إسبانيا التاريخية كندرائية غوطية الهندسة، شوهها الزمان والإنسان، بما أضاف إليها من بناء وزينات ومشايين، فهي من هذا القبيل أعظم الكاتدرائيات الإسبانية تقوم في سفح الرابية، وتلصق بها كجزء منها ضخمة عجيبة، وهي على ضامتها وتقرعها ضائعة بين الرابية والمدينة، كما أن شكلها الهندسي الأصلي ضائع في الإضافات التي بنيت حوله، وهي كثيرة بل هي بالتدقيق خمس عشرة كنيسة، ألصقت بجوانبها وزواياها فصارت وهي داخل الكنيسة الكبرى تتنازعها قلوب المؤمنين وأنظارهم))¹.

قد عرفت الكنائس بزخرفتها الفائقة وتمائيلها التي تحمل صور الأبطال والملوك والقديسين، إنه إيمان بالكاهن والمرشد الداعي إلى الرب، وإلى الطريق المستقيم، تلمس ما يسمى بجماعية القيادة، الظاهرة في مهرجان اشبيلية، فيما يسمى بأسبوع الآلام عند نصارى الشرق، والأسبوع المقدس عند

1 - الريحاني أمين ، نور الأندلس، ص 775.

الأوروبيين، فنرى في المهرجان احتفالا يجمع بين الدين وبين لذة الإنسان، وما اللذة إلا في الدين فيبلغ الفرد النشوة، لهذا يسطر لحياته طقوسا تحمله على ممارسة الحياة، موفقا بين دنياه وآخرته. من هذه الطقوس نجد نشيد الموت ((وفي ذلك اليوم يسمع الميزاريه (MISARERE) نشيد الموت على الأرغن الكبيرة في الكنيسة الكبرى))¹.

إنه العيد الذي يعكس نظرة الإنسان إلى الدين، هذه النظرة التي تبين حاجته إليه، فلا يمكن للفرد أن يحيا دونه، فهو تنظيم للحياة واتباع لنظام معين، هذا ما يشعر المرء بطمأنينة وبحافز للحياة. وما نراه في المهرجان المتعلق بأسبوع الآلام عند نصارى الشرق، نسبة إلى موت المسيح عيسى عليه السلام حسب زعمهم، يدل هذا على الشكل الديني المتصف بالسلوك الإنساني الإسباني الرامي إلى الترفية عن النفس، ومحاولة نسيان المشاكل اليومية، فالعودة إلى الله تتسيه آلامه، ويتذكره للمسيح عليه السلام تنمحي ذنوبه، التي حملها عنه المسيح، لهذا نرى مع المهرجان الرقص والطبل، وهناك النساء الحسان المصاحبات للمهرجان والمتفرجات عليه.

يقول الريحاني: ((هي المواكب المقدسة يمشي فيها قلب إشبيلية النقي الطروب، ويجلس عقلها في الحان، متفرجا على قلبه، وعلى بطنه وعلى الأجنيات الحسان، المتفرجات مثله، المشاركات له في شرب الجعة وأكل القريدس))².

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ص 628.

2 - المصدر نفسه، ص 627.

وبعد يوم الجمعة أي يوم السبت عندهم طقس جديد يتمثل في إشعال شمعة العيد ويسمى ببيت النور ((تشعل في اليوم التالي - أي في بيت النور - شمعة العيد الجبارة التي تبلغ خمسا وعشرين قدما طولا وأربعمئة كيلو وزنا))¹ .

يتبع ذلك حفلة الغسل، فبعد النشيد واستعمال الشمعة، تأتي حفلة الغسل والتي يتزعمها الأساقفة، ولكن لا تغسل فيها إلاّ الأرجل، والناس تنتظر في هيبة وخشوع، كيف لا وهم أمام كبير الكرادلة، هذا الحفل الذي كاد أن ينساه الريحاني حين كان يدون رحلته يقول: ((كدت أنسى حفلة الغسل، وهي من الحفلات المهيبة، تقام يوم الخميس في وسط الكنيسة، فيشهدها ألوف من الناس المزدحمين في الأروقة الرحبة، هو ذا مشهد من المشاهد الدينية، يمثله الأساقفة والكرادلة وبضعة صبيان فقراء، فيغسل كبير الكرادلة أرجلهم والناس في خشوع، ثم يمشي أمراء الكنيسة المتصنعون في موكب بهي، وهم يرددون كلمات لاتينية بلهجات غير متشابهة، تدل على ما بصدر كل منهم من حماسة أو فتور "كديوم لورامس" مثلا))².

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 628.

2 - المصدر نفسه، ص 628.

الفصل الرابع

السرد الرحلي

(المسار الرحلي)

1. سرد العبور:

قد عمل الرحالة على اختيار مسار رحلي يخدم مخططه الاكتشافي والسياحي داخل الجزيرة العربية، مجسداً ذلك في خطابه السردى الظاهر في نص الرحلة، وقد امتاز هذا السرد بالأسلوب المباشر المتمثل في الخبر التقريرى التعليمى، كما نجد له أسلوباً أدبياً امتاز بالجمالية وفن مخاطبة القارئ.

كما جاء أسلوب الحكى الرامى إلى سرد الحكايات والسيرة الذاتية، ما نستطيع أن نسميه بالسرد الذاتى، الدال على أفعال الرحلة المبنية على بنية السفر الذى يخلق تحولات واستمرارية في الرحلة ويعدّ حافظاً للرحلة في استمرار السرد لهذا أكثر ما نجد فعلاً سمعت ورأيت الدالين على النقل المباشر للحدث أو للمشهد، ((والمشهد يراعى فيه الرحالة تقديم الزمان والمكان فضلاً عن الشخصية ومراقبتها فضلاً عن المرئى، ويتم تقديم هذه العناصر داخل إطار محدد ونمو الرحلة مرهون بتراكم الخبر، حتى يتم للرحلة التغلب على أمداء السفر وامتداداته))¹.

1 - مودن عبد الرحيم ، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر مستويات السرد، ط1، بيروت لبنان دار السويدي للنشر والتوزيع، ، 2006، ص 153.

فالراوي يعمل على كتابة تقرير يفيد به المتلقي عاملا على اتباع أسلوب الإقناع، مستعينا بدلائل وبراهين، كما نجد في أسلوبه السردي إسناد الخبر إلى صاحبه، ما يزيد من نسبة الصدق في قوله من ذلك إيراد أقوال السلاطين والأمراء، كما يعمل على تضمين السرد بخطاب لشاهد عيان شهد حالة اجتماعية أو سياسية.

جاء الخطاب السردي المجسد في الرحلة، خاضعا لمسار رحلي له ثلاث محطات رئيسية جاءت خاضعة لبناء خاص اختاره الراوي، الذي كثيرا ما نجده شخصية فاعلة ومشاركة في الخطاب، ((إن الراوي في الرحلة واحد، فاعل ومشارك بالضرورة ومنتج للنص ومنظم للحكي ومخرجه، إنه راو وممثل مجرب وموضوع التجربة، يسجل مذكرات أفعاله وحركاته، وبطل قصته الحقيقية، يسير وفق خطة رحلية تتحكم في النص كله يطغى عليها التأريخ وبعض التقرير))¹.

نجد محطة الانطلاق وهي النقطة الأولى في المسار الرحلي، التي ينطلق منها الرحالة عاملا على تفصيل إجراءات السفر، ويكون ذلك متمثلا في رسالة² يبعث بها إلى أمير المنطقة المتوجه إليها منتظرا الجواب والإذن بالقدوم.

1 - حليفي شعيب ، الرحلة في الأدب العربي، ص 308.

2 - كان الرحالة أمين الريحاني، لا يبدأ في فعل رحلة حتى يرسل رسالة إلى صاحب البلاد المتوجه إليها، وذلك ما فعله مع الملك حسين، و الإمام يحيى، و سلطان نجد الملك عبد العزيز بن سعود و غيرهم من السلاطين و الأمراء الذين قام بزيارتهم، هذا فيم يخص رحلات ملوك العرب، لكن نجد عنده رحلات أخرى كقلب لبنان كانت في موجهة نحو مناطق مختلفة لا يحتاج فيها إلى مراسلة.

رحلات ملوك العرب مما يبدو من دلالة عنوانها، أنها رحلات متعددة ومتتالية، جاءت كدراسة واكتشاف شامل للجزيرة العربية، لمعرفة أحوال الناس الاجتماعية والسياسية، و الدينية و الثقافية، وكان الإنطلاق في أغلبها من مدينة نيويورك الأمريكية، لأن الرحالة كان يقطن بها.

فالبرنامج الرحلي كان مبنيا على عدّة رحلات إلى البلاد العربية، والبداية كانت من الجزيرة العربية وبالضبط من الحجاز، وقد نتساءل لم كانت بلاد الحجاز هي المحطة الأولى؟

قد صرح الرحالة في مقدمة كتابه رحلات ملوك العرب أنه كان يُكبر كثيرا الملك حسين، نتيجة الأخبار التي سمعها عنه، المتمثلة في شجاعته، وحبه لبني جنسه والدفاع عن حريتهم، حتى إنه شبهه بالرئيس الأمريكي روزفلت ((أكبرت الملك حسينا الذي استنفر القبائل على الترك وأرسل أولاده الأمراء الأربعة، إلى ساحات الوغى، وكان الناس في أمريكا يعجبون بالرئيس روزفلت الذي قدّم ثلاثة من أبنائه إلى وطنه وعندما انتهت الحرب كان الملك حسين أول من صورته الآمال ملكا يفتح لي بابها، وبينما أنا أفكر في طريقة تحمل إليه أمنيّتي القصوى جاءتني مجلة صديقي سليم سرّكس وفيها خبر زيارته لتلك السدّة الهاشمية المباركة))¹.

كان لكل رحلة مسارها الخاص بها "انطلاق وعبور ووصول"، فقد كان الرحالة يعمل على إنجاز كل رحلة على حدة، ونستطيع القول أنه كان هناك مشروع رحلة عامة نحو البلاد العربية تتخللها رحلات خاصة، هذا ما جاء مجسدا في كتابته الرحلية ومقسما كل رحلة على حدة.

ما لوحظ في هذا المسار الرحلي أن الإخبار عن طريق العودة غير موجود، ولم يشر إليه الرحالة إلا ما ورد نادرا بجملة واحدة فقط "عدت إلى أمريكا" لا وصف ولا إخبار عن هذه العودة، وقد نرجع السبب في ذلك أن رحلاته كان هدفها اكتشاف البلاد العربية، ومعرفة أحوالها المختلفة، كما أنها تعد في مجملها تقريراً مفصلاً عن سياسة البلاد وأخبارها، فهي موجهة للآخر المتمثل في العربي والأجنبي، إلا أنه أرفق هذا التقرير بلغة شملها التخيل.

كما نجد فعل الرحلة عند الرحالة متواصلاً، حيث نجده قد ارتحل من بلده لبنان وبالضبط من قريته الفريكة وعمره اثنتا عشرة سنة إلى أمريكا، ثم ارتحل قبل رحلته المخطط لها للبلاد العربية، إلى مصر و الأندلس، ورحلته الأخيرة كانت في لبنان، وقد خطط لرحلة أخرى لكن المنية كانت أسبق.

1. الرحلة الحجازية:

أ. مرحلة الانطلاق:

تعدّ مرحلة الانطلاق عتبة سردية مهمة في المسار الرحلي، فالرحالة يعمل فيها على تنظيم رحلته والتخطيط لها، كما قد يبحث عن الرفيق أو الدليل، وذلك يرجع لطبيعة الرحلة، والهدف المرجو منها، فقد تكون رحلة سفارية كرحلة ابن فضلان (921م)، إلى بلاد الترك والروس والصقالبة، أو رحلة حجازية حجية كرحلة ابن جبير الأندلسي (1182م)، وتتنوع الرحلات حسب الدافع والمحفز، و للرحالة بعض الأفعال يقوم بها عند الخروج ((وهي تمثل لدى الرحالة مرحلة صعبة وحافلة بالمشاعر القوية، لما تحمله من رغبة جامحة وشوق إلى السفر و تحقيق المراد، وتغيير للواقع، وما تصحب فترة الخروج من أسي الانفصال، و البعد عن الرفاق والأهل))¹.

صرح الرحالة برغبته في زيارة الحجاز حسب ما جاء في خطاب المقدمة، لكننا لا نجد ما يذكر سابقا من توديع للأهل، في حين نجد البحث عن الرفيق، فقد طلب من صديقه قسطنطين يني الذي كان في خدمة الملك حسين مرافقته، كما أنه أرسل إليه رسالة يطلب فيها الإذن من الملك حسين في زيارة الحجاز، ((وتناولت القلم وكتبت كتابا إلى العزيز قسطنطين فيه بين السلامة مئة سؤال وسؤال، أولها: هل يأذن جلالة الملك بالزيارة؟ وآخرها: هل ترافقني أنت في هذه الرحلة؟ وما مضى الشهر الأول وانتصف الثاني حتى جاءني منه الجواب))².

1 - أنساعد سميرة ، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة و التطور و البنية، عين مليلة الجزائر، دار الهدى د.ط، 2009، ص 110.

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج 1 ص 7.

انتظر الرحالة شهرا ونصفا حتى جاءه الجواب بالإيجاب من الملك حسين، الذي دعاه وأخبره بأنه هو من سيخبره عن كل ما يحتاج إليه من أخبار ومعلومات عن الجزيرة العربية، فهو عالم بأنسابها وشعبها بدوهم وحضرهم، كما يعرف حالة الأمراء والسلطين، وهو على علم أيضا بالإنجليز والأتراك، وقد طلب الريحاني زيارة بلاد نجد، لكن الملك لم يأذن بذلك نتيجة العداء القائم بينه وبين سلطان نجد، كما طلب دخول مكة فمنع من ذلك ((أما الكعبة فلا يؤذن لك بزيارتها في الوقت الحاضر للأسباب المعروفة))¹.

ب. مرحلة العبور:

يقدم الرحالة وصفا لمساره السردى المستمر في الفضاء الرحلى، الدال على استمرار المسار الزمنى المتعلق بتوالي الأحداث والمشاهدات، التى تنبئ عن ذات السارد بصفته شخصية راوية للحدث الرحلى، جاء السفر عن طريق البحر منطلقا من نيويورك متجها نحو ميناء جدة، ثم توجه إلى القصر حيث سيلتقى بالملك حسين.

جاءت هذه المرحلة غامضة فالرحالة لم يصف لنا طريق البحر، ولا من رافقه، ولا الخطة الأولية التى وضعها للقاء الملك، فمن المنطقى أن يكون قد خطط لهذا اللقاء وما الذى سيفعله، خاصة إذا علمنا أنه قد طلب اللقاء سابقا، كما أنه قد طلب هذا من الحكومة الأمريكية، لكنه لم يصرح بهذا فى النص الرحلى.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 8.

ج. مرحلة الوصول:

يصف لنا الرحالة وصوله إلى ميناء جدة، محددًا التاريخ والمكان ((في اليوم الخامس والعشرين من شهر شباط¹ 1922، 8 رجب 1340هـ، وطئت لأول مرة أرضاً في شبه الجزيرة العربية، وقابلت ملكاً ما عرف العرب غيره من ملوك العرب، جئت من نيويورك أزوره، وفي قلبي بعض التردد مما تصورته في رسمه الذي صورته الجرائد))².

يخبرنا عن لقائه مع الملك حسين، وتحاوره معه عن السياسة وعن أحوال المجتمع، سارداً ذلك في أسلوب حوارى اعتمد فيه على بنية السؤال والجواب، فهو قادم من مكان يجهل فيه حقيقة المكان المرتحل إليه، تبدأ عملية جمع المعلومات، ليبدأ بالإخبار ((بحرصه على التشخيص الدقيق، سواء تعلق الأمر بما هو روحى دينى أو تقريرى وتبليغى وسفارى، علمى أو أدبى وغيره))³، يخبر الرحالة عن حقيقة البدو والحضر من خلال ما رآه داخل القصر حينما دخل عرب المدينة على الملك وبدأوا في تقبيل اليد ((إن التقبيل درجات إذن في الاحترام وفي العبودية، وكل من المقبلين والمقبلين يعرف مقامه فلا يتعداه، ولا يخجل من أن يعرفه سواه، أجل إن بين من يقبل ركبة الملك ومن يقبله الملك في جبينه، أو يمنع عنه يده، بونا شاسعا في المقامات لا يخفى على أحد من الناس، وإذا خفي على عرب البادية، على البدو، فلأنهم لا يفهمون هذه الرسميات أو لا يكثرثون بها))⁴.

1 - شهر فبراير

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 25.

3 - حليفي، شعيب الرحلة في الأدب العربي، ص 234.

4 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1 ص 28.

يواصل الراوي الرحالة سرده ليعلمنا عن بعض صفات سكان الحجاز، لكن دون الخروج عن فضاء القصر، ليخبرنا عن حادثة الضب التي اعتبرها الرحالة ناتجة عن خفة روح الملك حسين، أخفى الملك الضب تحت رداءه وحين دخل الناظر الحضرمي دعاه إليه و مد يده للناظر وفيها الضب، فصرخ و خرج مسرعا فاصطدم بالحاجب فضحك كل من في المجلس، كما أخبرنا عن أسلوب الكي عند بني سعد.

ليتحدث بعدها عن سياسة الملك في الإصلاح التي اتسمت بالحكمة في معالجة بعض ممارسات الحجاج داخل الحرم، ثم يحدثنا عن أمور سياسية جمعت الملك حسين والإنجليز والأتراك، كما ضمت أيضا بعض أعدائه في الحكم، مثل السيد الإدريسي في منطقة عسير، وسلطان نجد عبد العزيز آل سعود.

كما تحدث عن بعض العادات الشعبية المتمثلة في الإقبال على التدخين وسماع الغناء يقول: ((في جدّة أناس فيهم ما في غيرهم من أصناف الناس من النزوع إلى الكيف، فيطربون لصوت العود، ويبتهجون بتلك التي تشعشع في الكأس ويحسنون لعب البوكر، ولكنهم إذا جاء المعلم يتأدّبون وإذا غاب يلعبون))¹.

من خلال النص الرحلي للرحالة، لم نلمس وصفا كافيا عن سكان منطقة الحجاز، إلا ما ذكر من مشاهدات رآها داخل القصر الملكي، فالرحالة يحسنا وكأن فعل السفر قد توقف ليبدأ في عملية الإخبار والاسترجاع ليخلق فضاء سرديا ومتسعا للحكي، مخبرا عما رآه وسمعه حيث ((يتكثف السردى مشبعا بآفاق أخرى، ويحرصه على التشخيص الدقيق، سواء تعلق الأمر بما هو روحي ديني، أو تقريرى وتبليغي

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ص 53.

وسفاري، أو علمي وأدبي وغيره)¹، ليختم فصله متحدثا عن الوحدة العربية، التي وضع فيها الملك حسين أحد أركانها، مركزا على العلاقة بينه وبين الإنجليز.

كما جاءت مرحلة الوصول تجميعا لتيمات السفر، الدالة على فعل التنقل، وعلى وصف المشاهدات، ومضامين الحوار مع شخصيات ساهمت في بناء الحكى الرحلي المركب من فعل المشاهدة والسماع، في الزمن الحاضر، ومن الاسترجاع لحقائق وذكريات من الماضي، و وضع تأملات و آفاق للزمن المستقبلي.

1 - حليفي شعيب ، الرحلة في الأدب العربي، ص 2³⁴.

2. الرحلة اليمنية:

أ. مرحلة الانطلاق:

من خلال ما كتبه الرحالة يبدو أن هذه الرحلة كانت بعد الرحلة الحجازية، لكننا لا نجد تاريخ انطلاقها بالضبط، إلا أنها كانت سنة 1922، و هي نفس السنة التي كانت فيها كل رحلات ملوك العرب في الجزيرة العربية.

يظهر من خلال الخطاب السردى أنه كان يبحث عن كيفية الذهاب لليمن، لمعرفة بعض أحوالها السياسية والاجتماعية، حتى جاءه من يأتيه بالخبر وهو جالس في إحدى دور الصحافة في نيويورك، وقد كان هذا اللقاء قبل بداية رحلته الحجازية، ((كنت ذات يوم في إدارة إحدى الجرائد النيويوركية حين دخل رجل غريب اللهجة لا اللسان، يبغى كتابا يعلمه الحديث في اللغة الانكليزية، فسألته: من أين أنت؟ فقال: من اليمن، وكنت يومئذ في أهبة السفر إلى بلاد العرب فاستأنست بالرجل وبلهجته وقلت، وأنا راغب في الاستفادة اجلس وحدثني عن بلادكم))¹.

عمل الرحالة على جمع المعلومات عن بلاد اليمن، وعن حاكمها الإمام يحيى، من منابع شتى فبعد أن قابل ذلك اليمني في نيويورك، ذهب إلى مصر ليلتقي بالأديب السوري نعيم شقير، الذي حذره من السفر إليها، فزاد خوفه من هذه البلاد، التي تتردد فيها كلمة "والله نذبحه"، هذه الكلمة التي سمعها من اليمني، وزاد من خوفه تحذير زميله له، ثم قال له لا يأذن لك الإنجليز فهم أولياء الأمر، لكننا نلمس إصرار الرحالة على إتمام رحلته التي بدأها من الحجاز ليتم باقي البلاد العربية.

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب ج1، ص 77.

سافر الرحالة إلى الحجاز وفي نهاية رحلته الحجازية، طلب من الملك حسين أن يسمح لصديقه قسطنطين يني بمرافقته لأرض اليمن، فأجاب الملك طلبه، يقول: ((فسافرنا متوكلين على الله، أنا في ثياب إفرنجية وعقال أحمل جوازا أمريكيا، وهو في ثوب ملازم في الجيش الحجازي يحمل جوازا حجازيا، و كانت العلاقات بين الانكليز والملك متراخية في ذاك الحين كما أسلفت القول))¹.

إن الرحلة الحجازية تعتبر نقطة بداية للرحلة الثانية، ودافعا قويا لمواصلة الرحلة فالرحالة قد حقق نجاحا ملحوظا في الأولى، كان هذا بمثابة الدافع لمواصلة الرحلة كما يعتبر دافعا لمواصلة السرد، نلمس ذاتا مكتشفة تريد ركب المخاطر لتحصل على أكبر قدر ممكن من المعرفة.

تأثر الرحالة بثقافة الفضاء المرتحل إليه، وعمل على محاورته واستخلاص مفاهيمه، منطلقا من ثقافته الأصلية التي ذابت وسط ثقافة الآخر، كما أنه كان يراعي القارئ وذلك ما نلمسه في أسلوبه من ترتيب للمعلومات، وفق نسق تعليمي ترفيهي، فالرحالة ((لم يكتب رحلته انطلاقا من منظوره الخاص، بل من المنظور المتعدد للثقافة التي نقلها معه، فكان نصه خليطا من المعلومات الجغرافية والتاريخية، والسياسية والفكرية، والأخبار والحكايات والأعاجيب، التي كانت مثار اهتمام متلقين مختلفين داخل ثقافة الرحالة))².

إن الرحالة قد تأثر بالفضاء المرتحل إليه، تأثر بأرض العرب وأكبر فيهم مجموعة من القيم والأفعال، كما رفض مجموعة أخرى لمخالفتها حسب رأيه للتطور الحضاري والإنساني، لذا نراه يكتب

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 79.

2 - الساوري بوشعيب ، دراسة في إنتاج النص الرحلي رحلة ابن فضلان نموذجا، ط.1، الدار البيضاء، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 2007، ص 26

مخبرا عما رآه وسمعه، مضمنا أخبارا تاريخية ودينية وآراء فكرية وسياسية، حتى يعطي للنص بعده الثقافي.

ب. مرحلة العبور:

إذا اعتبرنا أن رحلته لليمن كان الهدف منها الوصول إلى الإمام يحيى بصنعاء، فالمراحل التي تسبقه هي مرحلة العبور، والتي أثبتتها السرد الرحلي فجاء في البداية الحديث عن وصوله إلى منطقة عدن التي كانت تحت السيطرة الإنجليزية، حيث قابل الجنرال الحاكم الذي عاد إلى تحذيره من هذه الرحلة، نرى الرحالة يؤكد على تيمة الخوف المحيط به، كما يثبت في نفس الوقت تيمة الثبوت والإقدام نحو هدفه. ينتقل الرحالة إلى أسلوب التعليل ليقنع الجنرال بالسماح له بمواصلة رحلته، حجته في ذلك أنه محب للعرب وهو أصلا منهم، داعيا إلى الإصلاح بينهم، وإن دعت الضرورة إلى تدخل الإنجليز دعاهم إلى ذلك.

نرى من خلال هذا المسار أن الرحالة محافظ على المسار الزمني المتواصل، فهو بصدد رصد مشاهد مباشرة، تخللها حوار خارجي، بينه وبين شخصيات كانت مشاركة في المسار الرحلي، وبانية للسرد.

كما كتب في مرحلة العبور مخبرا عن رغبته في زيارة منطقة لحج وسلطانها، طالبا الإذن في ذلك من السلطان عبد الكريم فضل، ومن الإنجليز، فوافق السلطان لكن الانكليز ترددوا، يشير الرحالة إلى تخوف الإنجليز من رحلته، وما قد ينجر عن ذلك إما خوفا عليه من الاضطرابات الأمنية في البلاد، أو أن يعمل الرحالة على توحيد سلاطين العرب وهذا أمر لا يريدونه.

واصل الرحالة سيره إلى لحج، منتظرا الإذن بالذهاب إلى صنعاء، ثم واصل سيره إلى أرض الحواشب، ليجد السلطان علي ابن مانع في انتظاره، الذي أحسن استقباله في قصره بمنطقة المسمير، ليخرج منها قاصدا منطقة صنعاء، مروراً بماوية بلاد الزيود شمالي عدن، ثم الوصول إلى قرية صلاح ((وفي الثانية بعد نصف الليل وصلنا إلى قرية تدعى الشيخ صلاح، فنزلنا هناك والتعب والجوع فبنا يساوران النوم))¹، ثم وادي الذهب، وبعده نجد الأحمر وهي بقعة من الأرض الحمراء صخورها تعلو أربعة آلاف قدم عن البحر، ليصل إلى مدينة آب حيث كان في استقباله الأمير إسماعيل عامل الإمام يحيى.

لا زال المسار الرحلي مستمرا قاصدا مدينة صنعاء، ليصل إلى ذمار ومنها إلى يريم بوادي المرفد وتدعى ماوية، ثم منطقة حزيز آخر محطة للوصول إلى صنعاء ومقابلة الإمام يحيى يقول: ((في صباح اليوم الثاني عشر (18 نيسان 1922)، بعد خروجنا من لحج وصلنا إلى حزيز المرحلة الأخيرة في رحلة مشاقها تنسي المسافرين ما فيها من الحسنات والمستغربات))².

ج. مرحلة الوصول:

بعد مرحلة العبور يصل الرحالة إلى مدينة صنعاء حيث سيلتقي الإمام يحيى بعد مشقات الطريق، التي حوتها حسنات المعرفة، وحسنة الوصول إلى صنعاء المدينة التي مدحها بجمالها وبشعرها، وبمخطوطاتها العلمية يقول: ((وهذه صنعاء تنسيك أضعافها أي صنعاء مثلك لنا التاريخ فكنت مليكة الزمان، ومثلك لنا العلم فكنت يوما ربة العرفان، ومثلك لنا الأساطير فكنت سيدة الجن والجان))³.

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 105.

2 - المصدر نفسه، ص118.

3 - المصدر نفسه ، ص 119.

وصل الرحالة مدينة صنعاء، حيث استقبله حرس الإمام، وساروا به وبرفيقه إلى مكان إقامتهم، كان بيتا جميلا ذكر الرحالة ببلده الأم لبنان يقول: ((ودخلنا البيت الذي أقمنا بعدئذ فيه بميدان الشرارة، كان الخيال في الإنتقال إلى لبنان وإلى الشام أبهج وأتم، البيت صغير لكنه في الذوق وأسباب الراحة كبير، ردهة الاستقبال فيه تنتشر على صحن في وسطه شاذروان، وحوله القرنفل والريحان، وفوقه تتدلى أغصان المشمش والرمان، يغرد فيها القمري والحسون، وتتألأ خلالها الشمس فتكلكل حبال الماء المتصاعد من البركة لجينا وجراحا))¹.

يصف السارد مكان الوصول، متذكرا فيه وطنه الأول، فالرحالة دوما مرتبط بالذهن بذاتيته التي لا تنفك تتذكر ماضيه، رغم أن فعل الكتابة كان بعد الرحلة، فهو دائم التذكر، كأنه ربط زمن الوصول إلى صنعاء بزمن وصوله إلى لبنان، وكأنه حن إلى الراحة والسكينة جراء المشقة التي لاقاها في سفره بأرض اليمن.

تميزت مرحلة الوصول بملاقاة الإمام يحيى، حيث حاوره عن الوحدة القومية، وعن تصارع كثير من القبائل العربية، محاولا التأثير على سياسة الإمام بفتح المدارس في اليمن، وترك النزعة التعصبية الدينية، وإيجاد سبيل للتفاهم بينه وبين باقي السلاطين، ثم العمل على الوصول إلى حلّ مع الإنجليز، ومع الفرنسيين، ليختتم هذه المرحلة برسالة معاهدة بين الإمام و بين الملك حسين بعثها الريحاني إلى هذا الأخير مع رفيقه قسطنطين يني.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ص 122.

3. الرحلة العسيرة:

أ. مرحلة الانطلاق:

بعد أن حلّ الرحالة ضيفا على الإمام يحيى، أراد زيارة السيد الإدريسي حاكم منطقة عسير، والتي كانت حدودها من الغرب البحر الأحمر وشمالا أبو مَتْنَه على البحر، وجنوبا الحديدة، وشرقا جبال اليمن، وكل رحلة يجب على الرحالة طلب الإذن بالدخول إلى المنطقة المرتحل إليها، وله في الطلب وجهتان، طلب من الإنجليز، وطلب من الحاكم العربي للمنطقة.

فقد عمل الإمام يحيى على التوسط للرحالة، فبعث له رسالة لقائد الجيوش الإدريسية محمد طاهر، الذي راسل الوكيل السياسي لبريطانيا وسفيرها للإدريسي، فجاء الجواب بالإيجاب، ليستأذن الريحاني الإمام بالرحيل وكان ذلك في شهر رمضان، فودعه الإمام قائلا: ((ما تمكنا ونحن في رمضان أن نقوم بالواجب، ونود أن تبقى عندنا إلى شهر العنب، قد تعود إلينا يا قسطنطين، أما الأستاذ فسيصبح في البلاد العربية، ويرى غيرنا فلا تظلمنا يا أمين بالمقابلة بيننا وبينهم))¹.

انطلق الرحالة من صنعاء حاملا رسالة الإمام إلى باقي سلاطين البلاد العربية، وحاملا هموم الأمة العربية، باحثا لهم عن حل يجعل فيه الواحد يستمع إلى الآخر، لأجل تحقيق الوحدة القومية التي تضمن لهم البقاء والتطور، والقدرة على مواجهة العدوان الخارجي.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ص 233.

ب. مرحلة العبور:

خرج الرحالة يبغي بلاد السيد الإدريسي، متجها نحو البحر قاصدا طريق الجبال كجبل بوعان، وفي سيره هذا يقف واصفا الطبيعة وما تحويه من أنهار وأشجار، التي تتعش هواء اليمن وتعطي خصوبة لأرضه، كما يذكر تاريخ صنعاء التي يأمل أن يعود لها مجدها الغابر.

يصل الرحالة إلى منطقة متته ((سرنا أربع ساعات فوصلنا إلى متته، وهي للقادم من مناخة أو من الحديدية إلى صنعاء، متته! كانت في أيام الترك مربعا لعرائس الحبور ولرسل السلامة والسرور))¹، ليصل بعدها إلى جبل بوعان الذي يتميز بحرارته المرتفعة، وزهوره الربيعية، ليعود بالذاكرة إلى جبال لبنان، فالرحالة وإن سافر في المكان متنقلا بين الجبال والوديان فذاته دوما متعلقة بمكانه الأصلي، محاولا رسم جسر بين حاضره و ماضيه ما يمنح له طاقة تساعد على مواصلة السير وعلى مواصلة الكتابة، إذ أن بنية السفر هي الدافع الأول لفعل الكتابة.

بعد مروره بقرية الحيمة وصل إلى قرية سوق الخميس، وكان التعب قد نال منه الجهد الوفير فقرروا الاستراحة، بعد أن قدمت لهم الدعوة من عامل القرية فنزلوا في دار الحكومة، وقبلوا جلسة القات بعد العشاء مكرهين لأنهم في ((مرحلة استمرت إحدى عشرة ساعة وفي أوعر طرق اليمن التي اجتزناها كنا قد أشرفنا من شدة التعب على الهلاك))²، ليواصل السير من سطح اليمن في بوعان إلى قبوه في مفتح مسيرة ست ساعات، يبدو أن السير كله كان على الأقدام والدواب، من حمير وبغال وجياد، وذلك لطبيعة المسالك الجبلية، وربما لأجل الفرجة واختبار الطرق وما يؤهل فيها من نبات وحيوان وإنس.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج1، ص 237.

2 - المصدر نفسه، ص 241.

يتواصل مسار الرحالة ليصل إلى منطقة مناخة، ليباشر الهبوط إلى أسفل اليمن، ((وشرعنا ننزل ثانية من سطح اليمن من أعلى سطوحه إلى أوطأ أرض فيه، إلى وادي حجام في سفح جبل وسل، وهي أوطأ من وادي مفحق، ودونها عقبات كؤودات، فيها النزول أصعب جدا من التصعيد، أما وسل فدونه جبال وعقبات وقرى نعد منها ولا نعددها، هذا جبل الطويلة وهو خط طويل مستقيم على الأفق الشمالي، يتصل ظله شرقا بالحيمة، وهذه قنة شبام التي تظلل مناخة بعد الظهر، وهي أعلى قنن اليمن على الإطلاق، و هناك عندما نخرج من ظل شبام يتراءى لنا تجاه مغرب الشمس جبل ريمة، وأعلى قنة فيه براع وهذه على إحدى قنن مسار قرية تشاركه في الاسم ، وبينها وبين شبام الهجرة تلك القرية العجيبة الرائعة، المزدحمة بيوتها في نتوء برأس الجبل، المتراكمة فوق بعض كأنها في لزها و شكلها و علوها قطعة شاهقة من مدينة نيويورك))¹.

قد واجه الرحالة صعوبة السير من منطقة لأخرى بصبره على المشاقات، مؤملا النفس بما سيفوز به من الخبرات العلمية، وبما سيخدم به أهل الجزيرة العربية، وبما يخدم هدفه الذي خرج لأجله، وصل إلى عبال ومنها إلى تهامة فرأى عادات أهلها وحاورهم، مستخلصا مجموعة من الخصائص عمل على تدوينها في نصه الرحلي.

واصل سيره من مناخة إلى عبال، ليصل إلى باجل سالكا طريق الصحراء التي تتميز بارتفاع حرارتها، وصعوبة مسالكها، وبعد ذلك يتنسم نسيم البحر الذي أدخل السرور إلى قلبه، قد وصل إلى مدينة الحديدة حيث كان ضيف الوكيل السياسي لبريطانيا السيد محمد فضل الدين، صادف هذه الفترة حلول عيد الفطر فشارك القوم عيدهم ((العيد نهضت صباح اليوم المبارك فارتديت أفخر ما عندي قميصا

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 248.

حجازية بدوية، وقدمية مكية وكوفية مزركشة هندية، وعقالا مقصبا شريفيا، ونزلت أهني مضيقي وصديقي محمد فضل الدين))¹.

كتب الريحاني من الحديدية كتابا إلى السيد الإدريسي، يستأذنه في الزيارة، وانتظر حتى جاءه الجواب بالإيجاب، فركب البحر متوجها إلى جيزان حيث وصلها بعد الظهر ليقابل السيد الإدريسي.

ج. مرحلة الوصول:

كان وصول الرحالة إلى جيزان بعد أيام العيد، تاركا رفيقه قسطنطين يني، الذي عاد إلى الحجاز، ورافقه في سفره الجديد الوكيل محمد فضل الدين، لكنه لم يحدد لنا زمن الوصول بالتحديد، فقد جاءت الكتابة الرحلية متنوعة فتارة يحدد الزمان وعدد ساعات السير، و تارة يتركها، سالكا طريق الوصف والإخبار عما شاهده وسمعه.

عمل الريحاني على مقابلة السيد الإدريسي، فكان اللقاء الأول ليغتنم السيد الفرصة مبادرا الريحاني بأسئلته عن رحلته وعن أمريكا، رد الرحالة مجيبا على أسئلة السيد أخبره عن رحلته وعن الأشواط التي قطعها، كما أخبره عن سياسة أمريكا وعن ديانة أهلها، وحال حكامها والطريقة التي ينتخبون بها وعن مجلس الشيوخ.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 279.

باشر الريحاني عمله في محادثة السيّد عن هذه الرحلة، في جلسات متعددة ((تعددت الجلسات والأحاديث التي كان قطب دائرتها أولا الملك حسين والوحدة العربية، وثانيا الإمام يحيى والصلح، وكان اجتماعنا دائما ليلا لأن الحر في جيزان لا يأذن بالتجوال أو بالأعمال نهارا))¹.

كان اللقاء مع السيد الإدريسي، حاويا لمحاورات الخريطة السياسية بينه وبين باقي ملوك العرب من جهة، وبينه وبين الأجانب خاصة دولة بريطانيا، ليختم لقاءه بالتوصل إلى نص معاهدة بين السيد والشريف حسين، عسى أن يحقق تحالفا بينهما، وبين باقي الملوك في شبه الجزيرة العربية.

خلال مرحلة وصوله تنقل من جيزان إلى مدينة ميدي، التي تبعد حوالي ستين ميلا من جيزان، كما أخبرنا أنها مدينة التجارة والرقيق، ليعبر بعدها إلى قرية الثُمْنِيّة، ثم بعدها قرية الخُوبَة، ثم قرية ابن عباس، ثم منطقة الصّليّف التي يكثر بها استخراج الملح، ليتوجه بعدها إلى الحديدية محلا ظاهرة التجارة بالرقيق ذاكرًا مراحل حدوثها من شراء وبيع، كما دعا إلى محاربتها ذاكرًا بذلك ما جاء في الدين الإسلامي من قرآن وحديث نبوي شريف يأمر بحسن معاملة العبيد، وبالإعتاق التام، إن مهمة الرحالة كانت مهمة سياسية فقد قال في آخر هذه الرحلة- العسيرة _ ((ها هنا تنتهي مهمتي السياسية في اليمن وعسير))².

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب ، ص 343.

2 - المصدر نفسه ، ج1، ص 391.

4. الرحلة النجدية:

أ. مرحلة الانطلاق:

كانت الرحلة إلى بلاد نجد، من أكبر اهتمامات الرحالة، وذلك للصيت الذائع لسلطانها السلطان عبد العزيز آل السعود، ويصرح برغبته الشديدة قائلا: ((ولا أكتم على القارئ، أن رغبتني بزيارة رجل نجد الكبير كانت تزداد شدة كلما تعددت وحالت دونها العقبات))¹.

كانت نهاية الرحلة السابقة هي انطلاق لرحلة جديدة، فيبدو أن الرحالة قد وضع مخططا قريبا لرحلاته، وزيارة ابن سعود كان أمرا لا بد منه، هذه القصدية التي كان يرومها، كانت دافعا لسيرورة السرد الرحلي، وعنصرا بانيا للخطاب، عاملا على إحداث توالد في البنيات المكونة للنص الرحلي.

عمل الرحالة على تنويع مادته الرحلية بين وصف وإخبار وسرد، وغالبا ما يكون الانطلاق يحوي كثيرا من الأخبار التي يمهّد بها لرحلته، وكأنه يعمل على إقناع القارئ بما يراه مناسبا، ويجعله في مكان معين قاصدا التأثير عليه، ورأسا له فضاء معين يجعله يحوم فيه، هو فضاء التشويق الحامل لبعض الغرابة والعجيب، وكأنه يعمل على جعله يقرأ دون ملل، مستعملا أسلوب الحوار والاستفهام، وأحيانا يترك له مجالا للتفكير وملء فراغات نصية، فيكون بذلك مشاركا في الفكرة والكتابة.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 497.

ب. مرحلة العبور:

وصل الرحالة إلى بمباي منتظرا جواب السلطان عبد العزيز، الذي راسله منذ أربعة شهور حين كان متوجها إلى صنعاء، وأثناء انتظاره في بمباي جاءه الجواب بالإيجاب من طرف وكيل السلطان السيد عبد الله القصيمي، فلما رجع إلى الفندق استلم رسالة من معاون مدير الشرطة، جاء فيها عدم السماح له بالسفر إلى نجد، وأذن له بزيارة العراق، وكان ذلك مؤرخا في 22 آب¹ 1922².

لكنه بالرغم من ذلك لم يسمح له بالمرور إلى نجد من طرف الإنجليز، فسافر إلى العراق، في انتظار السفر إلى نجد، بالرغم من أن وكيل ابن سعود سمح له بالسفر إلى نجد.

قد حذر الريحاني من زيارة نجد وذلك راجع لصعوبة المسالك ومشقة السفر في الصحراء، خاصة أنه مرض في إقامته بالعراق بالحمى، ف شعر بالخوف من هذه الرحلة النجدية، وبقي على هذه الحال حتى

1 - شهر أوت

2 - جاء في نص هذه الرسالة ما يلي: الدائرة السياسية مكتب كاتب الأسرار، بمباي في 22 آب سنة 1922 من أي. ف كند رزلي كاتب أسرار حاكم بمباي في الامور السياسية إلى مدير الشرطة.

الموضوع سفر المستر أمين الريحاني إلى البحرين و نجد.

سيدي

جوابا على كتابكم رقم ف- 2071 المؤرخ 21 آب 1922، أقول أن قد أمرني الحاكم أن أخبركم لكي تبلغوا المستر أمين ريحاني أن الإذن بسفركم إلى نجد لم يصلنا حتى الآن و لكنه منتظر في البحرين، أما سفركم إلى العراق فلا اعتراض عليه، و في كل حال يجب أن يسافر أولا إلى بغداد أتشرف يا سيدي بأن أكون خادكم المطيع.

عن كاتب الأسرار السياسية

دجاي. ارانتون

من كتاب رحلات ملوك العرب ج2، ص 499.

زاره السيد هاشم ابن السيد أحمد الرفاعي من الكويت، الذي كان في خدمة سلطان نجد كاتباً من كتاب ديوانه، فطمأنه بأن السلطان يتابع أخباره في الجرائد منتظراً يوم قدومه.

سافر الرحالة من العراق متجهاً نحو البحرين محاولاً الإقتراب من سلطان نجد، الذي كان يهاب لقاءه، إنه خوف وقلق لم يذكر ما يبررهما، وفي نفس الوقت كان الشوق يسوقه للسلطان يقول: ((عندما قربت منه سكن الشوق قليلاً واستيقظ الفكر، وما يلزمه من الهواجس والظنون، فقد كان شوقي قبل وصولي إلى البحرين كنار والغضا تأججا، فأصبح وقد قربت محبتي، وزالت - ذلت - العقبات الكبرى، كلهيب العرفج صامتا هادئاً))¹.

كان الرحالة في مرحلة يجمع فيها المعلومات ممن لهم دراية بسلطان نجد، فهو لا يسمح بدخول قناصل أجنب إلى بلاده، ولا يسمح بالتعليم في الخارج ولا بجلب معلمين من الخارج، هي صورة السلطان قبل الوصول إليه، مرحلة فيها غموض وتيه، يعيشها الرحالة وهو في خوف من السلطان، وشوق إليه، فقد تضافرت كل هذه الهواجس لتثبت على ذات ألفت المخاطرة، وحب الاكتشاف، ومغالبة الصعاب، لتحقيق المراد.

سافر الرحالة من البحرين عن طريق البحر إلى العقير، و بعد أيام قضاها في البحر حسب هبوب الرياح، وصل إلى العقير حيث سيلتقي سلطان نجد، الذي راسله بأنه سيخرج من منطقة الحسا، قاصداً العقير، فقرر الرحالة ملاقاته في الطريق برفقة السيد هاشم، راكباً الدلول متحملاً ألمها، أملاً في لقاء من تجشم الصعاب لأجله.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 511.

ج. مرحلة الوصول:

يصل الرحالة إلى مكان اللقاء مع سلطان نجد، لذا نستطيع القول أنها المرحلة الهدف التي يريدها الرحالة، والمراحل السابقة هي مراحل تمهيدية، وكأنه بطل حكاية حصل على ما يؤهله لتحقيق ما يريد، فقد عمل على معرفة كل متغيرات المهمة، ثم توفرت له القدرة بذلك فكان الفاعل المؤهل للإنجاز.

في مكان من فضاء صحراء النفوذ وضع الرحالة ورفقاؤه خيامهم للراحة، ولللقاء السلطان الذي كان في طريقه إليهم، إنه مكان العلاء، فقد وصل السلطان إليه ليلا مع حاشيته، ليتحقق بذلك أمل الرحالة، في لقاء أحد أبرز ملوك شبه الجزيرة العربية.

أول ما ميز هذا اللقاء هو بساطة السلطان وتواضعه، فلا تجد فيه فخامة الملوك الظاهرة من اللباس، وفخامة القصور وكثرة الحرس يقول الرحالة: ((أين أبهة الملك وفخخة السلطنة؟ إنك لا تجدها في نجد وسلطانها، وإن أول ما يملكك منه ابتسامة هي مغنطيس القلوب، لست أدري كيف حييته، وأنا في دهشة وابتهاج من تلك المفاجأة الكبيرة، ولكنني أذكر أنه حياني باسمًا بالسلام عليكم وظل قابضا على يدي حتى دخلنا الخيمة، فجلس والكور إلى يمينه يستند إليه، والنور قبالته تتير وجهه، ثم عرفني بمن كان في معيته، وهما الدكتور عبد الله الموصلي، وعبد اللطيف باشا المنديل، فجلسنا كلنا أمامه في صف واحد))¹.

يبدأ الرحالة مباشرة عمله في مهمته الهادفة إلى الوحدة العربية، حيث يتحدث عن الأمراء العرب وعن خلافاتهم، ليجيبه السلطان بكلمة "أحنا العرب"، ونحن الداعون إلى الوحدة والائتلاف، فيعتمد الرحالة

1- الريحاني أمين، المصدر السابق ، ج2 ص 526.

إلى يراعه ليدون ما سمعه في مذكراته، حيث نجده في هذه المرحلة يذكر وقت الكتابة في يومياته، ولم يصرح بهذا سابقا، وكأنه لا يريد أن يفوته شيء من كلام هذا السلطان، الذي كان يعلم شيئا عن سياسته وأنه يتمتع بسيطرة شعبية أكثر مما هم عليها باقي الملوك، يقول: ((ها قد قابلت أمراء العرب كلهم فما وجدت فيهم أكبر من هذا الرجل، لست مجازفا أو مبالغا في ما أقول فهو حقا كبير: كبير في مصافحته، وفي ابتسامته، وفي كلامه، وفي نظراته، وفي ضرب الأرض بعصاه.....قد عاهدته على أن أكلمه بصراحة وحرية وسأكون في ما أكتب كذلك حرا صريحا.....إني سعيد لأنني زرت ابن سعود بعد أن زرتهم كلهم، هو حقا مسك الختام))¹.

قد ختم رحلاته بزيارة سلطان نجد فقد زار الحجاز واليمن وعسير ولحج، كما زار العراق والبحرين، وكانت نجد آخر منطقة يزورها في الجزيرة العربية، وهي كما وصفها مسك الختام،

تضمنت مرحلة الوصول حضوره مؤتمر العقير، الذي كان مع الإنجليز، ليناقد فيه السلطان حالة الجزيرة العربية، محاولا الوصول إلى اتفاق بين الأمراء، وطبعا الطرف الإنجليزي يعمل على حماية مصالحه والبحث عن امتيازات لشركاته داخل الجزيرة.

كما نلمس إعجاب الرحالة بالسلطان ابن سعود ((مهما قيل في ابن سعود فهو رجل قبل كل شيء، رجل كبير القلب والنفس والوجدان، عربي تجسمت فيه فضائل العرب إلى حد يندر في غير الملوك، الذين زينت آثارهم شعرنا وتاريخنا، وتجسمت فيه كذلك من آفاتهم ما لا يحاول أن يخفيه رجل

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج2 ص 529.

صافي الذهن والوجدان خلو من الإدعاء والتصلف، خلو من التظاهر الكاذب¹، قدا رافقه في حله وترحالة، وفي سياسته فقد بقي في نجد خمسة شهور، وهي أطول مدة إذا قارناها بما قبلها من رحلات.

قد جال الرحالة في نجد وفي أماكن عديدة فقد زار الرياض، والدرعية والعيينة، كما زار بلاد الوشم وما فيها من مناطق كالحيسية وثرمدا وشقرا التي يوجد فيهما فاكهتين لا يوجد في نجد مثلهما، الماء البارد في الصيف، والنار في الشتاء.

كما زار منطقة العارض، مارا بالعوسجية التي استراح فيها، وراح متجولا في أرجائها مبصرا بساتين النخيل، ومتعجبا من وجود نهر فيها ((أنهر في نجد؟ أي نعم نهر من الملح المتجمد، من فصافات السودا، عرضه نصف ميل، وطوله من الخمسة إلى السبعة أميال))².

يتقدم المسار الرحلي ليصل منطقة عنيزة التي شبهها بباريس نجد، إلا أنّها محاطة برمّال النفوذ، يواصل تجواله وتتنوع مشاهداته في عنيزة، كدخوله مدينة بريدة التي أقام فيها أسبوعا للراحة ، ليصل إلى القصيم وإلى نهاية النفوذ، ليبدأ في عبور صحراء الدهناء، واصلا إلى منطقة الباطن واصفا مياهها وآبارها، وأخيرا يصل إلى الرياض عاصمة ابن سعود، ليفكر في رحلة أخرى تقوده إلى الكويت متمما عمله في الوحدة القومية، ومساهما في تحقيق النهضة العربية.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 542.

2 - المصدر نفسه ، ص 609.

II. الكتابة التقريرية:

قد جاء المتن الرحلي حاويا لكثير من الأخبار المنطوية على المشاهدات، المبنية على فعل البصر وعلى ما هو مرئي، فكثيرا ما نجده يستعمل فعل المشاهدة "رأيت"، كما نجد فعل السماع وهو نقل مباشر لما يسمعه فاسحا المجال للأذن، فيأتي الفعل سمعت، فالرحالة من هنا هو ناقل للمعرفة مضمنا كتابته الحس التعليمي.

يحاول الرحالة وضع ميثاق مع المتلقي، فهو ناقل أمين للمعلومات، لذا نجده يقدم المعلومة ثم ينتقل للتحليل أو التعليق، محاورا في ذلك فكر المتلقي، وأحيانا يترك له الحكم، فيشخص له الظاهرة، ويأتي بما يقابلها عند الغرب أو في دولة أخرى، كذكره لمنع الملوك من استقبال معلمين من خارج أرضهم، ثم يذكر أن الدول تطورت بتبادل الخبرات، لنلمس بذلك أسلوب إقامة الحجة والدليل حتى يقنع القارئ.

قد عمل الرحالة على تضمين أسلوبه بأخبار تاريخية، وتراجم لشخصيات سياسية وعلمية واجتماعية، فالرحلة تعتبر نصا جامعا لكم معرفي امتاز بالتنوع، والتعدد، عاكسا لشخصية الرحالة ((الرحلة بالنسبة إليه وسيلة نصية لإبراز رصيده الثقافي، ومعرفته العلمية، و قدرته التعليمية التي لم تغادره لحظة واحدة))¹.

1 - مودن عبد الرحيم ، أدبية الرحلة، ط. 1، الدار البيضاء، دار الثقافة للنشر و التوزيع، 1996، ص 31.

يعمل الرحالة على التقيد بالنقل الصريح لما يفعله ويقول، ومن هذا النقل نجد الرسائل التي كانت تنطلق منه مرسلة إلى شخص آخر، أو أن تكون من أمير أو قائد إلى من يماثله في المنزلة، فيكون هو المدون لها بغرض إبراز خبر ما أو تأكيد لحادثة، وكما قال لإبراز نمط الكتابة في ذلك الزمن، ونجد في الكتابة التقريرية المقال الاجتماعي والسياسي، الذي جاء ضمن النص الرحلي.

1. الخبر التاريخي:

ارتبطت الكتابة الرحلية بالتاريخ، فهي تحوي أخبارا تاريخية هامة، كما يعتبر نصها الإخباري حدثا تاريخيا، فتكون بذلك حاملة لتاريخين، اختلف زمنهما تاريخ ماض ينقله الرحالة من ذاكرته أو من مرجع معين، أو مسندا إياه لشخص ما، وتاريخ يكتبه الرحالة أثناء رحلته، يتمثل فيما يراه ويسمعه ليكون بذلك ناقلا للخبر وحيناً آخر مشاركا فيه.

من خلال فعل الارتحال يكتسب الرحالة معرفة، ويطعم ذلك بما كان لديه من معارف، لذا كثيرا ما نراه ينوع أسلوبه بشروحات وتعليقات في مختلف المواضيع، فقد اتسم أسلوبه بالمزوجة بين ما هو موضوعي علمي وما هو أدبي جمالي، فيعمل على ذكر الحدث التاريخي أو الاجتماعي أو السياسي، متفاعلا معه وناقدا له بأسلوب أدبي ((إن المزوجة بينهما اقتضت تداخلا عجبيا بينهما، بحيث إن الكاتب يجمع بين طرفي هذين الأسلوبين جمعا تأتي على منواله الكتابة في شكل نسيج يتداخل ويتعانق

فيه الأسلوبان المذكوران تعانقا تلقائيا، ينم بوضوح على تمكن كبير لدى الكاتب من الكتابة بشقيها العلمي والأدبي¹.

قد حوت كثيرا من كتب الرحلات الأخبار التاريخية، كعنصر مطعم للكتابة، وكأن الرحالة يحاول إثبات ما يريد قوله مستشهدا بواقع معين، مقتفيا في ذلك أسلوب اليقين، ((نقصد باليقين صحة تلك المعلومات، التي يمكن أن نقبلها أو نرفضها انطلاقا من معرفتنا بالشخص الذي يقدم تلك المعرفة))²، وحتى يزيد السارد من ثقة القارئ به يأتي بهذه الأخبار كحجة على ما يقول.

جاء في أسلوب الكتابة ذكر لمجموعة من المعاهدات التي كانت تتم بين الملوك، وبين ملك وحكومة أجنبية أخرى خاصة مع حكومة الإنجليز، فيعود الرحالة في استرجاع زمني لسنة 1916م³، وكان الغرض من ذلك إظهار صورة الملك حسين وكشف تفكيره السياسي، حيث ذكر كيفية تعامله مع الحكومة التركية التي كان يمثلها جمال باشا في مصر، وفي المقابل كانت المفاوضات قائمة بينه وبين الحكومة البريطانية، حيث نصت المعاهدة على خمسة شروط تضمن استقلال الملك حسين بما يملك من حدود جغرافية.

جاءت الكتابة هنا باعتمادها على الإخبار، محاولا الربط بين ما هو ماض وما هو حديث، حتى يكون للقارئ صورة كاملة، ليفتح له مجال الفهم والتأويل، واصفا له أحوال البلد وما يعانيه أهلها من شدة أهوال الحرب: ((مرت أربعة أشهر على الاتفاق البريطاني العربي، قبل أن يطلق الشريف حسين بندقيته

1 - صحراوي عبد السلام ، أمين الريحاني في حياته و رحلاته، منشورات اتحاد كتاب العرب، سلسلة الدراسات (4)، د.ط، 2010، ص 126.

2 - الساوري بوشعيب ، الرحلة و النسق، ص 186.

3 - فقد كانت رحلته إلى الحجاز في 25 فيفري 1922.

من قصر الإمارة بمكة، وكان الحجاز يعاني من شدة الحرب وأهوالها أكثر من سواء من الأقطار العربية، فسدت أبواب البحر، وانقطع الحجاج عن الحج ونفذ القليل مما كان في البلاد من زاد، فضجت الناس وهلك مئات من الجوع، وقد قال جلالة الملك إنه ظل وأهل منزله سنتين يأكلون الدُّخَن))¹.

إن الخبر في النص الرحلي تميز بالطول، حتى مكنا هذا من إصدار الحكم بالحديث القصصي، فقد ماثلت الرحلة القصة، إلا أنها تخالفها في عدم احتوائها على عنصر العقدة، ((وسمي الخبر الطويل قصصاً، لأن بعضه يتبع بعضاً حتى يطول، وإذا استطال السامع الحديث قال هذا قصص، والحديث يكون عمن سلف وعمن حضر ويكون طويلاً وقصيراً))²، فإذا تتبعنا في النص الرحلي كيف تم سرد الخبر عن الملوك وعن البلدان المرتحل إليها لوجدنا ذلك مشابهاً للقصة، معتمداً على تسلسل الأحداث، وذكر الشخصيات مع الحوار القائم بينهم.

يذكر الرحالة الحدث التاريخي مرتكزا على الذاكرة، وعلى ما قرأه من معلومات سابقة، فقد صرح في مقدمة كتابه رحلات ملوك العرب، أنه قد عرف العرب وتاريخهم حين كان في أمريكا يقول: ((وقد عرفني أمرسون إلى كرليل، وكان كرليل أول من عاد بي من وراء البحار إلى بلاد العرب، أجل وقد يستغرب قولي أنني عرفت بوساطة الكاتب الانكليزي الكبير، سيد العرب الأكبر النبي محمداً، فأحسست لأول مرة بشيء من الحب للعرب، وصرت أميل إلى الاستزادة من أخبارهم))³.

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج 1، ص 66

2 - العسكري أبو هلال ، الفروق اللغوية، حققه وعلق عليه، محمد ابراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت، ص 42.

3 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ص 2.

لذا جاءت الرحلة تكملة لمعارف الرحالة، وتنتمى للنقص المعرفي الذي كان يعاني منه، يخبرنا عن بلاد اليمن وعن تاريخها، مستعملاً أسلوب الحذف لأجل التخفيف عن القارئ، فيسرد له أحداث ألف سنة في صفحتين، ((لا ينكر ما كان لليمن في الماضي في عهد أسلاف الإمام يحيى من المجد الأثيل والسيادة الواسعة، وسأعود بالقارئ ألف سنة إلى عهد مضى ولا أكلفه قراءة أكثر من صفحة أو صفحتين))¹.

يتجلى الخبر التاريخي في سرد معلومات وحقائق، الهدف منها الإقناع والتذكير، وجعل القارئ ينتقل في أزمان مختلفة، هو أسلوب التشويق كما يعد نوعاً من التراكم حيث ((يمارس الرحالة أثناء الوصف خلق نوع من التراكم المعرفي المضاف إلى التراكم المعرفي المتداول حول المكان، والتراكم الجديد يعود إلى ثقافة الرحالة من جهة، وإلى مساهمة المكان المرتحل إليه بروايته ومروياته من جهة ثانية))²، ومن هذا الوصف نجد الرحالة يصف تاريخ اليمن عاملاً على توقيف الزمن السردى، ليفسح فضاء جديداً للكتابة، يحاول فيه فرض ذاته، ويربط ذلك بالفترة السردية الراهنة.

فالكلام السردى كان عن حكم الإمام يحيى، وعن رعيته، وعن الجنود الذين يحاربون لأجل الإمام وهم في بعد عن الأهل، فيتوقف ليعود بالزمن إلى الوراء مسترجعاً أحداث الماضي، ليعطينا أخباراً عن تاريخ الحكم في اليمن، ((كان اليمن في عهد الأئمة الأولين قطراً كبيراً يشتمل على عمان وحضر موت، ويمتد إلى الحجاز، فيدخل فيه عسير وقسم من تهامة، فالإمام شرف الدين بن شمس الدين (930هـ)، الذي مدحه موسى بن يحيى بهران شاعر صنعاء، كان من الفاتحين الكبار، والإمام المهدي لدين الله هو

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 144.

2 - مودن عبد الرحيم ، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، ص 72.

الذي أذن للفرنسيين أن يدخلوا عدن و المخا، وأن يزوروه كذلك في مقره بمواهب، وعقد معهم معاهدة تجارة وولاء سنة 1709م))¹.

جاء الخبر التاريخي في النص الرحلي عاكسا للحقيقة، فالرحالة يعود للتاريخ ليزيد من اتساع المشهد، ويعمل على الاستطراد حتى يحيط بالموضوع من كل جوانبه، فهو شخصية رحلية، تعمل عمل الراوي المبتئر، الذي يمتاز بالخطاب الموضوعي مبعدا إلى حد ما الذاتية، فيظهر بذلك التقرير المتضمن للسرد ((إن السرد في خطاب الرحلة هو بمثابة الإطار، ويأتي التقرير ليتضمن السرد، وينتهي التقرير بظهور فعل سردي جديد، ينقلنا إلى فضاء يقدم بوساطة التقرير))².

هذا التقرير الذي نراه يصاحب السرد، فيكون بذلك الخطاب الرحلي مزيجا بين هذا وذاك، وغالبا ما يكون التقرير بضمير الغائب مجسدا للإخبار عن الآخر، فيخبرنا عن كيفية وصول السيد الإدريسي إلى الحكم في منطقة عسير ((نزل توفيق باشا في الحديدة، وبسط شيئا من حكمه في تهامة، وتقدم بجيوشه إلى صنعاء كما أسلفت القول في فصل سابق، وقد كان اليمن الأعلى أهم ما ينبغي في خطة الاستيلاء، فعادت تهامة إلى ما كانت فيه من الاضطراب لا يحكمها فعلا الأتراك ولا أشراف أبي عريش، فجاء ابن ادريس يشيد بين ظلال السيادة المتداعيتين حكما روحيا بل حكما حقيقيا، انتشرت كلمته وتعددت رسله شمالا وجنوبا في البلاد))³.

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ص 145.

2 - يقطين سعيد ، السرد العربي، تجليات و مفاهيم، ط.1، القاهرة، رؤية للنشر و التوزيع، 2006، ص 218.

3 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ص 313.

من مميزات الخطاب الرحلي روح الواقعية والحقيقة، واضعا المتلقي في دائرة التصديق، واصفا واقعا له علاقة بما هو موجود في زمن الرحالة، ليبدأ الرحالة بما هو مرئي أمامه غائبا في التاريخ فأصبح هذا الأخير امتدادا للمرئي المعيش.

2. الخبر الاجتماعي:

إن خروج الرحالة من مكان الانطلاق وفي زمن محدد، كان هدفه تحقيق رؤية شاملة عن المناطق المعتمدة في المخطط الرحلي، نجد فعل المرئي والسمعي يتماشي مع فعل الكتابة ليورد أخبارا قد تتفق مع ذات الرحالة وقد تخالفه، لكننا نجد ذكر ما يخالفه هو الغالب في النص، وذلك راجع إلى بحث الرحالة عما يخالفه، فكانت الرحلة بحثا عن الآخر ومحاولة التعريف به.

من هنا جاء حلول الخبر الاجتماعي الذي يعد نواة فعل السفر، ونستطيع القول أن السفر هو مجموع الملاحظات التي يلتقطها الرحالة من خلال تنقلاته في المكان والزمان، محاولا في ذلك تحريك ذاكرته، ومزجها مع ما هو آني، ليخرج بمقارنة بين ذاته والآخر، قابلا لما وافقه، ورافضا بشكل فني ما خالفه ((الخبر الاجتماعي هو سجل ثري بالتقاط الظواهر والعادات وبعض التقاليد، التي ينظر إليها الرحالة الراوي من منظوره ويرصد من خلالها كل ما هو غير مألوف من سلوكيات ومعاملات، كما يجنح إلى التصوير بنبرة استحسانية أو انتقادية مع ما يصحب ذلك من سخرية وتعليق ووعظ وتمثيل))¹.

تمثلت النظرة الاجتماعية في الحكم على ما سمعه من الناس، وعمل على تصحيحه بعد ممارسة التجربة الرحلية، فاكتمب بذلك معلومات أهلته على إصدار الحكم منطلقا مما توفر له من معطيات، ثم

1 - حليفي شعيب ، الرحلة في الأدب العربي، ص 241.

عمل على إخضاعها للمنهج الاستقرائي، ليخلص بعد ذلك إلى النتيجة يقول: ((كنت أسمع الناس في جدة يتكلمون عن الحكومة العربية في الحجاز فيذكرون اليمن كأنه ولاية من ولاياتها، وكأن الإمام وهو العربي الصميم هاك قصيدته في جريدة القبلة، يبغى الوحدة التي ينشدها الملك حسين ولا يقبل بغيره زعيما، وسمعت بعض الناس في عدن يقولون أن بضع طائرات تبدد صفوف الزيود وتشتتهم في الأودية والجبال، فتتسيهم الإمام ووحدة الإسلام، ولكننا سمعنا كذلك كبار قواد الحضرة الإمامية الشريفة، وشاهدنا جنودها النظامية لا نظن أن عدنا تشاهد ما شهدناه، وأن الحجاز يسمع ما سمعناه، لأن الحقيقة في البلدين مشوهة، أو مطموسة، أو مجهولة))¹.

يخبر الرحالة مستعملا أسلوب المقارنة بين آراء الناس، الذين يتكلمون بما لا يعرفون دون تحقيق ولا بحث، فهم يملكون الحقيقة المشوهة، نلمس هنا إثبات الكاتب لذاتيته باستعمال ضمير المتكلم المفرد "أنا" كما استعمل ضمير المتكلم الجمعي "نحن"، فهو يمتلك ذاتا مالكة للحقيقة وقادرة على تبليغها للآخر.

يستترسل الرحالة في الخبر الاجتماعي الرامي إلى دراسة ذهنية الأفراد، وعلاقتهم مع الآخر خاصة الأجنبي، الذي يبدو آخر مخالفا لهم في الدين والعادات، إضافة إلى أنه مستعمر يحاول السيطرة عليهم وهم في أرضهم، لكن الرحالة يحاول فرض منطق خاص وهو الاعتراف بالآخر والتعامل معه بكل موضوعية، خاصة إذا كنت تأخذ منه ما تريد مسرورا، و تمنع عنه حقه جهولا.

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب ج1، ص 151.

يُدرج الرحالة حكاية، عاملاً على تدعيم خطابه السردى، الرامى إلى التأثير على القارئ، فالرحلة تكمن أهميتها في ((تقديم أقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان في هذا العالم الفسيح الأرجاء، فالرحلة وسيلة لتعقب القصص تصيّد الصور، حصاد عن طريق الكلمات، المساحة الروائية للحياة))¹.

يخبرنا عن حكاية كان بطلها رجل من الزيود، في تعامله مع الوفد الفرنسى يقول: ((كان في البيت إزاء بيتنا الوفد الفرنسى الذي وصل إلى صنعاء يوم كنا هناك، وكان أحد الخدم يجيء ليأخذ لهم ماء من الشاذروان، فسألته مرة لمن الماء؟ فقال: للخنازير النصارى، فقلت: أليس في بيتهم ماء للغسل؟ فقال: هم يشتهون الماء للشرب، فقلت: أنتقونهم من هذا الماء، من ماء الشاذروان، فراح يحمل الجرة ويقول: خنازير نصارى لا يستحقون أحسن منه))².

استعمل الرحالة الراوى أسلوب الحوار فهو يعمل على تبليغ الحادثة كما وقعت، نقلاً للواقعي، ينقل لنا فكراً مجسداً في أحد الزيود المتمثل في احتقاره للنصارى، فهم عنده خنازير، لا يستحقون حتى ماء نظيفاً للشرب، يواصل الراوى حكايته مخبراً عن فكر الزيدى وكيف قابل عمله مع النصارى بتوجهه إلى الصلاة ((ويجيء هذا الزيدى فيتوضأ في البركة ثم يفرش برده تحت أغصان الجوز ويتجاسر أن يخاطب "الرحمن الرحيم رب العالمين" ويضرع إليه ليهديه "الصراط المستقيم"))³.

يستعمل السرد في وصف فكر معين، وتصرفات نلمس فيها تناقضاً كيف لهذا الزيدى الذي يمنع الماء عن إنسان، ثم يقف أمام ربه يصلي متضرعاً له بالهداية، ثم يزيد الرحالة في التصدي لهذا الفكر

1 - مودن عبد الرحيم ، الرحلة المغربية في القرن 19، ص 75.

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 187.

3 - المصدر نفسه، ص 188

دون أن يصرح بشيء مباشر، فهو يعطيك الحدث ويصف المشهد، ويترك القارئ يصدر الحكم يقول: ((جاءني ذات يوم الحارس أحمد وفي عنقه ورم والتهاب، فدهنته بصبغة اليود مرتين فشفي، وعاد يشكرني فقلت يجب أن تشكر الخنازير النصارى لأن هذا الدواء اخترعهم، صنع في بلادهم فقال: جزاهم الله خيرا، والله يا أمين -ورفع رأسه إلى السماء- عينه ترى كل شيء ورحمته تسع كل الناس، ثم جاء آخر وثالث ورابع يحملون إليّ الآلام من جرح أو قرح، وكنت كل مرة أعالجهم أذكرهم بأن شفاهم من الله ثم من أولئك الخنازير النصارى الذين اكتشفوا الأدوية والمخدرات، بعد أن تعلموا الطب من أجدادكم يا أجهل العرب ليزيلوا الأمراض ويخففوا الآلام البشرية، وكانوا وقد جاؤوني زيودا يرجعون مسلمين إلى الديانة السمحاء التي يقول صاحبها: الإنسان أخو الإنسان أحب أو كره¹)).

يتخذ الرحالة أسلوب الحجة المستوحاة من الواقع، فالرحالة آلة تصوير لما هو ماثل أمامه، ناقل للعادات والتقاليد، التي تحكمها أعراف معينة، يتخلل ذلك ذاتيته العاملة على التحليل والتعليق، لذا نجد طابع الفكر الفلسفي يتجلى على كتابته السردية، الرامي إلى استخدام العقل والمنطق، في النظر إلى الأمور والتريث في إصدار الحكم الذي يتطلب إقامة الحجة والدليل.

إن تنتقل الرحالة المستمر في فترات زمنية محددة، عمل على اكتسابه قدرة عالية في مواجهة الآخر، ووصف ثقافته، وطريقة طعامه ولباسه، فكان بذلك اثنوغرافيا²، ومحللا اجتماعيا لما يوجد أمامه متخذاً من منهج المقارنة سبيلا إلى محاوره الآخر وفهمه.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ص 188-189.

2 - اثنوغرافيا ((تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة و مجموعة التقاليد و العادات و القيم و الادوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة))، حسين محمد فهميم، أدب الرحلات، ص 49.

من هذه العادات يصف لنا طعام أهل البحرين يقول: ((البقولات! بعد الأرز والرمل واللحم والتراب التي كان يطبخها لنا مسفر ومعاوناته الرياح، إنها من النعم التي يغتفر فيها الابتهاج والإسراف، نحرت الألوان نحر العاشق المشتاق وخصصت بالإسراف بندورة الكويت التي يشحنون منها إلى البصرة، وهي صغيرة مدملكة، يطبخونها بقشرها دون أن تمسها السكين، ثم سمك الكويت المشهور الذي يشبه سمك المشط في طبرية، ولكنه أرق وأدسم ثم أصناف الحلوى، وما أشد حلوها وأكثر سمنها وأسرارها، وعندما نهضنا نغسل أيدينا وقف أمامي يوسف السالم آل بدر، وهو كما أشرت من رجال السماط المشهورين في البصرة والكويت، فصافحني وقال: أهنتك بما أحرزت، فقد صرت منا ليس في سف الأرز فقط بل في سف السماط))¹.

يصف الرحالة أنواع المأكولات التي صادفها في الكويت، مقارنا إياها بما كان يأكله في الصحراء حين كان يطبخ اللحم على النار وسط الرمال، وللرياح في ذلك عملها الكبير في المزج بين المأكولات والرمل، هذا الخبر الاجتماعي الرامي إلى تحليل ثقافة معينة في موضوع معين إنه الطعام كما نجده تكلم عن عادة شرب القهوة وأكل القات في اليمن، ((فالطعام يرتبط أيضا بالبيئة والاقتصاد وبالدين والمعتقدات الشعبية، وربما بكافة مظاهر الحياة الإنسانية المادية والفكرية))².

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج2، ص 657.

2 - محمد حسين فهمي، أدب الرحلات، ص 143.

3. الرسائل:

قد حوى النص الرحلي مجموعة من الرسائل التي كانت بين الملوك والأمراء، كما كانت بين الريحاني وبين من زارهم من الملوك، وبين رفيقه قسطنطين يني، من هنا نستطيع القول أن رحلته امتازت بهذه الميزة التي قد لا نجدها في كثير من باقي النصوص الرحلية الأخرى.

كما يمكن اعتبار الرسائل في النص الرحلي، من العناصر السردية المدعمة لواقعية النص، ليضع القارئ في جو يعمه التصديق، ما يعطي للنص الرحلي نوعاً من المصادقية القائمة على تحديد نص الرسالة، والمرسل والمرسل إليه، كما يحدد تاريخ كتابة الرسالة.

جاءت الرسائل خادمة لموضوع الرحلة، فقد كانت عبارة عن طلب الزيارة، ثم يأتي الجواب بالإيجاب أو بالانتظار، وأول رسالة كتبها إلى صديقه قسطنطين يني، حين كان بأمريكا، طالباً زيارة الملك حسين بعدما أخذه الشغف لزيارة بلاد العرب، وقد صرح بهذا في مقدمته قائلاً: ((وتناولت القلم وكتبت نوا كتاباً إلى العزيز قسطنطين، فيه بين السلامة مئة سؤال وسؤال أولها هل يأذن جلالة الملك بالزيارة؟ وآخرها: هل ترافقني أنت في هذه الرحلة؟ وما مضى الشهر الأول انتصف الثاني حتى جاءني منه الجواب وفيه مايلي))¹.

لم يذكر الرحالة نص الرسالة التي أرسلها إلى صديقه، لكنه ذكر ملخص ما جاء فيها، وعدم البوح بهذا يعود لأسباب ذاتية لم يفصح عنها، لكنه أراد معرفة كل شيء، كانت هذه الرسالة بداية التفكير

1 - الريحاني أمين، رحلات ملوك العرب، ج 1 ص 7.

في الرحلة، وأغلب الظن أنه كان عازماً على الكتابة، فقد كان له يومياته يسجل عليها ملاحظاته ومشاهداته.

يأتيه الرد من قسطنطين الذي بلغ الملك حسين بقصد الرحالة، وحصل منه على الجواب، وفيه ما يلي: ((اتفق أن وصل كتابك إليّ وجلالة الملك حسين في جدة فقرأته له كلمة كلمة وتباحثنا ملياً في الموضوع وهو يرحب بك إذا حضرت، ومن رأيه أن لا لزوم للسياحة في جزيرة العرب كلها، فهو يساعدك على زيارة الحجاز من أقصاه إلى أقصاه، ويعطيك المعلومات اللازمة، ويطلعك على جميع العقود والنصوص والمفاوضات بينه وبين الدول من مطلع النهضة إلى اليوم، ليكون في استطاعتك تأليف كتاب عن العرب مستوف من جميع أبوابه، ومن رأيه أنك متى درست أخلاق قبائل الحجاز تكون درست أخلاق بقية القبائل، لأنهم كلهم متقاربون بالعادات والمشارب... أما زيارتك الرياض وابن سعود، فهذه مستحيلة لاستحكام العداء بينه وبين الحجاز..... و السياحة توافق أن تكون في فصل الشتاء ولا تستغرق أكثر من أربعة أشهر، ولو انتهت في بغداد.... وإني بكل سرور أرافقك حيث شئت... أما الكعبة فلا يؤذن لك بزيارتها في الوقت الحاضر للأسباب المعروفة... والسياسة تكلفك لا أقل من خمسمئة جنيه))¹.

تبين هذه الرسالة أغلب أهداف الرحلة، فالرحالة كان يبغي الطواف في كل البلاد العربية، ومعرفة كل العادات والتقاليد التي يمتاز بها العرب، كما كان يروم زيارة بلاد نجد، وأراد الملك حسين أن يختصر عليه هذا السفر، لكن الرحالة لم يقتنع بهذا وعمل على مد الترحال في كل البلاد العربية، كما أراد زيارة الكعبة لكنها منعت عنه، وذلك راجع لكونه مسيحياً، وقد عرف هذا، لكنه منى النفس بذلك، لكن أغلب الظن أنه لم يدخل إليها ولا نجد في كل الرحلة إشارة إلى ذلك.

قد بين في هذه الرسالة القصصية من الرحلة محددا مساره الرحلي، هدفه في ذلك ملاقاته ملوك العرب، والتعرف على المفاوضات القائمة بينهم، ما ينبئ على اطلاع الرحالة على كثير من المعلومات السياسية والاجتماعية عن المنطقة، ولا يستبعد هذا فهو يرجع أصله إليها رغم أنه كان يجهل حقيقتها في البداية، كما كان للإعلام دوره الكبير في ذلك من جرائد ومجلات وأخبار تأتيه من وجوه مختلفة، كلقائه بذاك اليماني في مدينة نيويورك، الذي حدثه عن أخبار اليمن، ((ذلك أن الرحالة يتخذ قراره القصدي بالسفر سواء كان هذا الأخير ماديا أو مجازيا، والقصصية في الرحلة تقتضي التعامل مع هذا المكون مكون السفر، كمحفز أساسي في سرد ما يراه الرحالة، أو ما هو مقبل على رؤيته، ومن ثم فالسفر ليس عنصرا عارضا، بل إنه مقصود لذاته، سواء كان رحلة في الزمان أو المكان))¹.

انطلق الرحالة في مساره الرحلي، متوجها إلى منطقة الحجاز، لملاقاة الملك حسين، حيث بقي في رفقته أسبوعان من الزمن ((بعد أن أقام جللته أسبوعين في جدة عاد إلى مكة لأشغال هامة، و ظل معي من قبله وزيره الشاعر الشيخ فؤاد الخطيب وحاشيته))²، أثر هذا الفراق في نفسية الرحالة، فالملك حسين كان بمثابة المحرك لفعل الرحلة ومصدرا هاما للأخبار، وفقدانه يمثل فقدان الخبر، فالرحالة خرج طالبا للمعرفة، واكتشاف الآخر حيث يكون هذا الأخير موضوعا للكتابة وللرد ((الرحالة يرحل ليبري معرفة ويكتسب تجربة ويعمل بعد عودته، ومن خلال الكتابة، على إيصالها إلى المتلقين))³.

راسل الرحالة الملك حسين، طالبا منه زيارة مدينة مكة، لعله يزداد معرفة وخبرة، فينعكس ذلك على كتابته فتزداد ثراء معرفيا فرد عليه الملك قائلا: ((بعد إهدائي حضرتك السلام وجزيل الاحترام،

1 - مودن عبد الرحيم ، الرحلة المغربية في القرن 19 مستويات السرد، ص 27.

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج 1 ص 40.

3 - الساوري بوشعيب ، الرحلة و النسق، ص 185.

بأنامل الشوق تلقيت رقيمتك وبقدر ابتهاجي به وما احتوته مباحثه الكريمة، كان خجلي من بقائكم في جدة هذه المدة، ومخلصكم جنى على نفسه حرمان لذاته واستفادته من فضائلك وكرائمك، فإنها مهما تجسمت ضرورة أسباب هذا الحرمان لا أجده إلا حجة علي وعلى كل حال ففي كمالاتك ومداركها ما يغني عن كل بيان، وبها متسع محيط كل ما هو في معنى ذلك، وليس لي ما يهون تلك الرزية الي أحكم بها على نفسي إلا اعتقادي بأن أسبابها ودواعيها هي مما تهتم لها فضائلكم، والله يحفظك ويمن عليّ بتلافي ما فات عزيزي))¹.

هي رسالة موجهة إلى الرحالة، ذكرها في منته الرحلي مؤثنا بها كتابته، مبرزاً رأي الملك فيه، ومدى حبه وإخلاصه له، رافضاً دخوله إلى مكة مرجعاً السبب إلى تفهم الرحالة لذلك، فهو ذو فكر وقاد وحكمة عالية تسمح بفهم الموقف، عاد الملك بعد أسبوع ليودع الرحالة، ويتركه يواصل فعله الرحلي، مستخدماً فكره وحكمته في اقتناء المعلومة عن طريق المشاهدة والتحليل، ومقاربة الأزمان لأجل التوضيح والتبليغ.

يواصل الرحالة سيره ليدخل بلاد اليمن التي حُذر منها، قد يفقد حياته، فقد قدم له النصيح بعدم الدخول، خاصة في الحدود التي لا تحكمها الحكومة الإنجليزية، لكنه مصمم على المتابعة ولو كلفه هذا حياته، ويورد رسالة تبين مدى هذه المخاطر التي أرسلت إليه من دار الوكالة بعدن والمؤرخة في 05 نيسان (أفريل) 1922.

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1 ص 41.

((إلى المستر أمين الريحاني:

أيها السيد العزيز:

قد كتب الحاكم إلى سلطان لحج يسأله أن يرفقكم أنت وقسطنطين يني بالحرس إلى حدود حمايتنا عندما تزمعون الرحيل، ولكنه رغب إليّ أن أعلمكم بأن البلاد في اضطراب، وأن السفر فيها خطراً على المسيحيين، وإنه كان قد سأل السلطان أن يرفقكم بالحرس إلى الحدود، فلا هو ولا السلطان يضمنان لكم السلامة، وليكن معلوماً لديكم بأن الحاكم غير مسؤول البتة عما يحدث لكم في ما دون حدود المقاطعات المحمية.

لكم بإخلاص ب.م. ريلي

المعاون الأول للحاكم بعدن¹

يتعامل الرحالة بحس الواقعية، محاولاً دائماً حفظ رابط الثقة بينه وبين المتلقي، ويجعله يعيش معه لحظات الرحلة، فكانت الكتابة بذلك إحياء لفعل من الذاكرة، لكن زمن الرحلة وزمن الكتابة يبدوان متساويين من حيث التفاعل مع الفعل الرحلي، نلمس مستويات الخوف والأمل، بادية على سطح السرد، يحسها القارئ ويتفاعل معها، وهذا راجع إلى القدرة الخطابية للكاتب.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 87.

4. التراجـم:

تعد تراجم الرجال من حكام وعلماء في مختلف الميادين، من الأوامر التي اهتم الرحالة بها، ونجد على سبيل المثال رحلة القلصادي، الذي توجه إلى بلاد الأندلس وقدم ترجمة لبعض علمائها ((ولكننا نجد الرحلة تشتمل على ثلاثة وثلاثين رجلاً أخذ عنهم القلصادي في الأندلس قبل الشروع في الرحلة وبعدها، وفي مراكز أخرى بالمغرب العربي، وبلاد المشرق خلال الرحلة، و منهم أربعة من شيوخ تلمسان، حضر مجالسهم دون أن يقرأ عليهم بلفظه))¹.

فالريحاني عمل على وضع تراجم لبعض الرجال الذين التقاهم في رحلته، ونستطيع القول أنه يوجد نوعان في شخصياته الرحلية، له شخصيات رئيسية وهي المقصودة في الفعل الرحلي، وهم ملوك العرب، كالملك حسين، والإمام يحيى، والسيد الإدريسي، والسلطان عبد العزيز آل سعود، الشيخ جابر آل الصباح، وعبد الكريم فضل سلطان لحج، وحمد بن عيسى آل خليفة حاكم البحرين، والملك فيصل ملك العراق، وشخصيات ثانوية مساعدة، كصديقه قسطنطين يني، وسلطان الحواشب علي بن مانع، وشخصيات أخرى كانت مساعدة على تحقيق الهدف الرئيسي للرحالة، كما كانت واسطة بينه وبين الشخصيات الرئيسية.

لذا نلمس أن الريحاني أحس بأن إدخال ترجمة هؤلاء الشخصيات أمر لا بد منه، ضمن سرده الرحلي ماثلاً به كتابته، وفق نسق تعليمي مخاطباً به القارئ، لكننا نجده أغفل بعض التراجم لشخصيات

1 - القلصادي أبي الحسن علي الأندلسي، رحلة القلصادي، دراسة و تحقيق د.محمد أبو الأجفان، ط.1، دار ابن حزم، 2011، ص 76.

رئيسية كالسلطان عبد الكريم فضل، الملك فيصل، وعبد العزيز آل سعود واكتفى بالإخبار عنهم وعن بعض صفاتهم الخلقية والخلقية.

أول ملك قام بزيارته هو الملك حسين وقدم ترجمة له، ذكرا مولده ونشأته في ظل الأستانة التركية لمدة عشرين سنة، حيث تكونت لديه ثقافة تركية، لكن هذا لم يمنعه من محاربتها طالبا استقلال بلاده واستقلال بلاد العرب، استرسل الرحالة في ذكر أخبار الملك حسين، ووصف بعضا من أعماله فكان يتراوح عنده بين الحكمة والشدّة، وبين الغضب والحلم، فكانت مسيرة الملك تعد مساحة كتابية، عملت على تمديد السرد الرحلي، مما حوى من تحولات داخل بنية السفر.

ينهي الرحالة مهمته في الحجاز ليتوجه إلى اليمن قاصدا الإمام يحيى، الذي كان لقاءه مسبوقا بكم من الصعوبات، التي لا نجد لها ذكرا في زيارته للملك حسين، وكانت الطريق مملوءة بالمخاطر، أخطرها أنّ الرحالة قيل له قد تفقد حياتك، على أيدي البدو المتحاربين، لكن الرحالة تحملها، وعزم على مواصلة الرحلة.

هذا ما يبرز نوعا من الأهمية الكبيرة لهذه الشخصية، يقول معرفا الإمام: ((الإمام يحيى بن حميد الدين هو من سلالة الرسول، الزيدي الأول في اليمن السيد يحيى بن الحسين الرسي، وقد كان والده المنصور مفتي صنعاء، وذا نفوذ كبير في عهد الإمام شرف الدين، فلما توفي الإمام انتخب بالإجماع خلفا له ودعي بالمنصور، وبعد وفاة المنصور ظفر ابنه يحيى المتوكل على الله بالإمامة، وهو اليوم في السادسة والخمسين من سنه والثانية والعشرين من حكمه، قضى أكثرها كما قلت في الاحتراب والمهادنات،

ولحضرة الإمام أربع زوجات شرعيات جاء منهن أربعة وثلاثون ولدا، مات منهم ثمانية عشر، أما الباقون فمنهم محمد سيف الإسلام البكر، والمطهر، والقاسم، و الحسين، وخمس بنات متزوجات¹.

يلاحظ أن الرحالة قد اطلع على كتب تاريخ وتراجم من رغب بزيارتهم، وقد استعد لهذه الرحلة، لذا نرى أن كتابته جاءت متضمنة لمعلومات سابقة، ما انعكس ذلك على التنوع السردى والتراكم المعرفى، لذا نجده يعمل على توقيف الزمن السردى، ليستعيد مجموعة من المعلومات يقدمها للقارئ، غرضه من ذلك تقديم أكبر عدد ممكن من المعلومات، عاملا على توضيح الصورة.

هو نوع من الاستطراد، والانتقال من معنى إلى معنى آخر، فنراه يتكلم عن السيد الإدريسي، ليخرج من هذا وينتقل إلى الحديث عن أحد أجداده المؤسسين لدولة الأدارسة في عسير، ((فهو ينتقل بلمحة خفية سريعة من نقل مشاهداته مثلا إلى الحديث عن الأسباب التاريخية والاجتماعية لهذه المشاهدات، أو نقل ظاهرة معينة إلى الاسترسال في المدلولات السياسية لهذه الظاهرة، أو من تسجيل تنقلاته إلى مناجاة بعض المدن والأماكن التي تنقل بينها))².

شخصية أحمد ابن ادريس، الشخصية الصوفية التي قطعت شوطا في العلم والتعلم، ثم صارت معلمة، ((ولد في بلدة العرائش على ساحل البحر من أعمال فاس في السنة الثانية والسبعين والمئة بعد الألف (1758م)، وهو شريف حسني من السادات الأدارسة المشهورين في بلاد المغرب، درس العلوم في

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 148.

2 - المصدر نفسه ، من مقدمة المحقق، ص. م.

مدينة فاس ثم شرع يعلم هناك في "ما شاء الله" أي في المواضيع التي شاعت العزة السرمدية تلقينه إياها بالوسائط وبدونها¹.

يستحضر السارد ذاكرته وقراءاته السابقة، في تشكيل بنية سردية وفق تراتبية لغوية معينة، فيذكر لنا الشخصية في صورة المدهش، ثم يتسلسل في صبب الأوصاف مستعينا بأسلوب التشويق، فقد صرح بأنه سيبعد الملل عن القارئ، كما طلب منه الصبر على القراءة حتى يستطيع جني ثمارها كاملة، لذا نراه يطيل في الإخبار ويصرح بذلك ((قد أخبرتك كيف اجتمع الإدريسي بالتازي، فأخبرك الآن كيف اهتدى التازي بالشيخ الشاب عبد العزيز الدباغ².

إن لغة السرد لغة تخيلية فقد كتب رحلته بعد سنتين من الرحلة، فالرحلة كانت سنة 1922م، والكتابة سنة 1924م، فقد اعتمد على ذاكرته ويومياته، إن السرد يعني ((إعادة تشكيل الواقعة سواء أكانت حقيقية أم متخيلة، من خلال مكونات اللغة المنطوقة، أو المقروءة أو المكتوبة، في عملية صياغة وعرض وإعادة إنتاج، وفق نظام يحدده السارد مشكلا الحبكة التي تمتلك نظامها الخاص في إظهار الحدث، وكيفية بنائه، وتشكيل مواده الأولية، ضمن نظام زمني جديد، وتضمين النص الرؤى والمضامين والدلالات والغايات، باستخدام سلسلة من التقنيات القادرة على توزيع الوظائف، بما ينسجم مع كل مستوى يقوم عليه النص³.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 294.

2 - المصدر نفسه ، ص 696.

3 - الإبراهيم ميساء سليمان ، البنية السردية في كتاب الإمتاع و الموانسة، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، 2011، ص 12.

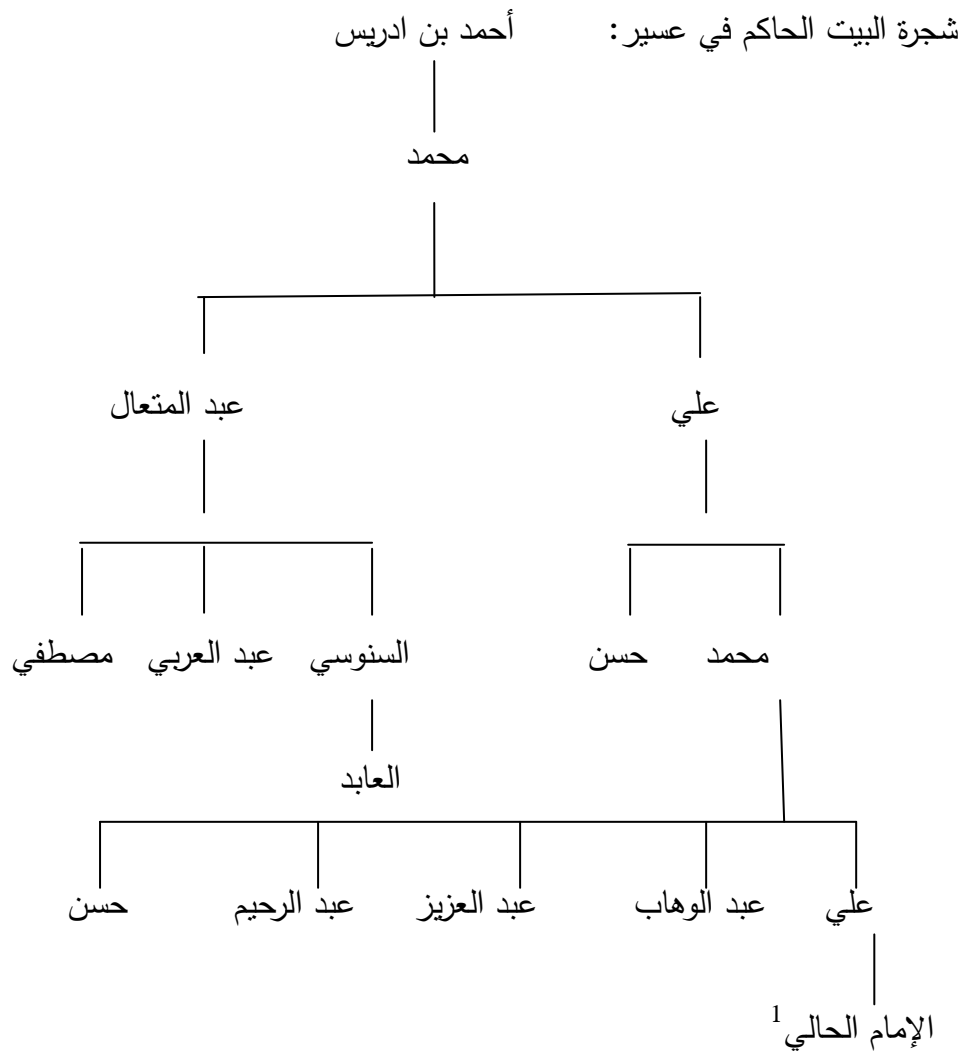
يمتد السرد قرابة العشرين صفحة كلها مستوحاة من التاريخ، لذا نجد التاريخ عنده عنصر أساسي مكون للسرد الرحلي، لكنه يحمله نوعا من الذاتية التي يفتخر بها السارد ولا يستطيع التخلي عنها، فتراه حيناً مادحا وبأخرى ساخرا، وأحيانا متعجبا، عاملا على إحداث تساؤل لدى القارئ، مدخلا زمن القراءة في زمن السرد، وكأنه يهدف إلى خلق مزوجة بين الذات الساردة والذات القارئة.

نلمس روح البحث المعرفي عند الرحالة، وخاصة فيما يخص الأشخاص، فالرحالة مهتم بمعرفة الآخر، وكأنه يرى ذاته فيه، فيعمد إلى وصفه ودراسة عاداته وأفعاله، مقارنة ذلك بما هو موجود من واقع حقيقي، ناقلا ذلك بأسلوب كتابي تخيلي، ((الكتابة عمل تحريري، يحرض الذات على الآخر، وهي في الوقت ذاته تحريض للآخر ضد الذات))¹، فالرحالة يكتب من باب المقارنة بين ما عرفه و بين ما يراه أمامه، فينغمس فيما هو آني.

يذكر شخصية السيد الإدريسي، الذي يرى فيه نموذجا للصوفية، وللسيطرة السياسية على ما يمتلك من أراضي، رغم ما يتميز به من بشرة سوداء، جراء الزواج من الحبشيات ((ولد السيد عليّ الإمام الحالي في دنقلة سنة 1905، من أم سودانية وهي كما تقدم ابنة الشيخ هارون الطويل، وهي أول حرم الإدريسي، وكانت قد أقامت وابنها عليّ سبع سنوات في دنقلة، بعد رجوع السيد محمد منها، ثم جاء بهما السيد مصطفى سنة 1912 إلى صبيا، فقرأ السيد علي فيها الكتاب والحديث واللغة، ونشأ في ظل أبيه متشربا مبادئه في السياسة والوطنية،....و للسيد علي أربعة أشقاء عبد الوهاب وعبد العزيز وعبد الرحيم ثم حسن الصغير، وأمهاتهم جميعهن حبشيات))²، و يضع مخططا يوضح فيه السلالة الإدريسية.

1 - الغدامي عبد الله ، الكتابة ضد الكتابة، ط.1، بيروت، دار الآداب 1991، ص 7.

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 320.



5. الحكاية:

مثلت الحكاية عنصرا لغويا بانيا للسرد الرحلي، فالرحالة سائح بأذن سماعة لكل ما يمر عليها، وكأنها آلة تسجيل لا تريد ترك أي شيء، حتى ولو بدى للآخر أمرا تافها لا أهمية له، لكنه بالنسبة للرحالة مادة خام وجب أخذها وتدوينها، فالحكاية ممارسة اجتماعية تعبر عن لحظة زمنية محددة، وتحتوي فضاء له دلالاته المؤثرة على الذات.

إن أسلوب الحكيم جاء متنوعا في السرد الرحلي، بين الخبر، والوصف والحوار، راويا مما يراه ويسمعه في قوله سمعت ورأيت وشاهدت، كما يروي مسندا الخبر لشخص آخر في قوله حدثنا وأخبرني وقال لي، لكننا نقصد بالحكاية ما يأخذ صبغة القصص الشعبي الخرافي، وهذه الحكايات منتشرة بين أفراد المجتمع، لكننا نجد الرحالة لم يعرها اهتماما كبيرا إلا ما جاء عفويا، من أغان شعبية، تغنى في أوقات السمر زمن الليل، على نار هادئة وسط فضاء واسع تملؤه رمال الصحراء.

يضمن الرحالة سرده بحكاية مسندا فيها الخطاب لشخصية حمودة يتحدث قائلا: ((كنت حاملا كتابا من الشيوخ إلى أمير عنيزة فنوخت في شعيب بوادي حنيفة لأتشفى، كنت وحدي وكانت الليلة مظلمة، عقلت الذلول وجمعت الحطب، وشببت النار فسمعت في الحال صوت امرأة تولول وتصيح: أحجب علينا حجب الله عليك، فتلفت فعاينت تحت الشجرة وجها كالشمس، وحياة الله وشعرها طويل وأسود كالليل، ظهر الوجه في النور لمحة بصر واختفى، فعدت إلى النار أشبها فعادت تصيح: لا تشب النار الله يجيرك من النار، احجب علينا استرنا، هي عروس الجن، وقد كانت لطيفة كريمة فدنت من حمودة وقبلته وهي ترجوه أن يسير في سبيله ويتركها وشأنها، في ظلمات الليل، فاستجاب حمودة طلبها، وأسرى

تلك الليلة كلها وهو يشكو من حرق في وجهه، والله والله يا أستاذ حبتني (قبلتني) هنا وكان فمها كالجمرة، وحياء الله أقول الصدق))¹.

يكشف لنا عن الفكر الشعبي وعن صفات الرفيق له في السفر، فكما رافقه الفقيه والعالم والجندي، رافقه أيضا الفرد البسيط، الحامل لأفكار يراها من العجائب، هي ثقافته الاجتماعية، هذا ما يميز السرد الرحلي، الحامل لشتى أنواع الأخبار حيث تجد فيها خبر الحاكم، وخبر التاجر والفقيه، وخبر الجندي وقائده، خبر المرأة والفتاة، خبر الكوخ والقصر، وخبر المسلم والكافر.

قد كان للرحلة زمن محدد للكتابة، واضعا المتلقي أمامه فهو كان يعلم بوجود قارئ لذلك، لذا نجد الرحالة في مقدمته يطلب من القارئ التريث والصبر في القراءة، حتى يجني ثمار ما قرأ كاملة دون نقصان، فالرحلة ((تُوجه إلى مخاطب معين، لا يمكن أن تكون بدونها باعتبارها مكونا جوهريا من مكوناتها، حيث يساهم إلى جانب الرحالة في إنتاج النص لأنه يصاحبه، فغالبا ما يكون اختيار المادة وإعدادها مرتبطا بانتظارات هذا المتلقي، لأن هذا الأخير وصورته حاضرا بقوة في وعي الكاتب ويفرضان نفسيهما على الرحالة))².

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج2، ص 632.

2 - الساوري بوشعيب ، الرحلة و النسق، ص 96.

الفصل الخامس

جمالية الوصف

1. وصف المدن:

تعتمد الكتابة على مستوى الخطاب الأدبي على جمالية الوصف، حيث يتوقف الكاتب ليجول بعينه، متفحصا كل ما يراه أمامه فيعمد إلى السرد التفصيلي مخبرا عن تفاصيل ما هو ماثل أمامه، لينزع أحيانا إلى الوصف التعبيري مازجا وصفه بذاتيته، فيخلق بذلك انسجاما بين ما يشاهد وبين أحاسيسه، فيصبح ما يراه جزءا من ذاتيته.

يعتبر الرحالة ناقلا للمعرفة من مكان إلى آخر، و من زمان إلى آخر، معتمدا على ما يملك من قدرة كتابية، وعلى قدرة في النظر وتصوير المشهد، يقول واصفا مدينة إب من بلاد اليمن: ((أما مدينة إب فمسورة، وهي وسخة ومزدحمة، تروق الناظر إليها من الخارج فقط، بيوتها من الحجر وأكثرها ثلاث طبقات، تستخدم الأولى للمواشي والدواب، والثانية للخدم، والثالثة لأهل البيت، ليس في المدينة مدارس غير ما في المساجد لتعليم القرآن، وليس فيها أحد من الأطباء، ولا نقطة ولا حبة من الدواء ويكثر فيها الجدري والحمى وأكل القات))¹.

كما يخبرنا عن حالة أرض اليمن ويصف صحة أهاليها المتدهورة، حيث نرى انتشار ظاهرة التخزين للقات، وقلة الأطباء والمستشفيات، فظهر على إثر ذلك الأمراض الخطيرة

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 108

كالجدي، ((إننا كلما صعدنا في اليمن نرى "التخزين" في ازدياد وصحة النسل في نقص ظاهر ولا سيما في الأولاد، فإن وفيات الأطفال في اليمن كثيرة، إذ قلما يعيش للرجل الواحد من عشرين ولدا مثلا أكثر من سبعة أو عشرة أولاد، وأظهر ما فيهم التحول والشحوب، وضعف الأعصاب))¹.

نلمس الوصف التفصيلي للرحالة، حيث ركز على أجزاء الشيء الموصوف، فالوصف هو ((ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات))² ليصف أجزاء البيت، وأحياء المدينة، كما لاحظ ضعف الحالة الصحية للأهالي، وضعف التعليم، إلا ما خلا من تعليم للقرآن في المساجد، إنه يعكس صورة واقعية، مقربا للقارئ حقيقة الحال، حيث يجعله في اتصال مباشر مع الحدث.

ثم يلحق الرحالة هذا الوصف بوصف آخر لنفس المدينة موظفا أسلوب المجاز، اختار منه التشبيه، عاملا على إيضاح الصورة الفنية، ونلمس أن زمن الوصف في الرحلة لا يتوقف كما هو متداول عنه في السرد، فالرحالة يسير ويصف ما يراه ماثلا أمامه ((قلت إن إب جميلة من بعيد، فالقادم إليها من مأوية أو تعز، يراها في السهل وحولها الرى، كأنها حفنة من اللؤلؤ، على بساط أخضر مفروش في بحيرة جفت مياهها، والقادم إليها من يريم يراها قائمة على رأس الجبل كصخر في مرج أو كبرج في جزيرة، ولها ساحة وداع، كما لها ساحة استقبال))³.

يستهل الرحالة خطابه الوصفي بقوله "قلت"، دلالة على تأكيد القول، ومواصلة لفكرة سابقة ما يدل على تتابع السرد الوصفي، عاملا على إيضاح الصورة في ذهن القارئ، فالرحالة يقدم

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ص 108.

2 - أبي الفرج قدامة ابن جعفر، نقد الشعر، تحقيق و تعليق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، د.ط.د.ت، ص 130.

3 - الريحاني أمين، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 108.

بطاقة تعريفية للمدينة، عاملا على وصف المعالم والمسالك، كما يصبح الوصف أداة سردية متعلقة بالمكان، مدعمة للسرد العامل على الترابط الزمني بين الأحداث، كما يسمح الوصف على فسح المجال لراحة سردية للمؤلف، يتوقف فيها ليوصل السرد بنفس جديد.

يرتحل الرحالة وهو حامل لثقافة تؤهله لولوج المناطق المرتحل إليها، لتبدأ أثناء تنقلاته مقابلاته بين ما يملكه من ثقافة قبلية، و بين ما يراه ماثلا أمامه، يقول واصفا قرية وعلان باليمن ((وهي قرية صغيرة على مسافة خمسة عشر ميلا من صنعاء، وخرجنا منها باكرا فأحسست ببرد شديد، يستغرب مثله في الدرجة الخامسة عشرة عرضا، ولكننا أصبحنا كذلك في علو يدنو من عشرة آلاف قدم فوق البحر))¹، يظهر هنا عنصر الاستغراب فمعلوماته السابقة خالفت ما هو موجود، فالمعروف عنده أن في الدرجة الخامسة عشر لا يكون البرد شديدا، فذات الرحالة عاملة على استكشاف ما خفي عنها، هذا ما يضمن وفرة في المعلومات المقدمة التي تعد مادة للكتابة، والتي تمثل طاقة إخبارية للمؤلف.

اعتمد الرحالة على الرؤية البصرية التي أهلتها للوصول إلى نتائج واقعية، مساهمة في ذلك الحواس الأخرى مساندة للبصر على تحليل المشهد وإعطاء صورة كاملة عنه، ((من هنا تصبح الرؤية البصرية رؤية فكرية، تضافرت فيها الحواس الخمس دون الاختصار على حاسة البصر، خاصة أن مجال الوصف ميدان فسيح شمل المحسوس من أشياء وكائنات وأحداث، وشمل من

ناحية ثانية، مجالات غير محسوسة متعلقة بالأحاسيس الداخلية للرحلة الدالة على موقفه من الخارج¹.

إن الوصف يعمل على المزج بين الذات وأحاسيسها، فالرحلة هي انجذاب ذاتي، لنداء المعرفة وحب الاكتشاف، فالرحلة يصف أحاسيسه الدالة على حب فعله التنقلي، ونستطيع القول القول أن مباشرة الفعل الرحلي هو بحث عن الوصف للمكان المرتحل إليه، ومع مرور مراحل الرحلة، تزداد حدة حب المعرفة، وكأنها كتاب يجمع معلومات متتابعة كلما قرأت صفحة طلبت أكثر، يزداد حبه لمدينة صنعاء فيزيد في وصفها الذاتي ((أجل إنَّ صنعاء في محاسنها لا تخيب للزائر أملاً، وكلما دنوت منها، وهو عكس الحقيقة في أكثر المدن، ازداد إعجابك بها هي في مقامها الطبيعي فريدة عجيبة، فيها الهواء أعذب من الماء، والماء أصفى من السماء، و السماء أجمل من حلم الشعراء².

يعمل السارد على إشراك المتلقي في سرده، واضعاً إياه في مرتبة الكاتب الثاني، فاتحا خياله على قراءة الصورة الموصوفة، ذلك مائل في ضمير المخاطب "أنت"، وقد أشار في مقدمته أنه سيسلك أسلوباً يبعد الملل عن القارئ، فيترك المجال ليتخيل صورة الماء والسماء والهواء، فهي الصورة التي فاقت حلم الشعراء.

إنَّ الخيال في الوصف الرحلي يكتسب ميزات خاصة، فالخيال خارج الرحلة هو تكوين صورة بمزيج من الواقع واللاواقع، ومزج لشيء محسوس بشيء مجرد، فقد يفترق المشبه والمشبه

1 - مودن عبد الرحيم ، الرحلة المغربية، ص 275.

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1 ص 120.

به، لكنه في الرحلة يمثل تزيين الصورة للمشاهدة، وإخراجها في حلة يراها الكاتب مناسبة ((فإذا كان الخيال يسهم في إيجاد وإثراء فنون أدبية كالفن الرواية، فإن نطاقه في أدب الرحلة محدد في تلوين المشاهد والحوادث لا خلقها أو تزييفها))¹.

يعتمد الرحالة في أسلوبه الوصفي على الوصف الخارجي، التفصيلي، فنراه يجنح إلى الوصف الموضوعي، عاملاً على تحديد المقارنة بين البيت العربي، وغيره من البيوت الأخرى، محاولاً الإشارة إلى النزعة العربية، محدداً للنسق الاجتماعي، فعمل على تحديد التماثل بين الشخصية الاجتماعية وبين هندستها المعمارية يقول ((إنّ صنعاء مدينة عربية صافية روحاً وشكلاً، أسواقها مثل أسواق جدة غير مرصوفة، ولكنها أوسع وأنظف، أما بيوتها العالية وبعضها ست طبقات، فبناؤها أجمل هندسة وأكثر إتقاناً لأن الأسلوب العربي فيها لا يشوبه شيء أجنبي هندي أو أوروبي، وهي مبنية بالحجارة البيضاء والسوداء وبعضها بالآجر والبعض باللبن، وبين كل طابق والآخر زنار من الجص الأبيض المنقوش أشكالاً هندسية، وفوق كل نافذة كوة فيها لوح من المرمر يكاد يكون كالزجاج رقيقاً شفافاً، ولكنه أمتن من الزجاج وأجمل، وهناك في الطابق الأخير لأكثر البيوت غرفة واحدة هي غالباً مطلقة من جهاتها الأربع تشرف على المدينة وتدعى المنطرة، يستخدمها الناس للاستقبال والقبلولة، فيفرشونها بالطنافس والمساند والوسائد، ومنهم من يستعملون الزجاج في النوافذ فيقسمونه أشكالاً هندسية، ويلونونه أحمر وأصفر وأخضر وأزرق، أي الأصباغ الأربعة التي يصنعونها في اليمن فيستخرجونها من النبات))².

1 - عبد الله بن أحمد حامد آل حمادي، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير، جامعة أم القرى، إشراف الدكتور محمد صالح جمال بدوي، السنة الجامعية: 1997، ص 127.

2 - الريجاني أمين، رحلات ملوك العرب، ص 124.

يعمل الرحالة العين بإحكام كبير، مسقطا الوصف على يمتلك أهل اليمن من صنائع وخبرات في البناء، مستخدما أساليب التفضيل والإعجاب "ما أجمل"، مميزا إياها بفرادة مواد البناء، التي يعلم أصل تكوينها وقيمة نوعيتها، ثم يشير إلى عادات القوم في استقبال الضيف، فله مكان خاص، متنوع ومنشرح.

جاء الوصف رابطا بين المرئي والحالة الاجتماعية، وبين ثقافة الرحالة، وثقافة الآخر، حيث تكون لدى السارد رغبة في التجوال وسط أحياء المدينة، وهو في انتظار رؤية الإمام يحيى، فعمل الوصف على ملء فراغ الانتظار، فجاء مخاطبا للذهنية الشعبية، في بنائها وزخرفتها وضيافتها.

ارتبط الوصف عند الرحالة بعنصر التذكر الرامي إلى الحنين والشوق إلى الديار، فالرحالة يتحرك في فضائه الرحلي، حاملا لشخصيته التي يرى كل ما خلاها آخرا يتوجب وصفه وتبليغه للمتلقي، فالرحالة بين منزلتين الأولى معرفة ما يخالف ذاته، ومنزلة إيصال المعرفة إلى المتلقي، فجاء سرده اكتساب لتجربة ذاتية، تطورت الذات الواعية من خلالها، كما ورد في نسق تعليمي تثقيفي للمتلقي.

قد جمع الرحالة بين الشوق لوطنه وبين التعليم، فجاء هذا ماثلا في سرده يقول في وصف مدينة الحيمة بأرض اليمن: ((وبيننا أودية متشعبة عميقة، وعلى كتف إحداها أرض بدكات في شكل نصف دائرة ذكرتنا بلبنان، وما أكثر ما يذكرك بلبنان، أرض الحيمة كلها مزروعة وفيها العودان البن والقات، وفوق تلك الدكات البلدة وهي عدة أقسام، عدة أحياء كل حي قرية بذاته،

بيوته عالية ومتصلة ملزوزة كبيوت المدن بعضها ببعض، وبين كل حيّ وحي مسافة يتخللها شعب أو نقيل¹)).

يرتكز السارد على الوصف الواقعي الذي يحمل في طياته إخبار عن الواقع، فالسارد ناقل لما يراه بطريقة مباشرة، فيعطينا وصفا تفصيليا، الغرض منه وضع حبل تواصلتي تحكمه الثقة مع المتلقي، ((يتعدد الوصف ويغتنى من جانب آخر أيضا حيث نجد الوصف الواقعي القائم على تأطير المكان أو التعريف بالأشياء أو الأشخاص، وتبرز هذه الوظيفة المرجعية أو المعرفية للوصف التي تهتم بتوصيل معلومات عن هذا المرجع الموصوف²)).

نلمس في أسلوب الرحالة عنصر النكتة والطرافة، التي تعمل على قطع الملل الذي قد يحس به القارئ فيصف جلسة القات، التي أتعبته فخرج لبحث عن الهواء خارجا ((جاؤوا برزم القات وبالمدعات، فأقفلوا النوافذ، ونزعوا عن رؤوسهم العمامات، وطفقوا يدخنون ويخزنون دون انقطاع حتى أمتست القاعة بعد نصف ساعة مثل مخنق الفيالج³)).

إن الوصف في النص الرحلي يكون نواة لكتابة متوالية سردية، نجده يبدأ بوصف ظاهرة ما كوصفه للكيس الذي ينام فيه الفرد اليمني، ليسترسل في ذكر خبره في اليمن وخبره عند الأطباء ثم يشبه الفضاء بالكيس الذي ينام فيه كل الناس يقول: ((أما الكيس إذا كان المسافر يضطر أن ينام في مثل هذه المقهاية، فهو ألزم ما يلزم، هو كثير الاستعمال في اليمن خصوصا في الجيش، إلا

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ص 240.

2 - المحمود صفاء ، البنية السردية في روايات خيرى الذهبي الزمان و المكان، بحث لاستكمال مستلزمات الماجستير، إشراف أ.د. غسان المرتضى، 2009-2010، جامعة البعث كلية آداب و اللغات، ص 162.

3 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1 ص 241.

أنهم لا يربطونه في العنق، كما تظن أيها القارئ بل يربطونه فوق الرأس، هم يجعلونه كبيراً لهذه الغاية فيتمكن صاحبه وهو فيه من زمه وعقده بيده داخل فيمسي إذا ذاك كله هو ورأسه في الكيس، فيستنشق ما دام نائماً كل ما يتنفسه من حامض الكربون ولا يختنق، ولا ينهض صباحاً ووجهه كالرغيف المحروق، كأنه أكل نارا في نومه¹.

يعمل الرحالة على رسم صورة يتضح فيها أسلوب التعجب من اللامألوف، كيف لهذا اليمني ينام ورأسه داخل الكيس، منتشقا حامض الكربون ولا يختنق، فالرحالة شخصية عاشت في أمريكا، وتشبع بحضارة الغرب، العاملة على استنشاق الهواء العليل، فتعجب من هذا الآخر المغاير له في ثقافته، يستنشق دخان القات وحامض الكربون، ويتمتع بصحة جيدة، ويرى في هذا النوم اقتصادا وحلا لمشكلة الذين يبيتون في شوارع أمريكا، ((هكذا تكون الأشياء اللامألوفة هي المحفزة على الوصف، نتيجة تأثيرها ووقعها الكبير في النفس، فتعمل على إثارة ذخيرة الرحالة التي تقوم بعملية معقدة تنتهي إلى تقديم بعض الأوصاف))².

سبق الكلام أن الرحالة يتمتع بثقافة سمحت له بالسياحة في أرض العرب، هادفا إلى معرفة العرب وتعريف القارئ بطبيعتهم، لذا نجده يوجه كتابته للوصف التعليمي الرامي إلى ذكر الأجزاء والتركيز على النقاط المهمة، فينتقي ما يراه مناسبا للنسق المعرفي، عاملا على استعمال العين كوسيلة أولى للوصف تتبعها في ذلك تصورات تفصيلية عن أبعاد الصورة الموصوفة، ((نجد مراكز

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 250.

2 - الساوري بوشعيب ، الرحلة و النسق، ص 233.

الضبط في عالم النص الوصفي في معظمها تصورات للشيء والموقف، ثم إثراء بيئاتها بكثرة الاتجاهات إلى كشفوصلات والمثال والتخصيص))¹.

يتحدث واصفا مكان القاع حين كان بأرض نجد بمنطقة العوسجية، يبدأ الوصف بالسؤال: ما القاع؟، ليجيب مسندا الإجابة لأهل اليمن: ((في اليمن يطلقون الاسم على السهل، فيقولون قاع يريم وقاع الحقل، فيكون القاع إما أخضر وإما أسود أو أحمر إذا لم يكن مزروعا،.....وسدنا خطواتنا أنا ورفيقي إلى القاع شرقا من القرية، فاجتزنا بستانا من النخيل، وغيزة من الطرفاء وأدغالا من نبات طويل لزج يدعى الهَرَطْمِيل، فإذا نحن بعد ذلك في أرض سبخة موحلة وإذا بالنهر أو القاع قيد أبواع منا، أنهر في نجد؟ أي نعم من الملح المتجمد، من فصقات السودا، وعرضه نصف ميل، وطوله من الخمسة إلى السبعة أميال))².

يضمن الكتابة الوصفية أسلوب السؤال والجواب، هي تقنية تخدم النسق المعرفي، فهو الآن جغرافي، يتحدث عن طبيعة الأرض ونوعية تربتها، ومقاسات عرضها وطولها، إنه بصدد كتابة خبر معرفي، باستعمال جمالية الوصف، الذي ((يسمح للرحالة بتقديم تقرير مفصل عن ملاحظاته، ويسمح له في الأخير بنقل معرفة إلى المتلقي، على اعتبار أن الملفوظ الوصفي محرك للمعلومات المرتبطة مسبقا بموضوع الرحلة))³.

1 - دي بوجراند روبرت ، النص و الخطاب و الإجراء، ترجمة د. تمام حسان، ط.2، القاهرة ، عالم الكتب، 2007، ص 415.

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ص 609.

3 - الساورى بوشعيب ، الرحلة و النسق، ص 235.

إن المعرفة المسبقة لدى الرحالة تكتسب نوعاً من الانفتاح والتطور حين تلتقي مع معارف جديدة، فتعمل على صقل معرفته، وذلك بمحاكاته للواقع المعيش، يصف مدينة عنيزة بنجد، ويشبها بباريس، راسماً صورة اصفرار الشمس التي اكتسبتها من ذهبية الصحراء: ((عنيزة حصن الحرية ومحط رجال أبناء الأمصار، عنيزة قطب الذوق والأدب بباريس نجد، وهي أجمل من باريس إذا أشرفت عليها من الصفراء، لأن في باريس نخيل وليس لباريس منطقة من ذهب النفوذ، بل هي أجمل حين إشرافك عليها لأنها صغيرة وديعة خلابة بألوانها، كأنها صورة صورها مانه، لقصة من قصص ألف ليلة وليلة، وكأنها لؤلؤة في صحن مطوق باللازورد، بل قل إنها السكينة مجسدة، وقد بنت لها معبداً بين النخيل زانته بإفريز من ذهب الرمال وكللته بإكليل من الأثل))¹.

يكون الرحالة صورة فنية معتمداً المجاز المتمثل في التشبيه، حتى يقرب المفهوم للمتلقي، لكنها صورة أقرب إلى نفسه من نفس المتلقي، فالرحالة قد شهد المكانين (باريس وعنيزة)، فجاءت مقارنته صحيحة، فاكتمل عنده الوصف المنسجم مع السرد، لكنها عند المتلقي مجرد تخيل مستوحى من الوصف، فتصبح الصورة عند المتلقي خبراً، له فيها أعمال للخيال والتأويل.

فقد عمل الرحالة على استرجاع صورة سابقة موجودة في الذهن، وعن طريق الخيال ربطها بصورة حاضرة، فامتزجت الصورتان لتنتج صورة واحدة، ((تتعاون الوظائف العقلية النفسية فيما بينها، فالقدرة الحافظة في الذهن تعد وتهيء لوظيفة أخرى هي التخيل، فبعد أن تستقر صور

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ص 610.

الأشياء المادية وهالات المجردات والانفعالات في الذهن (الدماغ) ضمن الرصيد المعرفي، ينشط الخيال ممثلاً بداية بالتذكر الاسترجاعي، وهو أن تستعيد صور المدركات الحسية السابقة))¹.

إن من أغراض الرحالة في سرده الرحلى نجد التثقيف ونشر المعرفة، ومحاولة إقامة علاقة بين العرب، بصفاتهم أيضاً متلقين للخطاب، فيعرفهم على بعضهم البعض، ذكرا العادات والتقاليد، الحكام والأمراء، الجنود والعمال، النساء والصبيان، الصحراء وال عمران، مما شاهده ورسخ في ذهنه مما يميز أرض العرب، إنها الطبيعة الصحراوية التي كثيراً ما تغنى بها الشاعر العربي، يذكرها الرحالة بأسلوب وصفي في سياق تعليمي، مخاطباً القارئ، الذي يؤكد أنه يقدم الكتابة له فيقصد الشرح و التبسيط لأجل الإفادة والإقناع.

يقول واصفا صحراء الدهناء: ((وهاكم الدهناء تبسط لنا النمارق البيضاء، وترحب بنا فينبغي للقارئ أن يعرف بعض الشيء عنها قبل أن نصل إليها، تختلف الدهناء عن النفوذ بأشياء بطولها وهي تمتد من الشمال الغربي فتتساب كالحية أو تتعرج كالنهر شرقاً بجنوب، حتى تصل إلى الربع الخالي بلون رمالها وهو أبيض إلا في أطرافها بقلة كثبها وتجوفاتها، فلا يتجاوز أعلى كثيب فيها المئة قدماً، بتنوع أعشابها و غزارة المرعى فيها، زد على ذلك أنها قليلة العرض جداً بالنسبة إلى طولها، والعرب لا يقطعونها إلا في الأماكن التي هي أقل عرضاً من سواها، لذلك هي أسهل سيرا وأينس مشهداً من النفوذ))².

1 - د.فايز الداية، جماليات الأسلوب الصورة الفنية في الأدب العربي، بيروت لبنان، دار الفكر المعاصر، 2003، ص 28.

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج2 ص 625.

يذكر صحراء النفوذ قريبا من الدهناء، فيسعد لجمالها ولنعمومة رمالها الحريرية، يجعل من الصحراء مكانا للألفة والطمأنينة والسلام، و قد ذكرها في مقام آخر أنها متعبة والسير فيها شاق، خاصة إذا كان على الذلول، وكان الراكب لا يحسن ركوبها، ((ما أجمل ذهب النفوذ في الشروق والغروب، بل ما أجمل أرجوانه إذا مال الظل وتعرج في الأصيل، وما أبهج ليل النفوذ وقد افترشت رملا ناعما كالحرير، وآخيت نجما دانيا في نوره منك كأنه يهمس في أذنك كلمات السكينة والحب والسلام، وما أروع أشكال الرمال وقد كونت أهراما وقبابا وفيها أمثلة الصراط، وقد شحنتها الرياح فأمست كحد السيف))¹.

نلمس أسلوب التشويق، الذي يدفع القارئ إلى تتبع المسار السردى، حتى يكتشف باقي خطوات الرحلة، فهو على علم أن الأحداث متواصلة، وهدف الرحلة الجزئية² لا زال لم يتحقق، فهو هنا مثلا قاصدا منطقة البحرين، وشيخها أحمد الجابر آل الصباح، لكنه يبتعد عن الإفصاح عن هذا حتى يقترب من الوصول إلى المكان المعين، فيترك القارئ متشوق إلى كيفية دخوله وماذا سيفعل، ونجد هذا الأسلوب متواجد على طول المسار السردى، فمن ذلك نجد - حين طلب زيارة الحجاز، ورغب في زيارة مكة- كيف كان انتظاره لهذه الزيارة، ثم لما أراد زيارة سلطان نجد، وحين طلب دخول اليمن، وحين سئل أحسنى أنت أم حسيني؟.

إن الرحالة يعمل على أن يعيش معه القارئ نفس التوتر والخوف الذي عاشه، وكأنه يدفع القارئ إلى مواصلة القراءة، بغية معرفة باقي الأحداث، وكيف سيكون مصيره، فالصحراء كانت

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ص 621.

2 - فالرحلة العامة هي الرحلة إلى ملوك العرب، و كل رحلة إلى ملك أو سلطان معين هي رحلة جزئية منها.

مكانا مباراً لدي الرحالة كتب عنه بذاتية متفاعلة معه، فصوره بكل ما هو من جنسه، من شدة الحر وقساوة الطبيعة، وجمال المنظر ليلاً ونهاراً، فجاء التشويق ((من حيث تبئير الشيء المراد إبرازه وجعل كل أوعية السرد تصب فيه، مع اتباع خطية مقصودة))¹.

تميز الوصف في السرد الرحلي بتماشيه مع الزمن، وليس كما هو معروف أن الزمن يتوقف عند الوصف، فالرحالة يمشي ويصف ما يشاهده أمامه، نجد فعل التنقل يتقدم الوصف: ((وعلى مسافة نصف ساعة من المنامة غرباً بجنوب أثر تاريخي قائم في ساحة تدعى سوق الخميس، إذا سرنا شرقاً بجنوب من هذا المكان واجتزنا المراقيب، حيث مدافن البحرين القديمة، نصل بعد ساعة إلى الرفاع مدينة الأمراء السابقين من آل خليفة، وحول الرفاع رياض مشهورة أهمها الصخير، تكثر فيها العيون والآبار والنخيل، من الصخير نشرف على جبل الدخان، ولا دخان فيه اليوم لا لبركان ولا لإنسان، هو جبل مستطيل، فيه غار كبير داخله بيت بقباب منحوتة، وإذا استمر السائح شرقاً من الرفاع يصل إلى سترة أو كما يقول البحارنة "حالة سترة"، هم يسمون حالة كل قرية يحيط بها الماء فيجعلها شبه جزيرة، وهي مقبض الشيخ خالد أخي الشيخ حمد بن عيسى، وفيها وفي القرى التابعة لها عيون كثيرة ونخيل وبساتين))².

يربط الرحالة وصفه بتحديد الزمن، وتواصل المسير الذي يدل على قرب المسافة بزمانه المحدد بساعة، وتارة أخرى بنصف ساعة، فالوصف يسير مع الزمن، وعين الرحالة لا تتوقف عن

1 - حليفي شعيب ، الرحلة في الأدب العربي، ص 27.

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج2 ص 727.

رؤية المشاهد وتخزينها في الذاكرة، ثم تخيلها واسترجاعها في صور فتوغرافية، توضح حقيقة المنظر، فينتقل الوصف من السماع، إلى صورة بصرية ذات دلالة، عبر شبكة خيال القارئ.

امتاز وصف الأماكن في الرحلة بجمالية سردية، جمعت مجموعة من المشاهد التي كثيرا ما تكون غير مألوفة، فتعمل الذات على اكتشافها عن طريق المشاهدة وسؤال الرفيق أو الدليل، مستعملا أسلوب المقابلة والمقارنة، حتى يتلمس صور الحسن والاختلاف، مخاطبا بصفة مباشرة المتلقي، المتأثر بالخطاب الرحلي، الهادف إلى تعليمه وإخباره، بما خفي عنه، وأحيانا عاملا على تصحيح مجموعة من المعارف المكتسبة، بما جد عليها من دلالات جغرافية أو سياسية أو تاريخية.

2. وصف الأشخاص:

أ. وصف الحكام:

من الخصائص المميزة في النصوص الرحلية، لقاء الرحالة المتكرر للشخصيات، التي وردت متنوعة بين شخصيات رئيسة، وهي الشخصيات ذات البعد السياسي المتمثلة في السلاطين والملوك، وشخصيات مساعدة لها تمثلت في القواد والأمراء، كما نجد شخصيات تمثلت وظيفتها في مرافقة الرحالة، فكانت دليله الجغرافي، ومؤنسه في الطريق.

أول شخصية زارها الرحالة تمثلت في الملك حسين، حاكم منطقة الحجاز، من أهم مدنها مكة والمدينة، والطائف وعلى البحر جدة وينبع والوجه، أول وصف يقدمه على الملك تمثل في اللطافة والوداعة حين سلم عليه فقال: ((كان يتلطف فيأخذ بيدي لأسير إلى جانبه))¹.

جاء في السرد الرحلي ما يؤكد علم الرحالة بمعلومات سابقة عن حاكم المنطقة، تمثل ذلك فيما قرأه وشاهده في الجرائد والمجلات، فقد رأى صورة للملك لكنها لم تكن معبرة عن حقيقة ملامحه، فعمل على تصحيحها و تقديمها للقارئ، إنه وصف ارتبط بمدح لصفاته الخلقية، من كرم وتواضع وهبة وشرف، ((أجل إن في محيّا الملك حسين سيماء جلال طبيعي لم أشاهد مثله في غيره من ملوك العرب، بل فيه تتجلى روحانية شرقية، قرنت بالتأديب الغربي ولا غرو، وهو من من بني نبي من سلالة الرسول، وقد أقام عشرين سنة في الاستانة، إن في وجهه كما في حديثه إذن عنصرين من الأنس والكياسة مما غابا ويا للعجب في رسمه، الأول أخلاقي نبوي، والثاني اجتماعي اكتسابي، فهو رقيق الأديم صافيه، عدل الأنف دقيقه، له جبين رفيع وضاح، يظهر بكمال بهائه عندما يرفع العقال ويلبس العمامة، وفي ناظريه نور يشع من حدقتين عسليتين تحيط بها هالة زرقاء، وله فوق ذلك ابتسامة ما عرفت أجذب منها للقلوب غير ابتسامة خصمه ابن سعود السلطان عبد العزيز))¹.

اتصف الرحالة بقلمه الأدبي، وحسن تصويره، ودقة ملاحظته، فجاء وصفه مطابقاً لأهداف رحلته، هو يريد مقابلة الملك ويود محادثته، كما يريد زيارة مكة، ويقصد بمكة الكعبة الشريفة، لكننا نلمس صدقاً في كلامه، فقد عرف في باقي كتاباته بالإفصاح، وعدم المسايرة، وذلك يكون حسب فكره وثقافته، إذ يعمل على وصف الشخص كأنك تراه ((وأحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثلّه عياناً للمسامع))²

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 27.

2 - القيرواني أبي علي الحسن ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت لبنان دار الجيل ، د.ط، د.ت، ج2، ص 294.

يلمس في شخصية الملك تراوجا بين ثقافتين، له ثقافة عربية وأخرى تركية، فأخذ من الاثنين ما يخدم شخصيته كملك، له من الأول الخلق النبوي، ومن الثاني الخلق الاجتماعي الرامي إلى كسب الناس، وهذا الأخير يذكره و كأنه غير متضمن في الأول.

يواصل وصفه لينتقل إلى الجانب الخارجي، ليصف الأديم والأنف، والعينان، ليقف على منهج المقارنة فيفضل ابتسامة ابن سعود على ابتسامة الملك حسين، هي صورة إعجاب وتقدير من الرحالة، فجاءت شخصية الملك شخصية مبرة عمل الرحالة على دراستها وتحليلها بإثبات مجموع المواقف الدالة عليها، رابطا إياها بمحيطها الاجتماعي والسياسي، فدل ذلك على شخصية الرحالة التي تتمتع بدقة الملاحظة العينية، والنقد الاجتماعي.

تتابع الوصف خلال السرد الرحلي، فنراه يذكر مجموعة من الأحداث تعمل على ذكر صفات يتمتع بها الملك، كمعاملته للبدو والحضر، وعلاقته مع الإنجليز، كما شمل حديثه على الطرافة التي يتمتع بها الملك وذلك حين دخول الناظر الحضرمي على حضرة الملك وهو معروف عند الملك بخوفه من الضب، فتركه الملك يدخل ثم وضع الضب في حجره فخرج فازاعا خائفا حتى اصدم بالحاجب، فضحك الجميع وانبسطوا، فقد أورد الرحالة هذه الحادثة ليكشف بعضا من شخصية الملك المرحّة.

إن الرحالة جاء دارسا للشخصية من جميع جوانبها، فبعد أن أظهر صفات التواضع والكرم والابتسامة، يتطرق لصفة جديدة تمثلت في تشدد الملك الرافض للتعليم عند الآخر الغربي، وحتى العربي، فقد شاهد الرحالة متسائلا عن أبناء الحجاز الذين لا يدرسون في مدارس خارجة عن

بلادهم فأجابه أحد الوجهاء بأن الملك لا يرضى بذلك، ويرى أي خروج إلى الآخر هو جلب لثقافة تقسد أكثر مما تصلح.

هذه الشخصية التي تتسم بالتساهل حيناً في بعض الأمور، وبالتشدد في أخرى، يغيب عنها التفكير الصحيح، فتشدد حين يطلب اللين، وتتساهل حين يطلب الحزم، ((وإذا ما تساهل جلالته في أمور لا تمس السعادة السرمدية بضرر، كالتأثرات مثلاً أو الدبابات التي يعدها للزحف على الإخوان، أو كآلة لتصفية الماء، الذي جعله الله في أرضه المقدسة مالحة، أو كمعمل لصنع الثلج، فهو لا يتساهل قطعاً في ما يبلبل الأذهان ويفسد الأخلاق، ويخرج العرب ولو قيد فتر عن دين هو كنزهم الثمين في الدنيا والآخرة))¹.

عمل السارد على توظيف شخصية الملك حسين شخصية مشاركة، فقد خص لها مجموعة من المقاطع السردية، وجاءت لغة السارد واصفة للمواقف والمشاهد التي صاحبت شخصية الملك، كما جاءت كتابته تعليقاً على هذه المواقف، عاملاً على إحلال وظيفة السرد التفسيرية، الهادفة إلى إقناع المتلقي، كما تفتح عند هذا الأخير باب التأويل والفهم والربط بين الأحداث.

يعطينا صورة أخرى عن الملك التي تمثلت في حزنه وغيبته على أبنائه، وخوفه عليهم من بطش العثمانيين، يصور لنا هذا الملك الذي تربى في كنف الأتراك ثم أراد محاربتهم ليستقل بحريته وبالحكم في بلاده، ((ملك مغبون، وشيخ في بيته محزون، لا يشكو الزمان ولكن في قلبه من

الزمان حمرة حامية، ولا يلوم العريان، وفي صدره من العريان دملة دامية، ولا يندم على ماتقدم في سبيل النهضة من المساعي والذنوب، فهو النهضة أولاً وآخراً، وهو لا يزال قويا عصياً¹.

كان هدف الرحالة الوحدة القومية، لذا جاء وصفه خادماً لها يتعرف القارئ على صفات الحاكم، ليربطها بموقفه من الوحدة، وكيف ينسجم مع باقي الحكام، هذا ما ختم به الرحالة رحلته الحجازية مبرزاً موقف الملك ومنبئاً عن بعض صفاته ((وقد قال لي يوم ودعته، وهو يقبض على لحيته "إنني لا أبغيها أي الزعامة لا أبغيها ليتفق أمراء العرب عليها و أنا أعتزل ليتفقوا على تأييد الوحدة العربية فأنسحب، إذا شاعوا وأشاركهم بما يتفقون عليه تابعا كنت أو متبوعاً أقول يا حضرة النجيب تابعا أو متبوعاً")².

يصف هذا الملك الذي بدأت سمات الهزيمة تتبادر إلى قلبه، مقرراً الانضمام تحت زعيم عربي لأجل الوحدة العربية، يترك هذا الملك متجهاً لحاكم آخر عرف بنفوذه في أرض العرب، هو حاكم اليمن الإمام يحيى، إن شخصية الحاكم تبدأ بالتكوّن في ذهن الرحالة حينما يكون في طريقه إليه، متمثلاً ذلك في فعل السماع بما يرده من أخبار، وما كان يراه من أعمال رجاله.

يصل عند الإمام فيبدأ بوصف شكله الخارجي، فقد كان ذلك أسلوب الرحالة حينما يرى أي شخصية مقصودة في رحلته، وأحياناً حتى تلك الشخصيات التي تأتي ضمن المسار الرحلي مصادفة، ((دخلنا فإذا نحن أمام رجل ربع القامة، صغير الرجل واليد، أسمر اللون عالي الجبين مستدير الوجه قائمه، له فم كفم الطفل صغير بارز، إلا أن في مرونته وهو يتكلم إشارة تقربه طورا

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 56.

2 - المصدر نفسه، ص 72.

منك وتارة تبعده، وفي عينيه السوداوين القريبتين من أنف قصير عريض نور يضيء، وشرارة في بعض الأحايين روعة، وله لحية قصيرة مستديرة سوداء تتخللها خيوط من الشيب، يلبس قباء من القطن مخططا فوقه جبة ذات أردان من نسج اليمن، ولعمامته البيضاء الكبيرة ذؤابة تكاد تصل إلى أذنه¹.

يكشف هذا الوصف عن شخصية تكتنفها مجموعة من المتغيرات، تجلت في صفات جسدية تمثلت في فم طفل، وشرارة مروعة، كما نجد صفات عن اللباس، عباءة من القطن، وعمامة بيضاء، دلالة على الصفاء وشيء من الزهد، ضف إلى ذلك صفة البطش والترويع، نلمس تقابلا في الأوصاف بين ضياء ووداعة وبين شرارة وترويع، لكن إذا كان كل في مكانه كان هذا موافقا للمنطق، هذا ما يدفع السارد إلى مواصلة الوصف كاشفا حقيقة هذه الشخصية حسب ما رآه وسمعه وجربه.

من خلال تجربته مع الإمام وحواره معه، لاحظ قدرته العلمية في علمه الذي شمل معرفة دينية، وإطلاع على أخبار العالم بما يقرأ من مجلات وجرائد، كما شاهد حبه الكبير لمضغ القات، وكان ذلك منذ أن رآه أول مرة، كان متكئا وأمامه رزمة من القات، وزجاجة ماء، له خادم يختار له منها الطري ويقدمه له.

تتواصل وتيرة الوصف المتماشي مع السرد، لينتقل إلى وصف شمل سلوك الإمام، يظهر أنه لم يُسم سلطانا أو ملكا، وإنما إمام بما تحمله من دلالة لها مرجعية دينية، فيعمد الرحالة إلى تبئير معاملة الإمام له ولرعيته، متبعا وصفا موضوعيا، حتى يحافظ دائما على علاقته بالقارئ،

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 130.

المبنية على مبدأ الصدق، إن الإمام قد يبتسم معك، لكنه يرمقك بنظرة تروّعك، تحمل شرارة غضب، وكأنه يرسل لك رسالة مشفرة تعمل بفطنتك على قراءتها.

يصف مشهدا وقع له مع الإمام وهو في ديوانه، جيء للإمام برسالة قرأها فتغيرت ملامح وجهه وظهرت عليه سمات الغضب، فأشار لهم بيده ليخرجوا ((خرجنا كالمطرودين وبتنا في أمر هذا الإمام حائرين، أبدوي هو إذا غضب وسياسي إذا رغب، وشاعر في ما يجب؟ أعالم مجتهد وحاكم مستبد؟ أغليظ الكلمة ورقيق الشعور يجتمعان في شخص واحد في زيدي؟ هو في أمور الدين والدنيا الحاكم المطلق المعصوم في الاجتهاد الغلط، ولكنه عادل، وفي إقامة الحق لا يميل ولا يحابي، وعند الاقتضاء سمح حلیم إن له في حكمه فضائل أخرى، منها أنه يستشير ذوي العلم والخير من رجاله، وطريقته في الإدارة والعمل منظمة، وقوته على العمل عظيمة مدهشة، رأيته في ليالي رمضان، وقد انصرف جميع كتاب الديوان، يشتغل حتى الساعة الواحدة بعد نصف الليل))¹.

إن صورة العجب والريب في سرده متمثلة في هذه الشخصية، التي تبدو ذات أصول عربية، عرفت بالكرم والشجاعة، وحسن الذوق والحلم، فيتساءل لم هذه العنفوانية في التحدث مع ضيوفه، الذين جاءوا يحملون لواء السلام وخير البلاد والعباد.

من خصائص الرحلة تميزها بنفسية الرحالة، التي تسير السرد في كل مستوياته، فنرى ذلك جليا في وصفه لصفة الخوف، التي رافقته بكثرة منذ عزمه الارتحال إلى أرض اليمن، حيث تميزت بمشاق كثيرة، إذا ما قورنت بغيرها من الرحلات الأخرى، خوف من قطاع الطرق، وخوف من الحواشب ومن الزيود، وخوف حين سئل أحسنني أنت أم حسيني؟، و أخيرا خوف من الإمام، فهو لا

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج1، ص 136.

يعرف حقيقة نواياه، خاصة لما سمعه عنه، ومما أشيع عنهم لدى الإمام ((الناس مشتهون بكم، حتى الذين أكرمواكم يكتبون إلى الإمام ليتحرز منكم، فهل تلك العريضة الطويلة سيرة حياتنا يا ترى؟))¹.

يربط الرحالة بين كتابته وهدفه الأول من الرحلة، فيعتمد إلى وصف سياسة الإمام، التي تبتعد عن الحكمة والعدل في حكمه، فحكمه كان زيديا شيعيا، فابتعد عنه جراء ذلك الشوافع، كما أن شعبه يعيش في ضيق وضنك، يجمع الزكاة لكن لا ينفقها على مستحقيها، ولا حتى على جنوده، الذين وهبوا أنفسهم للإمام، فهو عندهم مقدس وجب طاعته، رغم ما يقاسون عظيم الأهوال جراء هذه الطاعة ((أما اليوم فمهما قيل في عدله الجم، وحلمه الشامل فالشوافع في حكمه غير راضين، والذين في الجيش منهم يحاربون الشوافع إخوانهم مكرهين، ومن المظالم يشكونها أنه يجمع الزكاة والأعشار منهم بالتضمين كما كانت تفعل الدولة العثمانية في الولايات، والأعشار مثل الجلال، مكروه في كل بلاد))².

تمثل هذا الوصف لسلوك الإمام في إظهار النقص في الحكم السياسي، والذي يعمل على التفريق بين أفراد الدولة الواحدة، يعمد الرحالة على التحليل المنطقي، آخذا معطيته من الواقع ومن المشاهد التي عاشها، فهو يعمل على كتابة كتاب يخبر فيه عن ما خفي من سياسة وأخبار عن ملوك العرب، مبرزاً للنقائص حتى يتداركها القوم، هادفاً إلى تحقيق الوحدة القومية، لذا فقد جاء وصفه وصفاً منطقياً تقريرياً تعليمياً.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ص 137.

2 - المصدر نفسه، 149-150.

من هذا الوصف المنطقي، يذكر فعل الإمام ثم ما يناقضه، فيضع القارئ في وضعية مباشرة مع الشخصية الموصوفة، ((فهو وإن كان التكتّم طبعاً فيه، صريح الكلمة في مواقف الثقة والاطمئنان، وهو وإن كان زدياً، يقبل هدية من الانكليز فيركب السيارة، ويأذن بتصوير جيشه النظامي، وهو وإن كان ديمقراطياً في مسلكه الشخصي، يرغب في تلك الأبهة العسكرية التي يسير بها إلى المسجد، ثم يشاهدها من نافذة قصره مرة كل أسبوع بعد صلاة الجمعة))¹.

ثم يصل إلى وصف سمة أخرى في شخصية الإمام، تمثلت في نفوره من السماح بالتعليم خارج أرض بلاده، وقد لمس هذه الصفة عند الملك حسين، زيادة على هذا لا يعمل على فتح المدارس، ويعيش معظم الناس في جهالة، ((و لكنه في حبه العلم لا يحب على ما يظهر تعميمه، لم نر مدرسة واحدة في المدن والقرى التي مررنا بها))²، حتى أنه شاهد كثيراً من الفتيان بدل أن يكونوا في المدارس، فهم وسط الجيش يحاربون كجنود إرضاء للإمام وطلبا للرزق.

يتترك الرحالة الإمام يحيى ويولي وجهه نحو إمام آخر اتخذ من الطريقة سبيلاً إلى الحكم، اتخذ أسلوباً تاريخياً في تقديمه لهذه الشخصية، وكأنه يريد التأصيل لكل شخصية رئيسية في متنه الرحلي، وله في ذلك غاية، حتى يظهر أساس الحكم في الجزيرة كيف بدأ ونما وتطور حتى وصل إلى ما هو عليه، فيدرك المتلقي أسباب بعض الوهن الذي تعاني منه البلاد العربية.

يقدم شخصيته المسمّاة السيد الإدريسي فينتقل من الملك إلى الإمام ليصل عند السيد، الذي يراه متواضعاً في ديوانه وحاشيته، فديوانه عبارة عن قطعة من أرض الله الواسعة تغطيها قبة زرقاء

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، 152.

2 - المصدر نفسه، ص 162.

وتحيط بها أربعة جدران عالية، لا وجود لفخامة السلاطين والملوك، إن السيد أسود اللون لأن أباه من أم زنجية من الحبشة، وأمه هندية، هذا الأمر الذي عابه الرحالة في السلالة الحاكمة وهو سبب من أسباب ضعف الحكم.

يصف لنا لقاءه الأول معه مضمنا وصف الشخصية، ((رأيتني لأول مرة أمام سيد من السود، أمام زنجي يسود مليوناً من العرب، وفيهم ألوف من السلالة النبوية، فسادني لأول وهلة الصمت، ولكنه ما كاد يتكلم مسترسلاً حتى ارتحت إلى حديثه وملت إليه، فرأيتني رويداً رويداً، مكبراً الرجل معجباً به))¹.

يعتمد الرحالة في الحكم على شخصية الفرد من خلال ما يسمعه منه من حديث، تكلم السيد فأحسن فنال مكانة في قلب الرحالة، فعمل على تصحيح صورة قبلية قد تكونت في ذهنه عن هذا الحاكم، نلمس هذا الوصف النفسي الذي يخالغ المشاعر، وكان هذا أسلوب الرحالة يهتم بالوصف الداخلي، وكأنه يريد أن يوضح علاقة الداخل بالخارج، فإذا توافقت كانت الشخصية مكتملة وممتزجة، وإن اختلفا كانت مضطربة ومتذبذبة، لا تستقر على وضع معين.

ثم يصل إلى الوصف الخارجي، متأملاً تقاسيم وجهه، من عيون وأنف ولون، إن الرحالة كان يتمتع بقدرة فنية فقد كان رساماً، هذا ما ساعده على الوصف الدقيق لعناصر الشخصية الموصوفة، ((كان السيد محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن إدريس، رحمهم الله أجمعين، جاحظ العين صغيرها، رفيع الجبين، دقيق الأنف ضخمة الشفة والرقبة، مستدير الوجه، نحيف اليدين، عريض المنكبين، طويل القامة، شديد البأس واللهجة والغضب، لم يكن فيه من ملامح الزنوج

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 338.

البارزة غير فمه، وشكل وجهه، ولونه الشديد السواد، وكان فيه من أثر العنصر السامي الآري - أسلفت القول أن أمه هندية- ما ذكرت، أي الأنف والجبين واليدين، كان يلبس النظارات الملونة لضعف في عينيه، ويجلس متربعا على الديوان، ويتكلم بصوت عال فيه بعض الغنة، وله في الوقفات إشارة تمكين خاصة به كأنه يجر الألف والهاء، ثم الهاء والألف ليثبت ما يقول¹.

يعتمد أسلوب الوصف عند السارد على الوصف المباشر، وهو وصف تفصيلي، يحدد فيه صورة الشخصية، وهو تصوير فتوغرافي، كما نجد الرحالة قد أرفق صورا فتوغرافية لكل حاكم في كتابه، يضعها في أول صفحة من بداية السرد الرحلي، فيكون التعبير على شكلين شكل تخطيطي فني تصويري أيقوني، وشكل تصويري لفظي، إن الوصف يعمل إلى جانب السرد في إيصال المعلومة وتوضيح الفكرة، فالصفات التي حددها السارد تنعكس على صفاته السلوكية، وينجلي هذا في السرد فتبدو شخصية السيد شخصية متزنة، حافظ على منطقة حكمه بكل نباهة وحكمة، وتعامل مع جيرانه بما يضمن له البقاء والاستقلالية، وعمل على توظيف منزلته الروحية بين شعبه وبين شيوخ القبائل، بما ضمن له حسن الطاعة، وجمع الكلمة، ((فالرحلة نص بصري يستند فيه السرد إلى عين السارد إلى الحد الذي تتحول فيه حواسه الأخرى إلى عيون تمارس الرؤية بصرا و بصيرة))².

إن كتابة الرحلة كانت بعد سنتين من فعل الارتحال، فالسارد يؤسس لكتابه مستعينا بالذاكرة، ويتذكر يوم خروجه من عند السيد، وقد ملئ إعجابا به وحبا، ((خرجت من مجلسه و في

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 338.

2 - مودن عبد الرحيم ، الرحلة المغربية في القرن 19، ص 271.

من الرّجل تذكارات كلها حب وإعجاب، وهي اليوم، وأنا بعد سنتين أعيد ذكرها لا تحرّك في غير الإعجاب و الحب))¹.

إذا ما عملنا على المقارنة بين وصف الرحالة للسيد ووصفه للإمام يحيى، فقد عمل على اتّباع الحكمة والروية، للسيد، وللإمام الأثانية وحب الذات، يصف أخلاق السيد قائلاً: ((وأول ما يروقك ويطربك من السيد محمد لسانه العربي الفصيح المجرد عن الاصطلاحات واللهجات المحلية، ثم وقفاته في الحديث وكلمته-إها- في التمكين والتنشيت، وأول نظرة في مواهبه وأخلاقه، تريك أنه ذكي الفؤاد شديد العارضة، حصيف حكيم، وهو ساذج كريم الأخلاق، لا أثر للروحانيات في وجهه))².

يدعم الرحالة سرده بالوصف الداخلي، الدال على بصيرة التفحص في الشخصية الموصوفة، وهي صفة لازمة للرحالة، فهو إذا لم يتمكن منها تصبح رحلاته ناقصة، لكن سرده يحوي الأخبار بكل أنواعها وتفاصيلها، وكأنه لا يريد ترك مجال للقارئ أن يطرح فيه سؤالاً، خاصة فيما يخص الإطار الدائري للنص الرحلي.

يدخل الرحالة سلطنة لحج ليذكر ثلثة من سلاطينها، من بينهم السلطان عبد "الكريم فضل"، الذي يصفه بالعربي الصميم في حديثه، لكن في ملابسه فهو هندي أوروبي، فيعمد إلى الوصف الخارجي قائلاً: ((هو نحيل الجسم مستطيل الوجه، دقيق الأنف غائر العين، عصبي المزاج وهو

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ص 342.

2 - المصدر نفسه، ص 342.

في الخامسة والأربعين من العمر، لكنه يظهر أكبر من ذلك لما في وجهه من تجعد و قَتَام، ولما قاساه أثناء الحرب من الشدة والأحزان))¹.

بعد هذا الوصف الخارجي ينتقل إلى الوصف الداخلي المتضمن نمط فكر السلطان وأحاسيسه، وذوقه الفني والأدبي، ((فهو والحق يقال أقرب إلى الأدب والزراعة منه إلى السياسة والغدارة، له ذوق في الموسيقى، ويحسن بعض الإحسان والعزف على البيانو، وله رغبة في المطالعة فيهتم خصوصا بتاريخ العرب والإسلام، وهو مثل السلطان أحمد شغف بالزراعة، يقضي ساعات من يومه في بساتينه، لذلك قيل فيه على ما أظن إنه قليل الإكتراث ضعيف الإرادة، وقد يتخلل عزمه وهو عصبي المزاج، فترات يسيء الناس فهم أسبابها ونتائجها))².

يحلل السارد شخصية السلطان مظهرها العلاقة بينه وبين السياسة فيجده فيها أبعد، مقربا إياه من الزراعة والموسيقى، إضافة إلى هذا فهو مزاجي سريع الغضب، وهذا ما لا يليق حسب رأي الرحالة بصفات السلطان، الذي يجب أن يتمتع بالبصيرة والتروي، وحسن المحادثة مع الرعية.

ينتقل الرحالة إلى سلطان عربي له من المجد ما خلدته آثاره في الجزيرة العربية، متمما ما بدأه أجداده في نجد، هو الذي احتل مدينة محصنة بثلاثين رجلا، هو السلطان عبد العزيز آل سعود، هذا السلطان الذي أكبره كثيرا الرحالة وأعجب بشخصيته كثيرا إذا ما قورن بباقي الملوك، لكنه يقدم لنا برهانا منطقيا تجلّى في تصرفات وأعمال هذا السلطان مع شعبه وأعدائه من العرب، وحكمته السياسية في تعامله مع الإنجليز.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 424.

2 - المصدر نفسه، ص 425.

فإذا ما تتبعنا مسار الوصف في السرد المخصص للرحلة النجدية، لوجدناه يصف شكل السلطان وطريقة حديثه، ولباسه، وطريقة تفكيره وسياسته، وربما ما يزيد من إعجابه به أنه كان يدرك بعضاً من قوته، وأنه قادر على السيطرة على كثير من أراضي الجزيرة العربية، ويكون له نفوذ كبير عند الدول المجاورة وعند الغربيين.

يبدأ الرحالة بالإخبار عن كيفية دخوله إلى نجد، واصفاً الطريق والرفيق، وما رافق ذلك من مشقات ومصاعب، وما سمعه من صفات عن السلطان قيل: ((ابن سعود بدوي جاهل، ابن سعود جلف، لا قلب ولا دين له، هو من الخوارج بل من الذين يخدعون وينافقون باسم الدين))¹، ينسب هذا الكلام لأهل الحجاز، وصف لأخلاق السلطان ورد إليه سماعاً، كما سمع أنه ((رجل كبير هو نابغة بلاده، هو السياسي المحنك والقائد الباسل، والحاكم العادل، هو أكبر أمراء العرب اليوم وأقواهم... رجل عظيم رجل نجد، هو ابن البادية التي ينبغ فيها من حين إلى حين كبار الرجال، فيظهرون فجأة ويسودون الناس بالعقل، قبل أن يسودوهم بالسيف، هذا ما كان يقوله الانكليز وبعض العرب خارج الحجاز والعراق))².

هي صورة قبلية التقطها الرحالة عن طريق السماع، فجاءت مدعمة للغة السرد، لكن الرحالة مفكر باحث عن الحقيقة، يقول هذا الكلام وهو سائر إلى هذا السلطان، ليعرف حقيقته، يحتل الوصف في الرحلة محل الإخبار والمعرفة، ويتخذ الرحالة وسيلة لمواصلة السرد، كما يعتبر خطاباً موجهاً للقارئ الذي يتخذ له أسلوب التشويق للإبلاغ.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 511.

2 - المصدر نفسه، 511.

ينتقل الرحالة إلى الوصف الخارجي للسلطان راسماً له صورة فتوغرافية، بعد أن قابله وتجاوز معه في قضايا الوحدة العربية، وسبب مجيئه، وهدفه من الرحلة ((السلطان عبد العزيز طويل القامة، مقتول الساعد، شديد العصب متناسق الأعضاء، أسمر اللون، أسود الشعر ذو لحية خفيفة مستديرة، وشارب يقضه على الطريقة الوهابية، له من السنين سبع وأربعون، وله في التاريخ -تاريخ نجد الحديث- مجد إذا قيس بالأعوام تجاوز السبع والأربعين والمئة، يلبس في الصيف أثواباً من الكتان بيضاء وفي الشتاء "قنابيز" من الجوخ تحت عباءة بنية، وهو ينتعل، ويتطيب، ويحمل عصاً من الشوحط، طويلة يستعين بها على الإفصاح عن آرائه، على تشكيل كلماته، إذا صحت الاستعارة وتمكينها، إن له في الحديث غيرها من الأعوان، له أنامل طويلة لدنة يشير بها في مواقف البلاغة، وله عينان عسلتان تنيران أماكن العطف واللفظ ساعة الرضى، وتضمرمان في كلامه ساعة الغيظ نار الغضا، وله فم هو كورق الورد في الحالة الأولى، وفي الحالة الثانية كالحديد، يتقلص فيشتد، فهو إذ ذاك كالنصل حدا ومضاء))¹.

شمل الوصف الخارجي الفتوغرافي، صورة السلطان التي استعان فيها ببعض المجاز المتمثل في الاستعارة والتشبيه، ليقرب الصورة من القارئ، عمد إلى وصف تقاسيم الوجه، وذكر الملابس المتمثلة في العباءة والنعل، كما أشار إلى نور عينيه الرامز إلى اللطف والعطف ساعة الرضا، وإلى نار الغضا ساعة الغضب، والفم هو في اللطف كماء الورد وفي الغضب نصلاً حاداً.

تعود دقة هذا الوصف إلى طول المعرفة التي اكتسبها الرحالة من خلال إقامته مع السلطان، ورؤيته لمشاهد وحوادث، عملت على تثبيت صورة السلطان عنده، فالذات المرتحلة كانت

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق، ج1، ص 537.

تحمل أفكارا عن السلطان، ثبتت بالمشاهدة فكانت المعرفة البعدية ماحية للمعرفة القبلية، فالصورة المكونة هي صورة أدبية، ((فالوصف إذن غايته أن يعكس الصورة الخارجية لحال من الأحوال أو لهيئة من الهيئات فيحولها من صورتها المادية إلى صورة أدبية، قوامها نسج اللغة وجمال تشكيل الأسلوب))¹.

بعد الوصف الخارجي يعود ليصف لنا بعض عاداته المتعلقة بشخصيته، فيما يخص نومه وهيئة سفره، والعدة التي يحملها معه، فقد كان الرحالة كالمراقب الفطن الذي لا يغفل عن أي شيء، هي عين الرحالة التي لا تريد أن تضيع أية لحظة تستفيد منها فتكون لها معنى يصاغ بلغة تجمع بين التأريخ والإخبار والمتعة ((والسلطان عبد العزيز مثل كل أعرابي ينام على الفراش والسجادة في الليل، ويضعهما تحته على الكور في السفر، وهو لا يحمل شيئا في جيبه، لا ساعة ولا قلما ولا ذهباً ولا فضة، ربما لا يكون في ثيابه جيوب البتة، إلا أنه يحمل ساعة في خرج عند السفر، ويضعها تحت الوسادة عندما يقيم في مكان، يحملها في الصندوق المخملي الذي جاءت فيه من المعمل، ويحمل كذلك ناظورا كبيرا لا غنى له عنه، فهو دائما يراقب من مجلسه حركات رجاله وخدامه حتى إنه لا تمر غيمة في الأفق إلا رفع إليها الناظور متيقنا متنبئا))².

جاء في وصف الشخصيات ما يحمل الرحالة على وصف ذاته، وكأنه يعيش في لحظة ما نفس الحالة التي تعيشها شخصيته الموصوفة، فتتوحد بذلك المشاعر والرؤى، ويجد الرحالة نفسه مع آخر يوافقه بدرجة كبيرة، يصف لنا حالة جمعته مع السلطان اختار لها زمن الليل الدال على

1 - مرتاض عبد الملك ، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة العدد 240، ديسمبر 1998، ص 245.

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج2 ص 540.

السكينة وعلى الهدوء، ماشيا على الرمال حافيا، ويده في يد السلطان ((وسرت والسلطان عبد العزيز، وقد نزعنا نعالنا، نتمشى وبدي في يده، حفاة على الرمل-على الرمل البارد المنعش، تحت النجوم القريبة البريق، الدافئة الضياء فأحسست إذ ذاك بأن ما يقربني من هذا الرجل ويقربه مني ليتجاوز القيافة، والإشتراك ذوقا ببعض العادات))¹.

وظف السارد اللغة، في صيغة الوصف، الذي يعد العنصر الأساسي في بناء النص، فقد شمل شخصيات واقعية التقاها الرحالة، وعاش معها أياما فجاء وصفه واقعيا، عاملا على التحليل والمقارنة بين حالها وبين محيطها، ثم مستنتجا لما يراه صوابا فمثبته، وما رآه سلبيا يرفضه، معتمدا في كتابته على ذاكرته وما كتبه من مذكراته، ويحاول إعطاءنا خلاصة عن السلطان، مشيرا بأنه أخذها من مذكراته، فقد قال أنه كان عندما يخلو إلى نفسه يخرج مذكرته ويدون عليها الأخبار والمشاهدات حتى لا تضيع، ففكرة التدوين كانت عنده فكرة مسبقة.

يقول في السلطان: ((مهما قيل في ابن سعود فهو رجل قبل كل شيء، رجل كبير القلب والنفس والوجدان، عربي تجسمت فيه فضائل العرب إلى حد يندر في غير الملوك الذين زينت آثارهم شعرنا وتاريخنا، وتجسمت فيه كذلك من آفاتهم ما لا يحاول أن يخفيه رجل صافي الذهن والوجدان خلو من الادعاء والتصلف، خلو من التظاهر الكاذب))².

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 542..

2 - المصدر نفسه، ج 2 ص 542.

ب. وصف الشخصيات المرافقة:

يعمل الرحالة عند عزمه على الارتحال في اصطحاب من يرافقه، وذلك يعود إلى طبيعة الرحلة، فإذا كانت رحلة حجية كان مع قافلة الحجاج، وإن كانت علمية أو سفارية، أو سياحية اختار من يناسبه ويوافقه، كما قد يلتقي في الطريق من يصحبه لفترة معينة، وقد يكون من هؤلاء الرفقة من يتصف بالدليل، مرشدا الرحالة إلى الطريق، ويعتبر بمثابة المساعد له على أداء مهمته.

من رفقاء السفر الذين صرح بهم الرحالة صديقه قسطنطين يني، الذي كان يعمل عند الملك حسين، فكان هو المعين الأول على الرحلة، ولم يكن مرافقا فقط بل مساهما في تنظيمها وعاملا على تذليل مجموعة من الصعوبات، التي واجهت الرحالة في مساره.

بالرغم من مرافقة قسطنطين للرحالة في جزء كبير منها إلا أنه يذكره في مواقف قليلة سأحاول ذكرها، حيث يظهر فيها السارد بعض صفاته فيقول عنه عندما جاءه في صفة رسول من قبل الملك حسين: ((كان صديقي قسطنطين يني هذا الرفيق السميع الرسول، فجاء في اليوم الثالث بعد وصولي يحدثني بالألقاب، فذكرته بأيام الفريكة والعزلة في الوادي))¹.

ولما عزم الخروج إلى اليمن، طلب من الملك حسين أن يسمح لقسطنطين أن يرافقه في رحلته، فقد كان الرفيق الوحيد الذي يتناسب مع رحلته، لعلمه بأمور السياسة والدولة، كذلك لعلمه بمسالك الطريق، وخبرته بسكان المنطقة، كما كان على دراية بشؤون السياسية التي تخص الإمام يحيى، لأنه كان في ديوان الملك، كما يعتبر صديقا قديما له، ((جئت إلى جدة واجتمعت فيها

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ص 42.

بصديقي القديم قسطنطين يني، وخطر لي أن لا بأس، بل لا بد في السفر إلى جبال اليمن من رفيق، فسألت جلالة الملك حسين أن يأذن لقسطنطين أن يرافقني فأجاب تلطفاً سؤلي، فسافرنا متوكلين على الله، أنا في ثياب إفرنجية وعقال أحمل جوازا أمريكيا، وهو في ثوب ملازم في الجيش الحجازي، يحمل جوازا حجازيا))¹.

يصف السارد طبيعة الخوف أثناء الرحلة، خاصة أنه حذر أكثر من مرة من السياحة في أرض اليمن، يصف حاله وحال رفيقه قائلاً: ((خرجت وقسطنطين مسرعين فركبنا وسرنا نتقدم الحملة، نزلنا من الجبل إلى السهل فالنهر وقلبنا-أقول وقلبي ولا أتهم رفيقي- يختلج حنقا ورعبا، ظننا أننا بعدنا عن الخطر وعن ضيافة صاحب السمو الحوشي عندما وصلنا إلى النهر، ولكننا قبل أن اجتزناه سمعنا أصواتا تنادي: قفوا، قفوا فلم نقف، فأطلقوا إذ ذاك البنادق طلقات متعددة، فقلت لرفيقي، هو ذا الخطر الذي نتوقعه، دنت الساعة يا قسطنطين، قف وأشهر سلاحك))².

كان قسطنطين أديبا شاعرا، وهذه صفة أخرى قربت بين الرحالة و رفيقه، وما يدل على شاعريته، أنه كان يكتب القصائد منها قصيدة مدح فيها الإمام يحيى، لكن الرحالة السارد لم يطلعنا على محتواها، إلا أنها لاقت ترحيبا من طرف الإمام.

كما كان قسطنطين سببا في جلب خادم معه كان سببا للفرجة والتسلية في الطريق،((كان للرفيق قسطنطين خادم مدني وهو ولد صغير نشأ في كنف الأشراف بمكة، فما اكتسب غير

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1 ص 79.

2 - المصدر نفسه، ص 96.

المشاكسة والمكابرة، وما كان رأس ماله في الحياة غير رأس من حديد ولسان ذي حدين، استصحبه الرفيق، فكان أضحوكة الطريق، وأعجوبة الخطر والضيق¹.

حين اقترب الرحالة من مدينة جيزان، مريدا ركوب الباخرة جاءه نبأ فراق صديقه ورفيقه قسطنطين، الذي جاءتته رسالة من جدة يستدعونه إليها، يصف لنا هذا الفراق فيقول: ((فجعت في الحديدة بفراق القسطنطين، فقد وصله كتاب من جدة فيه أن الوزير الشاعر في الديوان الهاشمي لم ينظم بيتا في غيابه، وإن الفارس القيلسوف في القشلاق لم يسحب السيف مرة من نصابه، وإن نظارة الطيران المكسرة الأجنحة، والطيارين يائسون، وأن مدير البناء هجر الشارع وراح يرمى الإبل، وإن الشريف الإيطالي الذي استودعه ماله فرّ هاربا، وإن "توتو" كلبته المعبودة وقد أضناها الشوق والنوى، مشرفة على الموت: فلو لم يكن من نكبة جدة في غيابه غير ما حل بتوتو لكفى بها نكبة تستوجب رجوع الرفيق الزعيم في الحال))².

نلمس أسلوب السخرية المتمثل في وصفه لفراق صديقه، وكأنه لا يلتبس له عذرا في هذا الفراق، فكل ما ذكر يدل أن هناك أمرا آخر جعل الرفيق ينسحب، قد قال الرحالة أنه كان يريد تقديمه للسلطان عبد العزيز آل سعود فينال مكانة في نجد، لكن هو خادم عند الملك حسين، والاتتان عدوان، وكذلك السيد عدو للملك، ربما كان هذا سببا في تخلي قسطنطين عن صاحبه.

بعد أن فارق قسطنطين الرحالة حلّ محله رفيق آخر هو فضل الدين الوكيل السياسي في الحديدة لدولة بريطانيا، وسفيرها إلى السيّد الإدريسي، فتوافقت أهداف الرجلين لزمان ما، كما كان

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 158.

2 - المصدر نفسه ، ص 323.

هذا الأخير عمل على مساعدته في الوصول إلى السيد الإدريسي، يصفه لنا في فترة زمنية صادفت يوم عيد الفطر: ((وجدته صباح العيد جالسا على العرش معتما بعمامة هندية وافرة، طويلة الذؤابة، باهرة الألوان، وبيده سفر انكليزي في الفطريات كان يترجمه إلى اللغة الهندستانية،.....الدكتور محمد فضل الدين رجلا مثل كل ذي فكر وعلم وحجى، رجل يعرفه الناس و الحكومة البريطانية، و هو الملازم فضل الدين من أطباء الحكومة الهندية: ورجل لا يعرفه غير الخاصة من الناس و هو محمد فضل الدين من لاهور في الهند ومن كل مكان في الفلسفة الروحية))¹.

يصف هذا الرفيق الجديد، الذي يشغل وظيفة سياسية تساعد كثيرا الرحالة في مهمته، كما أنه ذو علم واسع وقد خبر هذا الرحالة بنفسه، قد كان هذا الرفيق طبيبا، وفيلسوبا في الروحانيات، وهنا أيضا قد لامس الرحالة شبها آخر بينه وبين رفيقه، فزادت الصلة وتوطدت العلاقة، ((إن في شخصية فضل الدين الروحية والعقلية من الأدب الشرقي ما هو مزيج من الإسلام والصوفية، بل في عقيدته الإسلامية شيء من الأسرار البوذية والغوامض الهندية، ولا عجب إذا ظل هذا الأساس الهندي وهذا الظل الآري في عقيدة الهندي المسلم المستتير، كنت أشعر وهو يتكلم عما يفهمه بالإسلام، دين التوحيد ، أني مثله مسلم، وكنا عندما نصل إلى ذروة الوحدة الكلية نشعر بما حولها من الفيوضات الكونية الإلهية فنتأكد إننا واحد في الشك واليقين))².

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ج1 ص 280.

2 - المصدر نفسه، ص 285.

يتخذ الرحالة من الوصف الداخلي أسلوباً في الولوج إلى عوالم الشخصية الموصوفة، فيحاكي فيها فكرة الدين والتدين، الفكرة التي شغلت بال الرحالة المفكر كثيراً، فراح يجوب البلدان العربية، ليفهمها ويرى كيف يفهمها الناس، حاملاً إياهم على التساهل وعدم التعصب لتحقيق الوحدة القومية، ويجد شخصية تتفق معه فيما يرى، فانعكست شخصيته على هذه الشخصية فصار يري فيها أفكاره وأهدافه، فتوافقت بذلك الطريق والفكرة. ((لم تعد مهمة الوصف تتمثل في نقل سمات وصفات وخصائص الموصوف المرجعية، بقدر ما صارت تتركز على الإيحاء بالأبعاد النفسية والفكرية التي تسقطها الذات على ما يحيط بها من الأشياء، والأماكن وغيرها))¹.

مما لوحظ في المتن الرحلي أن الرحالة انتهت صحبته مع فضل الدين، حين انتهى من رحلته الإدريسية، ولم يخبرنا عن كيفية الفراق، ليدخل الرحالة بعدها منطقة لحج زائراً سلاطينها، ومتمماً مهمته القومية، ولم يذكر رفيقه في لحج، فقد كان برفقة السلطان عبد الكريم فضل، وأخيه أحمد.

يفصح الرحالة أيضاً في رحلته عن مصاحب له ودليل آخر في صحراء نجد بين الدهناء والنفوذ، إنه مسفر ((ومن هو مسفر، وما هو وعده؟ هاك الخبر ولا أظنك تأبى التعرف إلى الرجل وقد تشاركني في حبه، مسفر مدير الحملة، ورئيس الخدم، والعين الكالئة للزاد، واليد الذابحة العاملة في سبيل البقاء، مسفر هو النفاخ الطباخ، راعي الفأس والفراخ، حامل الخناجر والسياخ، وهو في شكله نكتة مضحكة قد لا تليق في مجالس المتمدنين، وفي وجهه أقرب إلى الرياح منه

1 - محيد سايمه، شعرية اللغة الروائية في ذاكرة الجسد، رسالة ماجستير، إشراف د.نادية تيجال، المدرسة العليا للآداب والعلوم الإنسانية، بوزريعة الجزائر، ص 38.

إلى يوسف الحسن، وجه مسفر هو من يصفون في نجد بالعَفِن، وهو يظل عفنا حتى ولو غسله بالحامض الفينيك، ثم بماء الورد صباح مساء، فهل يصلح الماء والكيمياء أنف تسطح على خديه، وفما تطاول إلى أذنيه، وجبينا داس بشعره حاجبيه، وعينبا جاءت من القرد إليه¹.

يصف مسفر طباح القافلة، ورئيس الجمال التي تحمل الزاد والمتاع، هو وصف خارجي، اعتمد فيه السارد على التشبيهات حتى يحدث في المتلقي تأثيرا بالغا ويحقق له صورة مقربة، مقتفيا أسلوب السخرية لأجل الإمتاع والتسلية، ((وهي نوع من الضحك الكلامي أو التصويري، الذي يعتمد على العبارة البسيطة، أو على الصورة الكلامية مع التركيز على النقاط المثيرة فيها، وتحاول السخرية التخلص من الإنفعال في الظاهر، فتبدو كأنها لا تنبعث عن عاطفة ما عند قائلها لأنها تخاطب العقل، وتسعى إلى أن يكون الجو حولها مشبعا بالإدراك والوعي، حتى تستطيع أن تثير الضحك السريع))².

تثير هذه الشخصية انفعالا في الرحالة، فتحرك قلمه واصفا له من جميع مظاهره، فيوجه بصره نحو ملابسه التي يرى فيها أثرا للقدم وللزهد وللبلادة، ومنبعا للضحك والراحة ((أما في ملبسه فهو آية في البلاغة والإبداع، لا يعرف أنجدي هو أم حجازي، أيمني أم عراقي، بل لم يكن عربيا في غير الغطرة والعقال، أضف إلى ذلك حذاء مرقعا تخض رجله فيه، وسروالا كان أبيض،

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج2، ص 627.

2 - د. الهوال حامد عبده ، السخرية عند المازني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، 1982، ص 16

لا نظنه غسل في عهده ولا في عهد أبيه، فوَقَه معطف فيه الخناجر والسيّاح، إلا أنه عندما يركب على بعيّره الأسود فوق أحماله، يبدو ككيس من الأكياس¹.

يجد السارد في هذا الوصف الساخر نوعاً من الراحة النفسية، كما إنه يعمل على إدخال شيء من السرور على القارئ، حتى لا يمل من القراءة، كما يعمل على الإفادة، فقد أعطى صورة مفصلة عن مرافق له في القافلة النجدية، وكأنه يرتاح فيها مما ذكره من وعثاء السفر، ومشاقه في الصحراء.

يعمل على أن يكون عادلاً مع الرجل فيبعد الوصف الخارجي يعود للوصف الداخلي، الذي يصف فيه وجدان مسفر، وصفاء نفسه وتقانيه في عمله، من أجل راحة مرافقيه: ((أما في باطنه فسبحان رب الكائنات، النافخ من روحه حتى في عجائب مخلوقاته، إن في ذاك الوجه العفن مبسماً ولا مبسم الحسان في جاذبه، مبسماً يوقفك ويغريك، ويضحكك ويلهيك، مبسماً ينسيك الفم منه والأنف والجبين، بل ينسيك الرياح، وضلوع الأسياخ))².

إن الرحالة السارد يمتاز بقوة ملاحظته، وخياله الواسع في التصوير، فيحاول المزج بين خياله وواقعه، والشخصية الموجودة أمامه، ملطفاً الجو، وملامساً ذات القارئ، محضراً مجموعة من الصور في ذهنه، مختاراً منها ما يناسب المقام، كما نلمس تناسلاً للسارد بينه وبين المقامات التي تصف بطلها بصور ساخرة تدعو إلى الفكاهة والتسلية، فشخصية مسفر ليست شخصية مضحكة بطبعها، لكن السارد رأى فيها ملامح الضحك فأخرجها في أسلوب أدبي شيق، ((لا يوجد في

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج2 ص 627.

2 - المصدر نفسه، ص 627.

الطبيعة شيء مضحك، من ناحية نوعية قاطعة، فإثارة الشيء للضحك تتوقف على طريقة نظرتك إليه، أو بالأصح على ماذا يمكنك أن تجعل منه¹.

3. وصف الأشياء:

حوى المتن الرحلي وصفا لمجموعة من الأشياء، ظفرت بملاحظة الرحالة، ويرجع ذلك إلى الحالة الاجتماعية والفكرية والنفسية التي تحيط به، فإذا كان مقبلا على أمير أو ملك، فيكون بصدد وصف ما يوافق المكان من قصور وملابس وديوان، وإذا كان في السير وسط الركب وصف الجمال والأشجار والوديان، كما وصف الطعام عند الأمراء وعند غيرهم، و له في ذلك أسلوب معين تحفه الطرافة والإبداع.

أ. وصف القصر:

يصف قلعة نزلوا بها حين كان قاصدا زيارة السيد الإدريسي، وهي قلعة خارج بلدة جيزان قريبة من البحر يقول: ((والقلعة هذه نصفها قديم هندسته يمانية، أي أنه ضخم البناء رفيعه صغير النوافذ قليلها، والنصف الآخر جديد بناه السيد مصطفى الإدريسي، وأعدّه للضيافة التي يليق بها، فهو يشتمل على عدة غرف كبيرة ترقص فيها الشمس ويلعب فيها الهواء والغبار، وعلى حرشين الواحد ضمن الآخر، وحمام ومائدة إفرنجية، وسطح مسور جميل²)).

1 - شرف عبد العزيز ، الأدب الفكاهي، ط.1، لونغمان، الشركة المصرية العالمية للنشر، 1992، ص 5.

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1 ص 334.

كما يصف قصرا آخر دخله حين كان في منطقة لحج عند سلطانها عبد الكريم فضل، فيقول: ((ثم صعد بنا إلى ردهة الاستقبال في الطابق الأول، وهي رحبة أنيقة جليلة، يدخل إليها نور الشمس في جلبات من النقوى يلبسه إياه الزجاج الملون في النوافذ، -كأنه من كنيسة مسيحية- و تطفه السُجف البيضاء المخرمة، كأنها من قصر انكليزي، إن في هذه القاعة مجلسين افرنجيا وعربيا، فرش الأول غربي الشكل إلا أنه من صناعة الهند، تحتل زاوية منه آلة الفوتوغراف وفرش الثاني دواوين عربية تقطعها المساند والوسائد، وهناك بين المجلسين طاولة عليها مجلدات ضخمة هي شرح البخاري، ذاك السفر الجليل المدهش الفريد في بابه، الممتاز بالشروح الثلاثة للكلمة النبوية، أي شرح شرح الشرح، ولا يجوز ذكره بغير الإجلال كامل الأسماء، فهو القسطلاني على صحيح البخاري، والخزرجي على القسطلاني، والإمام النووي على الخزرجي))¹.

نلمس الوصف التفصيلي، لهذا المكان الدال على الفخامة، فهو مسكن للسلطان، الذي يتفنن في اختيار تأنيثه، وألوانه، كما ركز على صفة أساسية تمثلت في نور الشمس، الذي يجده في كل قصر، معتمدا على أسلوب المقارنة بين الغربي والعربي، فهذه سمة لصيقة به في ذاته مزج بين الاثنين، كما يشير إلى كتاب شرح البخاري، الذي عد له مجموعة من الشروح، وهو ذو قيمة كبيرة وله مقام رفيع، يذكره وكأنه قطعة من القصر فلا أهمية للقصر دونه.

ب. وصف الفسطاط و الشمس:

هناك أشياء تجلب بصر الرحالة، فتفوز بكلمات في منته الرحلي، توجه بصره إلى فسطاط الملك عبد العزيز آل سعود، حين كان في الصحراء، وكأنه يخبر القارئ أن الملك رغم وجوده في الصحراء، فأبهة الملك تابعة إياه، يصف هذا الفسطاط التي كانت خيمة الرحالة قريبة منه، ((الفسطاط السلطاني الكبير ذي الأبواب الأربعة التي يفتح ويقفل بعضها وفقا لمهب الريح، ولرغبة سموه في الهواء، كان الفسطاط مفروشا بالطنافس وفي الصدر فراش فوقه سجادة فخمة، ورحل يقسمه إلى مجلسين، مجلس السلطان-عرشه- ومجلس آخر لمن يكرم إكراما خاصا من الضيوف))¹.

إذا كان الفسطاط يقام في الصحراء، ويطلب فيه الهواء، فكذلك هو معرض لحرارة الشمس، هذه الحرارة التي صاحبها الرحالة كثيرا، فاعتاد عليها واعتادت عليه فصارت حبيبته التي لا تفارقه، فتفوز هي أيضا بفضاء لا بأس به في كتابه، قد خبر الشمس في عدة أمكنة من خلال زيارته للحجاز ولليمن وللعراق حتى في المكسيك، لكنه لم يشهد شمسا كشمس جيزان يقول: ((فما وجدت حرا جامعا محاسن الحر كلها، وفي أعلى درجة منها مثل جيزان، إن الشمس هنا قريبة جدا منك، كأنها على الأرض تشتعل فترسل أشعتها عكسا إلى كبد السماء، بل كأنها حبيبته تشاركك في الحياة، فتجلس على ركبته تقبلك في فمك قبلة تدوم دون انقطاع اثني عشرة ساعة، وإذا نظرت إليها وأنت تلجأ إلى الماء منها تراها ترقص في هواء كأنه حجاب من الشاش الهندي الأبيض،

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ج2 ص 539.

فتبدو أشعتها فيه كخيوط الفضة ساعة الظهر، وكالوهج الأصفر ساعة الأصيل، فترفع يديك إلى عينيك لتقيهما سهامها الذهبية))¹.

إن أسلوب التشبيه مائل في الوصف، فالسارد يعمل على تحويل الصور المجردة إلى صور محسوسة حتى يقرب الصورة من المتلقي، فيتخذ لذلك أمثلة واقعية، شبهها بالنار المشتعلة، وبالحببية حين تقبلك في فمك، وبالحجاب الهندي الرقيق، وبخيوط الفضة، هي كلها صور للشمس لها في كل منها دلالة.

ج. وصف الطعام:

إن الطعام من الحاجات الضرورية للإنسان، وهو يختلف من منطقة لأخرى، حسب البيئة والثقافة، وبما أن الرحالة تتقل وسط فضاءات مختلفة، داخل الجزيرة العربية، يصف لنا طبقاً كان يقدم إليه وهو في ضيافة السيد الإدريسي، ((وما كنا نخشى مثل ساعة الظهر خطباً، ساعة يجيء الخدم من بيت السيد السنوسي وعلى رؤوسهم الأطباق، وفي مقدمتهم طبق عليه غطاء، وتحت الغطاء الرأس المقطوع، فنجلس إلى مائدة شيخها هذا الذي كان منذ ساعة حياً وقد حشي بالأرز والبيض والزبيب، وفي الوسط الرأس ينظر عفاً إليك، أخرجني والله وحبب إليّ التحس في مذهب الهندوس))².

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ج 1 ص 344.

2 - المصدر نفسه ، ج 1 ص 345.

يصف طبقاً من الطعام يحمل شكلاً معيناً يتوسطه اللحم المحشي بالأرز والزبيب، لكنه لم يشر إلى نوعية اللحم، ينظر إليه بعين الشفقة حتى تمنى أن يكون هندوسياً لا يأكل اللحم، ونجد أمنيته تتحقق حين يدخل الكويت، فينتقل إلى أكل البقوليات والخضر، ليجد فيها راحة و هناء.

يذكر الألوان التي تزين الطعام، فهو أيضاً ثقافة تدل على شخصية الفرد، يصف طبقاً من أطباق الكويت، التي تضم فنون الحلوى والسّمك وما شابه ذلك، يقول: ((نحرت الألوان نحر العاشق المشتاق، وخصصت بالإسراف بندورة الكويت التي يشحنون منها إلى البصرة، وهي صغيرة مدملكة، يطبخونها بقشرها دون أن تمسها السكين، ثم سمك الكويت المشهور الذي يشبه سمك المشط في طبرية، ولكنه أرق و أدم، ثم أصناف الحلوى، وما أشد حلوها وأكثر سمنها وأسرارها))¹.

تمثل هذا الوصف في ذكر أنواع الأكل وكيفية تقديمه، ليعود مرة أخرى يصف لنا فضاء الطعام المقدم في الطبيعة، وعلى الهواء، كان هذا خلال زيارته للعراق، وملاقاة الملك فيصل بن الحسين حين دعاهم أحد الملاك الكبار لمأدبة غداء، ناحية شرقي بغداد على نهر ديالى ناحية بعقوبة، التي تعد جنة العراق الشمالي يقول: ((نصب السرادق بين أشجار الليمون والرمال، وفرش الطريق إليه بالسجاد، ومدت المائدة تحت النخيل المزين بالذهب والياقوت من التمر، وكان الهواء مفعماً بطيب الرياحين والأزهار، والطيور تغرد على الأفنان وفي مخبات الأدغال، والكرم مثقلة

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج 2 ص 657.

بأفخر العنب المتعدد الأنواع والألوان، "والمس بل" تروح وتجيء حاملة غصنا من الرمان أو عنقودا كبيرا من العنب، فتقدمه جاثية لجلالة الملك¹.

هي الطبيعة المرافقة للطعام، نعتبره وصفا خارجيا للطعام، هي ثقافة معينة أراد الرحالة أن يفهمها ويختبرها ثم يبلغها للقارئ، فيكون بذلك قد عمل على إعطائه أكبر قدر ممكن من الأخبار، المتمثلة في شخصيات متنوعة، عملت على تحريك فعل السفر، كما كانت الأشياء موقفا لعين الرحالة، فنالت بذلك قسطا من الكتابة عملت كعنصر بناء تمثل في وصفها، وصفا جاء موضحا ومفسرا لكثير من المشاهد والمواقف، ودافعا لتوالي الحركة المستمرة في الفعل الرحلي.

من أنواع مفككات الطعام أكل القات التي رآها الرحالة في بلاد اليمن، وجاء وصفه لها لكن ليس على لسانه بل على لسان رفيقه قسطنطين، والإمام يحيى، وكانت على شكل مقابلة بينهما، فجاءت قصيدة الأول كهجاء للقات، ليرد عليه الإمام يحيى، مادحا القات في أسلوب مهذب وممتع.

فجاءت دالة على موهبة الشاعر، حيث طلب منه الرحالة أن يكتب شيئا في الهجاء فقال:

القات فيه عجاب كما يقول الصحاب

درت به الشاة لما أن طاردها الذئاب

ذاقته فاستعذبتة و سال منها اللعاب

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 818.

أَمْسى يَجْمَعُ مِنْ حَتَّى تَمْلَى مِنْهُ الْجَرَابُ

مَا نَفَعَهُ أَنْبِئُونِي هَلْ عِنْدَ شَخْصٍ جَوَابُ

وَالصَّدْرُ فِيهِ مِنَ الْوُخْزِ وَالْعَذَابُ خَرَابُ

وَالنَّسْلُ يَضْعَفُ مِنْهُ مَا فِي كَلَامِي ارْتِيَابُ

لَا نَفْعَ فِي الْقَاتِ لَكِنْ فِيهِ الشَّقَا وَالْعَذَابُ¹

يعترف الرحالة لرفيقة بالشعرية، لكن في جودة هذه القصيدة له رأي آخر، ويثبت له في
 منته الرحلي ما يخلد شاعريته، هذا الشعر أثار حمية الإمام وكثيرا من شعراء اليمن فردّوا عليه بكل
 ما أوتوا من براعة في الشعر، يصف المشهد قائلا: ((وكان أسبوع في عاصمة حمير والأندواء
 أضرمت فيه نار القوافي فوردت علينا المحروقات منها المهلكات، أجل قد جاء أحد الشعراء
 وقصيدته في خنجره، يشتهي دم الشاعر الكبير الذي تجاسر أن يذم القات، و ما ذمه و هو ذا ذنبه
 الأكبر بغير المبتذلات الشعرية والركاكات، فأوقفه لحسن الحظ الحارس ولم يأذن له بالدخول))²
 وكان من الذين ردوا على قسطنطين الإمام يحيى فقال:

فَللْعَيُونِ جَلَاءُ لَضَعْفٍ مِنْهُ ذَهَابُ

وَاللَّتَغُورُ صَبَاغُ زَمْرَدِي يَذَابُ

1 - الريحاني أمين ، المصدر السابق، ج1 ص 148.

2 - المصدر نفسه، ص 184.

أحسن بثغر مليح له المذاب رضاب

و للنفوس مريح و النشاط انجذاب

و يشخذ الفكر حتى يخاف منه التهاب

و يطرد النوم عن من له الجليس كتاب

أما الذي قاله قسطنطين فهو كله سراب

أليس من جاوز الحد أكله و الشراب

يكون عرضة خسر و يعتريه اكتئاب

هذا الملفق يا قسطنطين منا جواب

يهدى إليك عليه من الحياء نقاب

لأنه ليس كفؤا للدر و هو تراب

فاستر ملفق يحيي فالستر فيه ثواب¹

إن الإمام قد قام بمدح القات مجيبا الشاعر قسطنطين، فوصف القات بما له من إيجابيات،
تمثلت في جلاء النظر، وهو ملون للثغور، مريح للنفوس وجالب للنشاط، كما يعد شاحذا للذهن،
ومذهبا للنوم لمن أراد القراءة، وظف السهر في طلب العلم، وما كلام قسطنطين إلا سراب ليس له

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 186.

شيء من الصحة، فالأكل صفة الكرام، لكن إذا تجاوز الحد انقلب عليه خسران، خاتمة كلامه كانت طلبا للصفح والستر، وهذا من شيم الأخلاق العربية.

هي ثقافة ذلك العصر وعادة شعبية عرفها الشعب اليمني، حتى إنها أصبحت أمرا يتصف بالتقديس، فقد جاء أحد الشعراء وقصيدته في خنجره، فلولا الحارس لكان قسطنطين شهيد هجاء القات، كانت صفة تلازم اليمني، لا يعرف حياته دونها، فكان القات بنية أساسية في تركيبته البيولوجية.

الفصل السادس

تمثلات العجائبي

قد نتساءل عن هدف الكتابة الأدبية، وعن دورها في تكوين ثقافة الفرد، كما أنها عرفت في الكثير من الدراسات أنها تحقق نوعاً من التسلية والمتعة، لكنها إذا انغمست في الخيالي العميق، وولجت عالم اللاواقع واللامعقول، أليكون لها دور في الإفادة والتنقيف؟.

هذا ما يحيلنا إلى الحديث عن نوعية اللامعقول واللاواقع، قد يكون هذا الأخير مخالفاً لما ألفه الكاتب من مشاهد ومعارف وأخبار، فيكون الرحالة في ذلك بمنزلة المتلقي المتعلم، كما قد يكون اللامألوف عنده غريباً، لكنه يقترب من الواقع، وقد يكون بعيداً عن واقعه فيكون بذلك في منزلة المتعجب.

يضمن السارد كل هذا في نصه، فتتجلى في خطابه وظيفة الإمتاع والمؤانسة، كما يعمل على محاولة إقناع المتلقي أن كلامه صحيح، فهو وصف لما شاهده أو سمعه، وقد يحمل النص البعدين، أي الإمتاع وإفادة الخبر، كما إننا قد نلمس أن الكاتب يهدف إلى معرفة ذاته من خلال مقارنتها بالآخر، قد تقوده إلى تغيير منهجه في الحياة وإلى ترتيب أفكاره وتصحيح بعض منها، تكون له معرفة قبلية بالشيء، وحين يراه ويعاينه، تتشكل له معرفة بعدية قد تناقض الأولى فتعمل على تصحيحها.

نستنتج من هذا أن العجائبي جاء محددا للعلاقة بين الذات والآخر، فالذات ترى الآخر مغايرا لها فتحاول محاكاته ومعرفة كوامنه وأسراره، لتقف متعجبة مستغربة مما خالف نظرتها ومنطقها في الحياة، وفي شتى ميادين التفكير والسلوكيات الاجتماعية والثقافية والدينية.

ما لمسناه من خلال دراستنا لأدب الرحلة من خلال مدونة أمين الريحاني، أن الغرائبي جاء متمثلا في محاورته للآخر، الذي اتسم بسلوكات وأفعال، وقف أمامها متسائلا ومستغريا، لكنه نسبته إلى فكر معين ارتبط بزمان ومكان معينين، كما وقف على مشاهدات لم يجد لها تفسيراً منطقياً فنسبه إلى ما فوق الطبيعي، فله الحرية في التصديق به أو رفضه، وقد تمثل ذلك فيما رآه متمثلا في بعض الكرامات وبعض سلوكات الصوفية.

1. الآخر العجيب:

عملنا على تسمية هذا الاسم، نسبة إلى ما لقيه الرحالة من شخصيات وما رآه فيهم من أفعال وسمعه منهم من أقوال، فوقف أمامهم متعجبا ومستغريا وكثيرا ما فصّح عن هذا السلوك واصفا حالته، وأحيانا معلقا ومحققا لما رآه وسمعه محاولا إقناع القارئ بما يكتبه.

الرحلة تبحث عن المعنى وعن الحقيقة، فالرحالة خرج مكتشفا لعالم يجهله، يعرف عنه القليل، باحثا عن توسيع دائرة معارفه، فهو ((يبحث عن الغريب والفريد والعجيب))¹، يريد معرفة حياة العرب وعاداتهم وتقاليدهم، كما يريد معرفة نمط تفكيرهم السياسي وذلك من خلال ملاقاتهم ملوكهم، لهذا نجده قد زار ملوك العرب في الجزيرة العربية وامتد ذلك إلى أرض المغرب، مستنهضا الهمة العربية، ومحاورا للآخر الذي يراه موافقا له وفي نفس الوقت مناقضا، باحثا في العادات والشخصيات و في كل ما هو عجيب في الفضاء الرحلاتي.

أ. العادات:

تمثلت بعض الممارسات الشعبية في الأوساط الجغرافية التي ارتحل إليها الرحالة، بسمة الغرابة والدهشة، رأى في ذلك أمرا مخالفا لما ألفه، يحدثنا عن صفة الكرم الذي أعجب بطريقته في اليمن، حين كان في ضيافة سلطان الحواشب علي بن مانع، وإن كانت صفة الكرم صفة مألوفة لكن طريقته غريبة، خاصة أنه كان في مرحلة قد تملكه فيها الخوف، وهو في منطقة الحواشب الذين عرف عنهم البطش والسلب.

أصبح الترويع والخوف مما يعجب منه، خاصة إذا ارتبط بالسلطانة، التي أصرت على تكريمهم وعلى أن تتم واجب الضيافة، فمن غير اللائق أن يخرج الضيف صباحا ولا يتناول فطوره

1 - الرحالة العرب المسلمون اكتشف الآخر، المغرب منطلقا و موطئا، مقال لمحمد لطفي اليوسفي، حركة المسافرين و طاقة الخيال، دراسة في المدهش و العجيب و الغريب، أعمال ندوة مطبعة النجاح الدار البيضاء، ط.1، نوفمبر 2003، ص 281

((تروعين أيتها الحوشبية الألمعية، ولا تجوعين، قد كنت حديثنا وموضوع إعجابنا حتى في بلاد الزيود، التي تنسي المرء الحبيب والمعبود، وقد تنسي الغريبة الجديدة، غرائب عديدة))¹.

كما استغرب من ظاهرة أخرى تمثلت في استعمال قصاصات صغيرة من الورق في التراسل بين الملك والأمراء في اليمن، هي ظاهرة الاقتصاد وعدم الإسراف يقول: ((إن أول ما شاهدت من مظاهر الاقتصاد المدهشة في اليمن طريقتهم في المراسلة، ورفع العرائض إنه لينذر استعمال الغلاف في اليمن إلا في المراسلات الرسمية الخارجية، أما في البلاد وبين أهله فالغلاف هو الرسالة والرسالة هي الغلاف، يجيئك الرسول بلفافة صغيرة مثل السيكرة فتفكها فإذا هي رسالة من حضرة الإمام، وقد تكون بخطه الشريف، فتقرأها ثم تنتظر في ما لها من هامش فتقطعه وتجاوب عليه، وتلف الجواب سيكرة وتعيدها مع الرسول، وإذا أسرفت في الورق وأضعت مقدار ختم منه دون أن تسوده تويخ على ذلك، وقد تعزل إذا كنت موظفا في الحكومة، أما إذا جاءك كتاب في غلاف فتشقه وتستعمل ظهره للمراسلة إذا كانت الرسالة من صنو وهي عل قدر بطاقة الزيارة تعيدها إليه، والجواب في المكان الأبيض منها، سطرًا كنحلة الفرس أو سطرين كخط المابين))².

كما استغرب من استعمال اللفظ الدال على التفضيم والتعظيم، يرى هذا أمرا غريبا، وقد ظنه أنه هجر منذ زمن، لكنه وجدته في اليمن الأعلى متداولًا بين العرب في كتاباتهم لحاكم أو أمير، والإخلال به أمر غير محمود، يقول: ((أما في اليمن الأعلى في غير الرسائل الرسمية، فلا يزالون من العرب العرباء، إلا أنهم إذا كتبوا إلى أمير أو حاكم أو سيد خارج اليمن فلا الترك عندئذ ولا العجم يفوقونهم في فخامة الألفاظ وضخامة الألقاب، وهاك مثلا من تباجيلهم، إذا كان الخطاب

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج 1 ص 97.

2 - المصدر نفسه ، ص 194.

أميرا فإلى: قدوة الأمراء الكرام، وعمدة النجباء الفخام، عالي المجد والمقام، فخر العرب والإسلام....و إذا كان إماما فإلى: خلاصة الأطهار الأمجاد، وروضة المجد الرفيع العماد، قرة العين والكمال، عنوان الاعتبار والجلال، الركن الأسند والسند المستند....و إذا كان سيدا بسيطا فإلى: ذي الأخلاق الزكية، والشمائل المرضية، الهمام المقدام، الرفيع المقام، النقي النقي....¹

بعد استغرابه من طريقة الجود والكرم، والاقتصاد في الورق، ومن فخامة اللفظ، ينتقل إلى ممارسة شعبية وجدها غريبة ومدهشة، وهي أن ينام الفرد في كيس، لكن ما أدهشه هو إدخال كل الجسم فيه حتى الرأس، ولا يترك مجالا لدخول الهواء، يقول مخبرا ومستغريا ((هو كثير الاستعمال في اليمن خصوصا في الجيش، إلا أنهم لا يربطونه حول العنق، كما قد تظن أيها القارئ، بل فوق الرأس، هم يجعلونه كبيرا لهذه الغاية، فيتمكن صاحبه وهو فيه من زمه وعقده بيده داخلا فيمسي إذ ذاك كله هو ورأسه في الكيس، فيستنشق ما دام نائما كل ما يتنفسه من حامض الكربون ولا يختنق، ولا ينهض صباحا ووجهه كالرغيف المحروق، كأنه أكل نارا في نومه))².

إذا ما تتبعنا السرد الرحلي خاصة في جزيرة العرب، نجده قد اهتم بأخبار اليمن وشعوبها أكثر مما اهتم بالشعوب الأخرى، فيخبرنا عن عادة شعبية أخرى تمثلت في تنييل الجسم وصبغه من طرف شباب منطقة عبال، ويتزينون بالحناء وتطويل شعر الرأس، حتى أنك قد تعتبره فتاة، لولا أن ترى تلك العضلات المفتولة، الدالة على شيء من القوة المكتسبة من الطبيعة.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 196.

2 - المصدر نفسه ، ج 1 ص 250.

يتحدث عن مدينة عبال التي تشبه بيوتها بيوت الهنود، إذ يتميز الرحالة بآلية المقارنة بين الشعوب، فيدخل بذلك في دائرة الدارس والمحلل الاجتماعي، ((عبال قرية ساكنة وأبناؤها، يشبهون العرب وسائر الأقطار بأمرين، يتكلمون ويتطيفون، وفي ما سوى ذلك يختلفون، فالشبان في شعورهم الطويلة الجعدة المصففة المزينة، هم أشبه بالبنات لولا الشوارب والعضلات، فهم يدهنون شعرهم بالأدهان، ويربطونه بشرائط من الحرير أو الجلد، ويزينونه بالريش أو الزهر أو الرياحين، ويقصونه مثل البنات اليوم ليساوي القذال، ولا يقصونه كالرجال، وهم يتزرون بالفوطة مثل أهل لحج، وقد تكون طويلة ملونة مخططة، فيشدونها على الحوقين ويلبسون فوقها صدرية بيضاء بينها وبين الفوطة زنار من القطن أو الجلد للخنجر دائما، وغالبا للخنجر والخرطوش، إن أول ما يدهشك من أولئك الشبان شعورهم المزينة كشعور النساء، وأرجلهم المخضبة بالحناء))¹.

يرى الرحالة مشهدا من مشاهد تحقيق العدالة الشرعية، تمثلت في قطع الرؤوس، إنه يندهش لهذا الأمر لكنه يراه نافعا للقوم، لولاه لما ساد العدل والأمان في أرض نجد، حتى صار الجمل يبقى في الصحراء بحمولته لأيام عدة ولا يأخذه أحد، إنها لحسنة من حسنات عدل السلطان، وفيما يأمر به أمراءه، فيرتدع بذلك البدوي والحضري، حتى أصبح لساحة قطع الرؤوس دوي في كل الأرجاء ((هناك أمام الأمير والجمع المحتشد يشتغل السيف ويشغل معاونه، والطريقة في الإعدام بسيطة سريعة مدهشة فيها دقة نظر وفيها مهارة إنهم يركعون المذنب على ركبتيه، ثم يرقص أمامه المعاون ليلهي عن السيف الآخر المرفوع فوق رأسه، فيكزه أولا السيف وكزة شديدة سريعة في رقبته تحت المخيخ، فيتحرك الرأس إلى الأمام فيتقلص عصب الرقبة، فيضربها إذ ذاك

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ص 258.

ضربة -ضربة واحدة- يطيح منها الرأس إلى الأرض، دقيقة واحدة تبدأ بالرقص وتنتهي بالنطع، فيتحدث بها الركبان في نواحي البلاد كلها¹.

يوصل الحديث عن الحدود الشرعية التي وجدها قائمة في نجد، ولم يحدث عنها في غيرها، ولا أظنه رآها في غيرها وإلا لكان تحدث عنها، فالمعروف أنه في نجد كانت هناك الحركة الوهابية، التي تأمر بإقامة الحدود الشرعية، فيخبر عن عقوبة الجلد جزاء لمن وُجد يدخل أو لا يصلي: ((قلت أنهم يبسطون من يدخل في نجد، ويبسطون كذلك من لا يصلي، وللكلمتين شرح توجبه الحقيقة والإنصاف، لأن الناس في ما يسمعون من عجيب الأمور ومنكرها يبالغون، ولا يهتمهم من الحقيقة غير ما يثبت منها المبالغات))²

هي محاورة بين ذات الرحالة وبين الآخر الذي جاء يكتشف أسرارهم، ويفتقي أخبارهم، باحثاً عما يتم ذاتيته، فهو يرى في العرب نفسه التي لا يعرف عنها إلا القليل، فجاء متعلماً، كما صاحب ذلك فكره التنويري الذي يظهر أثره في النقد الموجه للآخر، الهادف إلى الإصلاح والرامي إلى وحدة قومية.

ب. الصوفية و الكرامات:

من صور الغرائبي التي شاهدها الرحالة، وقوفه على بعض الممارسات التي اتسمت بالبعد الديني، مجسدة في الكرامات التي اتصف بها بعض الرجال، الذين ذكرهم في أزمان مختلفة بين الماضي والحاضر، وهي مشاهد اتسمت بالدهشة والغرابة.

1 - المصدر نفسه، ج2 ص 566.

2 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 566.

كما ذكر المذهب الصوفي الذي لمس في منطقة السيد الإدريسي، فوقف واصفا لغرابية المشهد، وللممارسات الصوفية، متتبعا أخبارها التاريخية رابطا إياها بما هو حاضر، وبما اتصل ذلك بسياسة الملك وبما هو مقدس.

مما اندهش له ممارسة صوفية تمثلت في صلاة جنائزية على شيخ الطريقة المرغينية، التي استمرت خمس ساعات، التي بدأت بقراءة مناقب الشيخ وسيرته وبعض كراماته، وتمثل فيها الشعر على لسان الشعراء يرثون الشيخ، حتى تعب الرحالة ورفقاؤه، ثم وقف القوم صفوفًا يرددون لا إله إلا الله، في تناغم متناسق وفي صوت رجل واحد، وبدأ ينظر إلى "المدهش" فأصبح القوم بين سكران ومغمي عليه، يقول: ((فقام آخر يثب وثبا ويقول: حَيْمٌ قَيْمٌ شرعنا نتقدم هياجا دخلنا في دور الزيد والرغاء، حيم قيم، وتحركت الحلقة حركة سريعة شديدة كأنها تدق رأسها في الأرض ثم نطحا في الجو، ثم نهض فتى لا يتجاوز الثانية عشر سنا هو أصغر أولاد الفقيد، فبدأ حيث انتهى أخوه، وكان يتلوى كالسكران، ويرقص تارة ويثب طورا كالمجنون، مثل الفتى دوره أدهش حتى الذين ألفوا الحلقات ومدهشاتها، وأضحكهم كذلك، كهرب الفتى الحلقة، و بدأت تظهر كرامات الشيخ الفقيد، هو ذا عبد أمسى جمادا، فرفعه اثنان فوق رؤوسهم وأخرجوه، وذاك وقد خرج من الحلقة فراح يدق رأسه بالحائط فسقط صريعا مغمى عليه، وهاك من يبغى الاجتماع بالله بواسطة عمود من أعمدة المسجد فأمسكه رفيقاه فتقلت منهما وضربهما ووثب وثبة هائلة كان العمود ورأسه خاتمها المفجعة، حملوه مضرجا بدمه إلى خارج المسجد، ...سقط أمام الفتى في وسط الحلقة شيخ لحيته بيضاء طويلة والزبد يسيل عليها من فمه، فوثب فوقه ولم يأبه له، استجرنا من ذا المشهد بروح

الشيخ الطاهرة: يا لطيفة، يا شريفة، يا كلمة أبي حنيفة، يا مسكنة العباد، ومنطقة الجماد، يارية الحال، وسراج الترحال، قفي وألظفي لا تقتلينا بالكرامات، ولا تسكرينا بالشعوذات))¹.

قد عملت عين الرحالة على اقتباس كل ما وجدت فيه غرابة واندھاشا، من رقص وإغماء، وسكر، وتضريح بالدماء، كل هذا مستوحى من حب الشيخ ومن كراماته التي عددها في آخر كلامه، من تطبيق للجماد وتكليم لأبي حنيفة، مترجيا الشيخ في نهاية هذا المشهد العجيب، بأن يعمل على إنهاء هذا الطقس الجنائزي الرهيب.

ويخبر عن أحد شيوخ الطريقة الإدريسية، هو الشيخ التازي الذي يظهر له بعض الكرامات في نصه الرحلي، ((وقد كان للتازي في ساعات الحال نظرات تخترق أسترة الغيب فيرى ما لا يرى، ويشعر بما يحدث بعيدا عنه، على الطريقة التي يدعوها العلماء بالكشف، منها أنه عرف وهو في فاس بموت المجيدي ساعة وفاته في شنقيط))².

يوصل السرد الرحلي ذكره لكرامات التازي متخذا من هذا الأخير شخصية يدور الخطاب حولها، مسترجعا أخبارا من التاريخ، محاولا وضع رابط بينها وبين حاضره فهو يعمل على شرح الطريقة الإدريسية، وتقفي أثرها عبر التاريخ، فهو يؤسس للطريقة، عاملا على تثقيف المتلقي ((إن العقد بين الرحالة الذي يسرد رحلته ومتلقيه المفترض، عقد مضمّر مسكوت عنه، المتلقي لا يستد

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ج1 ص 291، 292.

2 - المصدر نفسه ، ص 295.

إلى الحكاية إلا متى وجد فيها ما ينتشله من الضجر، الضجر من المؤلف، والمعاد والمكرر، ولا شيء أكثر من الغريب والفريد والعجائبي))¹.

يعمل السارد على إخراج المتلقي من دائرة الضجر ويدخله ضمن عالم العجائبي، حيث نلمس أن وتيرة السرد قد تغيرت، هي فترة استراحة للسارد، يصف فيها أخبار السلف، مستعينا بما قرأه وسمعه، عاملا على تأثيث سرده بالمتن الحكائي، يضيف مخبرا عن كرامات الشيخ التازي: ((أنه غاب عن بلده مرة يذكر إخوانه في الله، فمات ولده فأخبر بذلك، فأرسل إلى أهله يقول: لا تدفنوه حتى أحضر، فحضر بعد ثلاثة أيام فخاطب ابنه قائلا: من قال لك تموت؟ قم بإذن الله، فقام الولد حيا))².

هذا الخبر الذي إذا ما قرأه القارئ يشعر بنوع من الغرابة، وقد يتساءل هل هذا صحيح؟ ليجيب عنه الرحالة أنه أمر قد كان وها أنت تقرأه، فيتركه إلى خياله وإلى ثقافته، ويساعده بنوع من الإقناع: ((لعمري إن من يتجه بكل قواه العقلية والقلبية والروحية إلى كتاب أو إلى عقيدة أو إلى طريقة صوفية كانت أو تجارية، يرى منها ومن نفسه العجب، فكيف لا يجتمع بالنبي من قضى ستين سنة يفكر بالنبي، ويقراً ويردد كلمات النبي، ويتوسل بالصلاة العظيمة، إلى النبي في اليقظة وفي المنام؟ إن صورة أصورها في قلبي كل يوم لتعكس أمامي من حين إلى حين، وإن شئت فقل بعين الخيال، يقظة ومناما))³.

1 - الرحالة العرب المسلمون، محمد لطفي اليوسفي، حركة المسافرين و طاقة الخيال، ص 282.

2 - الريحاني أمين، رحلات ملوك العرب، ج 1 ص 296.

3 - المصدر نفسه، ص 300.

يحاول أن يعطي تفسيراً موضوعياً لما سمعه وقرأه عن الشيخ التازي، مرجعاً ذلك إلى ترسخ الصورة بكثرة ذكرها، إنه يرى في هذا العجيب، المخالف للمألوف، لكنه يذكر دليلاً عقلياً متمثلاً في الصورة التي يتخيلها الفرد ويعامل التكرار تصبح الصورة حاضرة في ذهنه.

ينتقل الرحالة إلى شخصية السيد أحمد بن إدريس، الذي يرى فيه قطبا من أقطاب الصوفية، ويقف وقفة العاجز عن تفسير ما يدور حوله مما سمعه من أخبار عن السيد أحمد يقول: ((على أن هناك أمراً يختص بعلوم السيد أحمد، قد يظن في ظاهره الشعوذة التي أجله عنها، ولكنه استحالة عليّ فهم السر في يده، فقد كانت كما قيل لوح القلم المكنون، ينظر إليها فيرى ويسمع ما وراءه المحسوس والمظنون، بل كان إذا سئل عن شيء في القرآن ينظر إلى باطن كفه ثم يشرع يفسر بما شاء من العلوم الدنيوية، وإذا سئل عن حديث شريف ينظر إلى ظاهر كفه ثم يتكلم بما يبهّر العقول))¹.

يعمل السارد على الربط بين زمنية الرحلة ومكانها، فالزمان زمن احتراب وتمرد، والمكان مكان اتسم بنوع من القدسية من خلال القائد "السيد الإدريسي"، فجاء حديثه عن الصوفية وعن الكرامات، لتدعيم حديثه موضحاً صورة اجتماعية وفكرية، عاملاً على تشخيص حالة معينة، محاولاً إدخال المتلقي في جوّ يعمه الخيال الذي صاحبه أثناء تجربته الرحلية، وأثناء تجربته الكتابية، كما جاء المكان ممتداً من أرض المغرب إلى أرض الحجاز إلى عسير، الحبل الواصل هو حبل روحي ديني، لهذا نراه عدل إلى الحديث عن الصوفية في المغرب.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ص 300.

يجد الرحالة في ذكر الكرامات موضوعا خصبا في الكتابة، خاصة حين يتطلب ذلك سياق الكلام، وتتطلب اللغة كمادة، عناصر تركيبية تساعد على بناء النص، ((العجائبي ظاهرة نصية متعلقة بالخطاب، وليست خارج نصية))¹، يعود إلى الماضي مسترجعا تاريخ حروب الردة، ليذكر القائد والصحابي العلاء الحضرمي ((كان هذا الصحابي كما قلت صاحب كرامات مجاب الدعوة، وهاك منها اثنتين، بينما كان رجاله يجتازون مفازة لا ماء فيها، خلصهم من الموت عطشا بأن صلى ركعتين ثم قال: يا حليم يا عليم يا علي يا عظيم أسقنا، فجاءت سحابة كأنها جناح طائر فقعقت عليهم وأمطرت حتى ملأوا الآنية وسقوا الركائب، ثم جاؤوا السواحل فوصلوا إلى الخليج فلم يجدوا سفنا فيه، وكان المرتدون قد أحرقوها، فصلى العلاء ركعتين ثم قال: يا حليم يا عليم يا علي يا عظيم أجزنا، و أخذ بعنان فرسه وهو يقول: جوزوا باسم الله فمشى و مشى وراءه جيش عدده أربعة آلاف، فلم يبتل لهم قدم ولا خف ولا حافر))².

وظف الرحالة عنصر الكرامات ومبادئ الصوفية، توظيفا بنائيا جماليا في نصه الرحلي، مخاطبا به القارئ، منطلقا من الواقعي نحو ما هو فوق الواقع، مثيرا نظرة الإعجاب والغريب، وهذه خاصية من خصائص الأدب في استعماله للواقع كأداة بنائية ليحيل على واقع جديد، مجسدا رؤية فكرية أو مفسرا لحالة نفسية، فالسارد لما يعود للماضي فهو بصدد ملئ فراغ نفسي، محاولا تجميع أفكاره و مواصلة السرد.

1 - حسن علام، العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط.1، 2010، ص43.

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج2 ص 732.

2. الفضاء العجيب:

يعتبر الفضاء من المكونات الجمالية للنص الأدبي، وهو في النص الرحلى أكثر بروزاً لأنه يعتبر من مكونات بنية السفر، ولا يستطيع السارد بناء نصه دونه، كما يعتبر التنقل في المكان هو استمرارية في السرد، بسبب تلك التحولات الطارئة عليه، لذا نجد الرحالة ينتقل من مكان إلى آخر متوقفاً عند كل واحد واصفاً ومخبراً ومسترجعاً لذكريات، واضعاً علاقات بين المكان وشخصه وبين ذاته.

يتحدث الرحالة عن مدينة عجيبة زارها في اليمن: ((هي مدينة عجيبة كان لها من أسباب العمران والمجد والشهرة ما لأكبر مدن العالم المتمدن اليوم، لها تاريخ غابر مجيد، لها مدينة قامت بين شمس المجوس وكواكب الأوثان، وتعددت فيها الأسرار والكهان، وعزت عندها آمال الإنسان، فكانت ملكة سبأ، وكان حمير، وكان قحطان، ثم التوحيد وشوكة قريش وعدنان، وما تقدمه وتبعه من علماء وشعراء، ونوابغ في فن البناء، فضلاً عما خصتها الطبيعة مما لا يزول أبداً ولا يحول))¹.

إن السارد يعود بإعجابه إلى ماضي هذه المدينة، هي صنعاء التي ضمت أقواماً عدة وتداولت عليها حضارات إنسانية جمّة، يعود الإعجاب إلى ما قامت به سبأ، وما كان لحمير ثم من بعدهم قريش والإسلام، هذه التراتبية الزمنية عملت على إيجاد فضاء رحب للسرد تمثل في الفضاء الحالم الذي يحلم به السارد، يروم تاريخ الأجداد ويتمنى عودته في صورة الواقع، يريد لهذه المدينة أن تزدهر اليوم كما ازدهرت قديماً.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج 1 ص 235.

يمتد الإعجاب إلى المظاهر الطبيعية، من ماء قراح وجو معتدل، نلمس هنا ذات الرحالة المحبة للطبيعة وكثيرا ما قارنها بلبنان، حيث يكثر الزهر والريحان، عمل السارد على الجمع بين التاريخي والطبيعي والذاتي، تحت عنوان العجيب، الذي يتجلى في رؤيته المنحصرة بين الواقعي والمتخيل ((ولا شك أن أحلام الرحالة أو ما يستدعي من أحلام يجيء المكان فيها متفاعلا مع عناصر الرحلة وأمكناتها))¹.

ثم يذكر مدينة مناخة التي تعجب لجمالها الطبيعي، واندھش لصخرة بها شبهها بمسلة فرعون، ((أقمنا يوما في مناخة نتمتع بمحاسنها ونستريح، سعدنا إلى السطح قبل أن أحاطت بها الغيوم، فكان أدهش ما شهدناه قريبا منا صخرة قائمة كمسلة فرعون، وراء القشلاق، وحولها بعض البيوت من لونها، تدور إليها جادة ضيقة زلاء فتصل إلى قرية وراء الصخرة تدعى كاهل))².

يمنتزج الوصف بالعجيب، مستعملا أسلوب التشبيه لتقريب الصورة، يصف الصخرة العجيبة التي تشبه مسلة فرعون التي تتصف بالطول، وتعتبر من عجائب الأعمال الإنسانية المعروفة في الحضارة الفرعونية، كما يخبر عن لون البيوت المحيطة بها، يلج الرحالة فضاء غير مألوف، فتبرز العين أكثر شيئا ظهورا، ما يعكس صورة العجائبي، الذي يرسخ في النفس، ليتحول إلى صورة أدبية جمالية.

اتصف المسار الرحلي باكتشاف الفضاء الرحلي، فنستطيع اعتبار الرحلة من نقطة الانطلاق إلى مرحلة العبور وصولا إلى النهاية، كلها تعبير عن الغريب والعجيب، فالذات المرتحلة

1 - حليفي شعيب ، الرحلة في الأدب العربي، ص 438.

2 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1 ص 247

تلتقي بما خفي عنها، حتى ماكانت تعلمه فهو جديد أثناء الرحلة بتجدد الزمان والمكان، نلمس هذا في وصفه قمم الجبال وذكر أسمائها، مقارنا بينها في الطول والعقبات، يقول: ((أما وسل فدونه جبال وقرى نعد منها ولا نعددها، هذا جبل الطويلة وهو خط طويل مستقيم على الأفق الشمالي يتصل ظله شرقا بالحيمة، وهذه قنة شُباب التي تظلل مناخة بعد الظهر، وهي أعلى قنن اليمين على الإطلاق، وهناك عندما نخرج من ظل شباب يتراءى لنا تجاه مغرب الشمس جبل ريمه وأعلى قنة فيه براع، وهذه على إحدى قنن مسار قرية تشاركه في الاسم وبينها وبين شباب الهجرة، تلك القرية العجيبة الرائعة، المزدحمة ببيوتها برأس الجبل، المتراكمة بعضها فوق بعض كأنها في لزها وشكلها وعلوها قطعة شاهقة من مدينة نيويورك))¹.

يحتل فضاء الجبل في نفس الرحالة، مكانة تسمح له بامتداد الوصف، ذاكرة صورة خط الاستقامة والظلال الوارفة، ومغرب الشمس، وكأنه يتغنى بالطبيعة، التي أحبها، وقد خص لها كتابات خاصة منها ما كتبه في رحلته "قلب لبنان"، وماكتبه عنها في باقي رحلاته يذكر الجبال والوديان والصحراء، ويبرز صورة التعجب في تجمع البيوت على القمة وتراكمها، قد يجد القارئ تجمع البيوت ليس بالأمر العجيب أو الغريب، لكنها عند الرحالة امتداد للعجيب الذي ظهر سابقا، منذ بداية اكتشافه لما هو غير مألوف في نفسه، مسقطا إياه على حالته النفسية والفكرية، ((إنك لتعجب من تلك البيوت بل الحصون القائمة فوق الصخور كأنها جزء منها، في أماكن يكاد يستحيل على الإنسان والحيوان الوصول إليها))².

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 248.

2 - المصدر نفسه، ص 249.

تواصل المسار الرحلي نزولا من الجبال إلى سطح البحر، هذا الفضاء التي ذكره في رحلاته بصفته فضاء متحركاً، وعنصراً مساعداً على بلوغ الأهداف، فلفت انتباهه أمر عجيب تمثل في ((مظهر من مظاهر المد الغريب، إن مياه البحر تجري تحت الأرض، خلال شقوق في التربة رملية، فتتسرب إلى مسافة خمسة أميال في بعض الأماكن، وتظهر فوراً في السهل بحيرات مالحة، تجف في الصيف مياهها فتبدو سبخات موحلة لزجة إذا علقت السيارة فيها استحال على غير الجمال جرّها منها))¹.

يظهر إعجابه بسحر الطبيعة، وما تفعله مياه البحر التي تسير لخمس أميال، لتخرج في مكان آخر، محولة المكان إلى سبخة مالحة، تعلق فيها السيارة، قد يكون الرحالة عرف بهذا سابقاً لكنه لما يراه ماثلاً أمامه يكون الأمر مختلف، فالذات تتأثر أكثر حينما يتحقق الفعل على الواقع، فتصطمم بما كان عنها غائبا، ليكون حضور الشيء في زمن ومكان معينين، هو بعينه العجيب والغريب، فالسارد نقل نفس الإحساس في اللحظة المعيشة إلى لحظة الكتابة، عبر مسار الذاكرة.

ينتقل الرحالة إلى فضاء الكويت، فيترك العين تواصل عملها في الانتقاء، متصلة بالعقل الذي يحلل ويفسر، فتذهل النفس بما عقل وفسّر، لتندفع مفصحة عما جال في خاطرها بكتابة تدرك أنها ترجمان لها، هي رسالة موجهة للغير، تعجب من مشهد مثل عمل الإنسان و ترجم نمط تفكيره في مواجهة العنف وطلب الأمان يقول: ((أول ما يسترعي النظر في الكويت إذ يصل المسافرين من البر إليها، ذلك السور الكبير الذي بناه أهلها بعد وقعة الجهرة، ليصدوا هجمات الإخوان، وهو سور يحيط بالمدينة من جهات البر كلها، طوله خمسة أميال وعلوه نحو أربعة أمتار

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 367.

وسمكه في بعض الأماكن متر ويزيد، فيه المعازل والكوى للرمي والدفاع، وله بوابات ثلاث يقيم الحرس عندها، وتقف في الليل، لم تنفق الحكومة روبية واحدة على بناء هذا السور، فقد تبرع أهل الكويت كل بما يستطيع من عمل أو مال وأتموا البناء في مدة شهرين، إنه لمن الأعمال المدنية العامة الرائعة خصوصا في البلاد العربية¹.

يتعدى العجيب من المرئي إلى المجرد الذي رآه في تعاون الشعب واتحادهم، لأجل بناء السور، وتمثل العجب أنه في البلاد العربية، فقد ألف أن هذا العمل نادرا ما يحدث، خاصة حين خبر بعض صفات العرب من خلال رحلته، وجد المصلحة الشخصية تغلب على المصلحة العامة. يمتلك الرحالة معرفة قبلية عن المكان المراد الارتحال إليه، فيسافر ليقوي معرفته، ويزداد بها إيمانا، كما قد يرتحل وهو يروم شيئا معيناً فيصطدم بشيء آخر يغير معرفته السابقة ويصحح ما فيها مجانباً للصواب، هذا ما وجدته في البحرين.

كان يظنها بلدا بسيطا لا يحوي الكثير من المشاهد الغريبة أو المدهشة، لكنه يعترف بوجود اللامألوف: ((ما أخطأت مرة ببلاد عربية، مثل خطأي بالبحرين، وما دهشت في قطر من الأقطار التي زرتها دهشتي أول يوم في هذه الجزيرة، ولا غرو فالجهل يجسم المدهشات، قال أحد الأصدقاء في الحجاز، وهو يصف لي الطريق إلى نجد سنسافر من بمباي إلى البحرين، ومنها في مركب شرعي إلى العقير، فظننت البحرين جزيرة صغيرة حقيرة يأوي إليها الصيادون، وظننت شيوخها من البدو الذين يسكنون الخيام، بل كنت عند وصولي أظنها معبرا إلى الأحساء، وماذا

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج2 ص 655.

ينفع التظاهر بالعلم إذا فضحتك أول كلمة منك بعد السلام؟ أما و أني أمقت الإدعاء فلا أحاول إخفاء جهلي وهو جهل عام يكاد يشمل كل أدباء العرب، أني أعترف عني وعنهم¹.

إنّ الرحالة يحاول بأسلوبه التشويقي، جلب انتباه القارئ ومعرفة ما بعد هذا فيشتد انجذابه للقراءة، ليعرف حقيقة هذه المدينة وأين يكمن سرها، يضع السارد القارئ في موضع المستغرب والمندهش، في جهله لحقيقة الأمر، فيعيش بذلك حيرة فكرية ربما مر بها الرحالة أثناء رحلته، هذه الحيرة التي قادته إلى القول إنه جاهل وأدباء العرب مثله في ذلك.

يحاول بعد ذلك الزيادة من مستوى الدهشة فيضيف على المكان بعض الصفات الحضارية والعمرانية، التي تبين جمال البحرين وأن حكامها ليسوا ببذو، يسكنون الخيام، بل يسكنون القصور، ولهم سفن ومراكب شراعية، تطفو على مياه صافية، وفوق هذا فالمنامة مدينة للتجارة بها مخازن للبضائع، ودفاتر حسابات وغير ذلك مما عرفت به المدن الكبيرة، فالغريب في العمل الإنساني المتواصل الدؤوب، هو تصادم مع موقف مخالف للمألوف، تصادم الحاضر بالماضي، نتج عنه إمتاع القارئ، وإفادته بالخبر، تاركا له المجال للتفسير والتأويل.

كما أن السارد يعمل على تدعيم نصه بما يضمن له استمرارية وقابلية عند المتلقي، محاولا إيقاظ الحس الخيالي فيه، ولهذا يكون ((حضور العجائبي في النص الرحلي العربي ليس حضورا استثنائيا، وإنما عنصر عضوي في النسيج السردية))².

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج2 ص 695.

2 - حليفي شعيب ، الرحلة في الأدب العربي، ص 493.

3. حكاية العجيب:

تضمن السرد الرحلي حكايات تضمنت دلالات العجيب والغريب، بالرغم من أن الرحالة السارد لم يتعرض للكثير منها، رغم أنه صاحب البدو وعرب الجزيرة، لكنه لم يكثر من ذكر الحكايات والخرافة، بل ركز على بعض ما رآه خادما لبنائه الفني ضمن الإطار السردى، فهو يريد كشف السياسة العربية من خلال ما رآه من مشاهدات وأفعال الأمراء والحكام، وتأثيرهم على الرعية وعلاقاتهم مع الخارج العربي والأجنبي.

من حكايات العجيب الواردة في نصه، حكاية عن معركة كانت بين الأتراك وبين أهل منطقة عبال، التي كانت تحت حكم السيد الإدريسي، يروي الحكاية على لسان علي بن شيخ عبال، يرويها بشيء من الغرابة، وقد جاء بهذه الحكاية بعد أن قدم خبرا عن نساء عبال وما يتميزن به من السحر الفتان، وكذلك خبرا عن الجنود الذين كانوا معه وصفهم بالعبيد وهم فوق ذلك جاهلون: ((سألت الأبنوسي وهو يركض ويثير بحافريه الغبار، هل أنت دنقلي أو سوداني، فأجاب أبي طلع من البحر وأنا ولدت في البر، في هذا البر، لا أعرف غير ذلك، والمؤكد يا أفندي أنني أسود، قال ذلك وراح يضحك ويهز عطفه))¹.

يأتي بعد هذا خبر المعركة، التي يروي فيها الشيخ بطولة جنوده ويسألتهم، وضعف الأتراك و جبنهم: ((الترك وما أدراك ما الترك؟ هناك -أشار بيده وينتقص أصابعه- هناك عند تلك القرية تحت ذاك الجبل، حفرنا الخنادق، كنا تسعين تسعين فقط، وأطلقنا البنادق على عساكر الدولة، على النظام، وهم خمسة آلاف ومعهم الأطواب، من الفجر إلى أن صارت الشمس فوق

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1 ص 262.

رؤوسنا مثل كلة مدفع مشتعلة، كلة نار ونحن نطعمهم الرصاص، وعند الظهر، والله ونور هذا النهار، خرجنا من الخنادق تسعين لا ننقص واحدا، ومشينا إلى القاع، كانت الأرض مغطاة بالقتلى، مئات من الترك أكلوا رصاصنا وسكتوا، سكتوا إلى آخر الدهر، والباقي تشتتوا وهربوا، فما لقيناهم ولكننا لقينا من البنادق والذخائر والمدافع خيرات، يا له من يوم، كان الواحد من رجالي، يأخذ البنادق ويخبئها وراء الخنادق، ويعود يفتش عن غيرها،.... ابن اليمن مثل الحجر صلب يابس، لا الشمس تحرق رأسه، ولا الرمل يحرق رجله،... هؤلاء من رجالي يمشون بل يركضون اثنتا عشرة ساعة كل يوم ولا يتعبون ولا يتذمرون))¹.

يسرد هذه الحكاية ولا يعلق عليها بشيء، يترك للقارئ الفهم والتعليق، إن جنود الشيخ يختبئون في الرمال المحرقة، قرابة نصف يوم، ولا تصيبهم مدافع الترك، والأرض مملوءة بالقتلى حتى إنّ الجندي يأخذ البنادق ليخبئها ثم يعود ليجمع من جديد، ثم يواصل السارد واصفا مساره الرحلي بلقائه النساء وهن أنواع، منهن من تشبه الأوربيات وأخريات تشبهن العربيات، يعملن مع الرجال في الحقول، ويشاركن في البيع والشراء ((مشينا بين صناديق من الكاز وأثواب من الخام، بين المواعين المصفوفة على الأرض والأكياس، بين الأباريز والحبوب، وإلى جنب كل فرش رجل أو ولد أو امرأة، والناس في الساحة رائحون جاؤون، والنساء بأيديهم السلال أكثر ما هناك يكثران البيع والشراء، أعجبنا من هذا المشهد مظهره النسوي، لأننا لم نر في بلاد اليمن في البلاد العربية كلها خلا العراق، من النساء بقدر ما كان في ساحة باجل ساعة دخولنا إليها))².

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 263.

2 - المصدر نفسه، ص 265.

يجد مظهر النساء غريباً، فقد رسم ثقافة معينة عن العرب وعن نسائها، وما إن شاهدها حتى اندهش واستغرب، لباسها السافر المبدي لمفاتها وما زاده غرابة أنه في رمضان وفي بلد إسلامي.

يوصل سرد الأخبار التي تدل على الغرابة والتعجب، يخبر عن جندي لا يتجاوز خمس عشرة سنة فتى صغير يجب أن يكون مكانه في المدرسة، لكنه موجود في غير ذلك، هذا الفتى كان يرافقه وهو في أرض اليمن التي يحكمها الإمام يحيى، ((كان معنا ولد لا يتجاوز الخامسة عشرة، وهو متزوج فسألته: أين زوجتك؟ ففرقع أصابعه وهو يشير إشارة يمنية لطيفة وقال: هي هناك وراء الجبل، وهو لم يزرها منذ سنة، "ولا أعود إليها والله حتى يصير في جيبى ظلط"، فقال أحد رفاقه: مسكينة تموت ولا تراك))¹.

يعطي تفسيراً للحالة الاجتماعية في اليمن، وكيف يعيش الناس فيها، يشير إلى فتى لا يتجاوز سن الخامسة عشر، جندي ومتزوج ولم ير زوجته منذ سنة، وقد تموت ولا يراها، هي مأساة يصورها الرحالة في هذا المشهد، ما يبقى المتلقى في حالة نفسية يسودها الحزن، ليعود به إلى الزمن الماضي ليعرف حقيقة العرب وحكامهم، فالعرب حينها لم يعرفوا إلا الحرب كما قال على لسان أحدهم ونحن لا نستخدم عقولنا إلا في الحروب.

يوصل الإخبار عن صور الاستغراب، يسوق حكاية أخرى تظهر صورة رفع الشكوى إلى القاضي، ونوعيتها، وحكم القاضي، هي قضية حمار مزعج ((ومن المستغرب المستعذب أن بعض الناس يرفعون شكاياتهم نظاماً، في بيت أو بيتين من الشعر، ومما قرأته من هذه الشكايات

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ج 1 ص 113.

سطران من إنسان يشكو حمار جاره في شهر رمضان، المبارك، فهو يلبط وينهق كثيرا في الليل، فصدر الأمر إلى صاحب الحمار أن يقيده ويشكمه بين مدفعي السحور والإفطار¹.

يرى السارد في هذه الحكاية شيئا من الغرابة المستعذبة، لهذا رسخت في ذاكرته، وثبتت في كتاباته، فالحمار تقيد حريته، إذا أصبح مصدر إزعاج للإنسان، حكاية فيها روح الطرافة، وشيء من الذهنية الشعبية اليمنية، فالسارد يعمل بين الفينة والأخرى على إخراج القارئ من دائرة الضجر، خالقا له متنفسا ليعيده بعدها إلى القراءة، بنفس جديد، ومن الناحية التركيبية نجده يوظف حكاية العجائبي كعنصر جمالي بنائي ((من الممكن جدًا اعتبار العجائبي جزء من المظهر التركيبي للحكاية، أي أنه يمكن أن يدخل في بنية أية حكاية، أو رواية أو قصة بتوظيفه كعنصر جمالي))².

ينتقل من سرد حكاية الحمار، إلى حكاية الأتّن البيضاء المتواجدة في البحرين، ((ومما أدهشني في اليوم الأول من إقامتي في البحرين، -و ليس فيما أقول غير الجد والإعجاب- تلك الأتّن البيضاء التي تفوق حسنا ونشاطا حمير الحساء، ومعلوم أن حمير الحسا ملوك الحمير، وأتّن البحرين أميرات الأتّن، أما السبب في حسنها وسمنها وتدملك ربلاتها، وفي نشاطها المقرون بالحكمة، فهو أن أهل البحرين يطعمونها السمك، ثم يفكهونها بالتمر))³.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 193.

2 - علام حسن ، العجائبي في الأدب، ص 37.

3 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج2 ص 700 .

يرى الغريب في هذه الأثن أنها امتازت بالجمال، وفوق ذلك فهي تأكل السمك وتتفكه بالتمر، إنه لأمر عجب، هو خروج عن المؤلف، ما يدفع بالمتلقي بفتح بوابة خياله و تصور المشهد بصفته يعبر عن لحظة سردية وعن ذات مكتشفة، دون أن يخل بالنظام السردى.

فالمتلقي يتلقى أخبارا متنوعة خاضعة لتسلسل سردي، فهو يُخبر عن التعليم وعن الأدب وعن المعهد الدينى الأمريكى، وما فيه من خدمات طبية وصيدلانية، عيبه أنه يتخذ من التبشير دعاية تنفر البعض منه، فدعا إلى تركها حتى يؤمه أكثر المتعلمين، ثم يخبر بحكاية الأثن، متكلما عن غذائها وعن وظيفتها في النقل، ثم يصف الرجال والنساء مشمرين عن السيقان ليعبروا مياه الشاطئ.

قد أصبح الخبر عنصرا بنائيا متفاعلا مع الحدث ومع اللغة، هذا الخبر الذي تضمن العجائبي، المتفرق على كل المساحة السردية، حاملا ذات الراوى، المتأثرة بالفضاء الذي يحيط بها ((و يتغذى العجائبي في الرحلة من قنوات متعددة، فيخلق ضلالا لا تنعكس، وتؤثر في باقى مفاصل النص الرحلى، لأن الرؤية التى يشيدها الراوى تنطلق من معرفة محكمة بتوجهات معينة ومشبعة بثقافة وبأحكام تتعالق فى مسار الرحلة، معرفة بالذات وبالعالم))¹.

1 - حليفى شعيب ، الرحلة فى الأدب العربى، ص 465.

4. العجيب في شخصية الإمام يحيى:

ارتأيت أن أفرد لشخصية الإمام يحيى عنوانا خاصا وذلك لما أورده له السارد من أخبار تصب في دائرة الغريب والعجائبي، ما لم يذكره لغيره، وقد قلت سابقا أنه خصّ هذه المنطقة - اليمن - بأغرب الأحداث وأهمها، و إن كان يكن الإعجاب الكبير للسلطان عبد العزيز آل سعود، وأعتقد حسب دراستي لهذه الرحلات أنه قام بها لأجل الوصول إلى ابن سعود، و يصرح كم لاقى من الصعوبات في لقائه، لكنها لم تمنعه من المواجهة والصبر حتى التقى بمن أراد.

قد رسم فضاء اليمن فضاء عجائبيا، تقاسمته الشخصيات الموظفة في النص، والمظاهر الطبيعية، والزمن حيث تشكل الحدث الرحلي، مبلغا عن المرئي والمحسوس، واضعا المتلقي في حالة مستقبل متخصص، يدرك مغزى الحديث، ويحسن الربط بين متغيرات المشاهد، فهناك المشهد وهناك قراءة معنى المشهد، وكثيرا ما يرمي السارد إلى الثاني.

يحدثنا عن الإمام يحيى واصفا مظلمته العجيبة التي لا تفارقه في خروجه إلى العامة، ((كنت سمعت بالمظلة المشهورة التي تظل الإمام يوم يؤم المسجد الجامع، فتحف به السادة والعلماء، وتمشي أمامه ووراءه الجنود، وهم ينشدون "الزامل"، تتقدمهم النوبة وثلة من الفرسان، والمظلة وسط الموكب كأنها القبة الزرقاء، المرصعة بالكواكب، وقد مشى تحتها القمر المنير سبل الدنيا والدين، هي ذي المظلة التي طبق ذكرها الآفاق ومعها شقيقات صغيرات ملقاة في الزاوية في طريقنا إلى الديوان، قال رفيقي وقد قبض على أكبرها هذه لصلاة الجمعة، وفتحها فإذا هي كالخيمة

قطرها ثلاثة أذرع، وكلتها مصنوعة من الحرير الأزرق والأبيض المزركش، وعلى أطرافها من الخرج العريض الثمين ما يندر حتى في ملابس السيدات الفخمة¹.

يستهل حديثه بلفظ سمعت، فقد التقط هذا الخبر عن طريق الأذن، بمعنى أنه لم ير هذه المظلة العجيبة، وإنما رأى الشقيقات الصغيرات، عمل على إدراج العجيب ليعطي لنصه صبغة جمالية، تزيد من شعرية الخطاب، فقد قال في مقدمة كتابه أنه سيجد فيه الباحث عن الأدب وجماليته ضالته، وهو لن يحرمه منها وهذا بعض منها.

فلما أخبر عنها عمل على تخيلها وتكوين صورتها في الذهن، فالخيال ((القدرة على تكوين صورة ذهنية لأشياء غابت عن متناول الحس))²، يعمل السارد على الربط بين الصورة والحدث والشخصية برابط لغوي، يعمل على تناسق النص وانسجامه، يدخل هذه الصورة فيما أقره للزبديين بحبهم للفخفة والشهرة، لهذا يكون الإمام قائدهم في هذا، رغم أنه في ديوانه يتصف بالبساطة، فقد دخل عليه ووجد أمامه رزمة من القات وقارورة ماء: ((لم أشاهد في طريقنا إليه، لا في الرواق ولا على الدرج ولا عند الباب شيئاً من تلك الأبهة العسكرية المصنوعة التي شاهدناها في ماوية وفي زمار، حاجب واحد وهو جندي زيدي في عمامته غصن من الحبق، فتح لنا الباب حين رأنا قادمين))³.

هذه مظلته العجيبة، يلحقها بخبر آخر قد يفوقها في العجب والغرابة، تمثلت في خرافة حسب قوله تروى في بلاد اليمن، متعلقة بالحكم الزيدي والشييعي، هي فكرة ضمها السارد إلى

1 - الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، ج1، ص 127.

2 - عصفور جابر ، الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي عند العرب، ص 13.

3 - الريحاني أمين، رحلات ملوك العرب، ج1 ص 129.

نصه، مدعما سرده بخبر تاريخي ديني، حتى يلم بأخبار الإمام ويكوّن صورة واضحة عنه لدى القارئ، يحمل قولاً للشيعّة عن الإمام يقولون: ((لا إمام بعد الإمام الثاني عشر وهو صاحب الزمان، فأمست من العقائد الدينية، التي ينمو فيها مكروب الخرافة، فيفسد الحياة الروحية، ويشين أساليب العبادة فيجعلها سخرية، وجاء في مذهب الزيدية ما ينقضها ويقضي على صاحب الزمان، كأن الزيديين يقولون لخصومهم: إذا أنتم رضيتم بإمام موجود دائماً في كل مكان، ولا يرى في مكان، فنحن لا نرضى، نحن نشتهي أن نرى الإمام أمامنا ولو في مكان واحد، وفي فترة من الزمان))¹.

يعمل على الخبر المسند إلى روايات سابقة، فيها دعم للنص وتأنيث له، كما نلمس نوعاً من الاستطراد، يعود لسرد خبر ديني تاريخي عقائدي، قد لا نجد له صلة وطيدة بالمتن الرحلي، حيث عمل على إيقاف الزمن السردى، عاملاً على التحليل والتعليق في أمر الإمامة، التي يذكر أنها تؤخذ بالسيف وهي لمن غلب، وهذا ما كان قائماً بين قبائل اليمن، فأصبح وجود الإمام ظاهراً للعيان أمراً محققاً، لذا نجد الإمام يحيى أيضاً يشهر سلاحه أمام من وقف معادياً له، وخبر الجندي السابق ذكره يؤكد حالة اليمن التي تعيش حرباً فكرية ودينية وجغرافية.

يبدو أن الرحالة قد أعجب بالإمام يحيى، إلا أنه قد أحجم عن ذكر هذا بنفس النسبة التي ذكر بها ابن سعود، فقد اجتمعت لهذا الإمام صفات غمرتها الغرابة والخرافة، لكننا إذا لمسناها في الواقع قد تخفى علينا، فقد امتازت بالسر والغيب، يرهف الرحالة أذنه للسمع فيلتقط خبراً آخر تمثل في كنوز الإمام، فقد سمع من يقول أن لدى الإمام المدافع والرجال والمال ليخبر عن ذلك قائلاً:

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق، ص 141.

((وقد سمعت عن الثالثة أخبارا شبيهة بأخبار الجن والكنوز المرصودة، فالإمام غني، غني جدا عنده في كل بيت من بيوته في بئر العزب خزنة من الذهب والفضة، لذلك تسمع الحرس في الليل يتبادلون كل ساعة كلمة الأمان، وعنده في شهره، في قنن الجبال هناك كنوز لا يعرف الطريق إليها سواه، وإذا اكتشفت الطريق فالحجر الذي هو باب الكنز لا يعرفه سواه، وإذا عرف الحجر فلا يستطيع أن يرفعه سواه، لأنه موضوع في شكل سر مفتاحه عند الإمام))¹.

إن هذا الإمام غريب الأطوار، عنده المال والكنوز ويرهق العامة بالضرائب، ما تسمى عندهم بالزكاة، يدفعها الفرد وإن لم يكن يملك شيئا، يعمل السارد على تركيب صورة غريبة لشخصيته، يحملها مجموعة من المتناقضات، تترك القارئ يبحث عن حقيقتها، ويتساءل عن هدف السارد من هذا التقديم وعن سر هذه التراتبية في السرد.

هي موضوعية تتخللها ذاتية، يعبر عما شاهده وسمعه من خلال منظاره هو، راسما صورة للآخر حسب مكتسباته الثقافية، وحسب ما يريد للقارئ أن يفهم منه، فرحلته رسالة للآخر، أراد أن يبلغ فيها رسالة محددة، يجب أن يصل إليها المتلقي.

يوصل وتيرة الإخبار لينتقل إلى باب الكرامات، إن الإمام من أولياء الله، فقد شهد له بالعلم والتقوى والصلاح، إنه يخرج للعامة ويسمع شكواهم فيعطي لكل ذي حق حقه، طفلا كان أو امرأة، مسكينا أو فقيرا، ((فقد رأيت بعيني ما يثبت رواية الخادم مدني، بل رأيت حضرة الإمام وهو يجلس

ساعة وساعتين، كل يوم دون تأفف وتذمر، فيسمع شكاوي الناس واعيا صابرا، طلق المحيا، عطوفا شفيقا، فيقضي بينهم في بعضها ويحيل البعض الآخر على المحكمة الشرعية¹.

يثبت له صفتي التواضع والعدل، لكنه يتساءل في أمر لم يجد له جواب حين رأى الإمام ينهض لخدم رفيقه قسطنطين، وحين دخل عليه هو ورفيقه لم ينهض لهما، ((ينهض لخدمنا ويستقبلنا جالسا، والسر لا يزال سرا نزفه إلى القارئ و نسأل له التوفيق في اكتشافه واكتناهه))².

يوجه سؤالا خاصا للقارئ، يريد الغوص به في أعماق نصه، كما لا يريد أن يبتعد عن حدوده، فإن لم يكن قد فهم يعود للقراءة حتى يكتشف ولو معنى مقربا من الحقيقة، تلك الحقيقة التي تتخلل النص بما فيه من متناقضات ومتغيرات، يحكمها الفضاء الزمني للتجربة الرحلية والكتابية.

يدرج السارد خبرا عن الإمام على أنه من باب الكرامات كما قال، وهو يماثل ما يعرف بالرقية، فقد جاء شاب إلى الإمام يشكو داء الصرع في رأسه، وقد جرب كل ما وصف له من الأعشاب الطبية، لكنه لم يشف: ((فجاء إلى الإمام ضارعا مستشفيا، فلباه الإمام، أخذ الكتاب فقرأ بضع صفحات فيه، ثم تناول ورقة كتب فيها آية من آياته الكريمة، ووضعها في كأس من الماء وحركها وهو يتلو الآيات، ثم أعطاه الكأس قائلا: إشرب باسم الله، فشرب المريض الماء، فقال الإمام: اذهب في شأنك، قد شفيت بإذن الله، وهذه قصة واحدة في الكرامات من عشر سمعتها))³.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 160.

2 - المصدر نفسه، ج 1 ص 160.

3 - المصدر نفسه، ص 164.

وللإمام كرامة أخرى تمثلت في التنبؤ، أو ما يسمى بالتشوير، يذكر هذا الخبر ولا يعين مصدره، أسماعا أم عيانا، يذكره مباشرة، قائلا: ((أما التشوير وحضرته القدسية تشور أيضا، فإليك بمثل منها جاءه ذات يوم بعض العريان شاكين ناقلين فمنعهم عنه، فوقفوا في الساحة تحت النافذة ينادون ويهددون الإمام، فأطل حضرته عليهم وأنبهم فتارت في رأس واحد منهم النخوة بل النقمة العربية، فأطلق بندقيته، فقال الإمام، رصاصك بين عينيك قبل أن تغرب هذه الشمس، وعاد إلى مجلسه، إلى فراش الملك مطمئنا، وراح العريان إلى المدينة و هو يصيحون ويستنفرون، ولكن الذي أطلق بندقيته تخلف عنهم فجلس عند بوابة صنعاء يستريح والبندقية بين يديه، وفمها تحت أنفه، نعس الرجل ونام، ثم تحرك حركة المستيقظ، فأطلقت البندقية عرضا فأصابته الرصاصة في جبينه، بين عينيه، وكان ذلك قبل غروب الشمس!!¹.

يختم كلامه بعلامة تعجب، لا يعرف صحة هذا الخبر من باطله، لكنه خبر جاء ضمن البناء السردى، مدرجا إياه تحت عنوان قدسية الإمام، نجده قد كتب عن الإمام بمرجعية دينية زيدية شيعية، قدمه كما هو عند فئة من شيعته، كما قدمه للقارئ في صورة يحفها العجيب والغريب، فكان الإمام بذلك مادة للسارد أطبق عليها ما يريد من صور العجائبي، فأكد أن السارد اطلع على كثير من كتب الرحلات السابقة، ولم يشأ أن يكون نصه خاليا منها فجاء بما ذكر وأظهر.

1 - الريحاني أمين، المصدر السابق ، ص 165.

الخاتمة

في خاتمة هذا البحث سأحاول تسجيل النتائج المتوصل إليها من خلال الدراسة، و قد تبين أن الرحلة فن تعبيرى، يخضع لنظام سردي معين، و لبناء تشكيلى خاص، يتحكم فيه السارد وفق رؤية معينة.

تعتبر الرحلة عن المواقف الفكرية للرحالة، و تحدد نظرتة للآخر، فالرحالة ينطلق في رحلته لغرض خاص و أصلي، تحفه مجموعة من الأهداف الفرعية، التي قد تتحقق أثناء الرحلة، معتبرا الآخر الهدف الأصل، و ما يصاحبه من مناظر طبيعية، و اكتشافات علمية، هي أهداف فرعية. إن النص الرحلى هو إبداع إنسانى جاء لمدّ صلات التعارف بين أفراد المعمورة، وتقليص المسافات بينهم، فالفرد يعيش في ظل المجموعة، عاملا على التأثير و التأثير.

يعمل السارد على رسم صورة غيرية، لما يصادفه من شخصيات و عادات وثقافات متنوعة، فيكون بذلك آلة تصوير و تسجيل مباشر، حاملا تجربة ذاتية إلى القارئ.

قد تختلف الدوافع و الأهداف للفعل الرحلى، لكننا في الأخير نحصل على نص كتابى، قوامه اللغة و جمالية تصوير الحدث.

لكل رحلة مسار رحلى معين، فيه نقطة انطلاق و مرحلة عبور و نقطة وصول، وقد نجد في بعض الرحلات، وصف طريق العودة الذى كثيرا ما يتسم بالتسريع فى السرد، والنص الذى عملنا عليه يخلو من هذه الميزة، و لا توجد أية إشارة إليه.

حوت الرحلة شخصيات محورية، تمثلت في الملوك و السلاطين، و قد أشار الرحالة في عنوانه إلى ذلك، رحلات ملوك العرب، فكانت هي الشخصيات الرئيسية، وجاءت الشخصيات الأخرى خادمة و تابعة لها.

امتاز الفضاء في الرحلة بتنوعاته بين فضاءات مغلقة و أخرى مفتوحة، وهي الفضاءات التي كان يرتادها الرحالة، و كثيرا ما فسرت هذه الفضاءات بخلفية نفسية فكرية، فيكون الفضاء بذلك انعكاسا للذات.

جاءت لغة النص الرحلي لغة مباشرة، و أحيانا رمزية إيحائية، تتطلب من القارئ الناقد ثقافة موسوعية، و هذه تعتبر إحدى إشكاليات قراءة النص الرحلي، كما امتازت بالاستطراد و التعليق عن الحدث، محاولا بذلك السارد إقناع القارئ.

كما حوت لغة السرد الرحلي أسلوب المجاز، الحامل للتشبيهات و الكنايات، الرامي إلى رسم صورة تقرب المعنى من القارئ، و تظهر مقدرة السارد في تعامله مع المشهد، كما اتسمت هذه اللغة بالأسلوب التقريري الهادف إلى إبلاغ الخبر، و تقديم تفاصيل يراها السارد مهمة.

اعتبرت الكتابة الرحلية استرجاع لأحداث ماضية عبر قناة الذاكرة، فتكون الكتابة عبر زمنين متباينين، زمن الفعل الرحلي، و زمن الكتابة المعاصر، و نستطيع القول أن الذات أثناء الرحلة، ليست هي الذات أثناء الكتابة.

اهتم النص الرحلي بأسلوب الوصف، فجاء على ضربين تفصيلي و تعبير، حيث أتبع السارد كل وصف بما يناسبه، فكثيرا ما كان التفصيلي مرتبطا بالشخصيات، فيكون وصفه

موضوعيا، فهو بصدد وصف شخصيات لها مكانتها الاجتماعية، فيذكرها بكل ما تحمله من إيجابيات و سلبيات، محافظا على مكانتها الاجتماعية والسياسية، والتعبيري في وصف الطبيعة، خاصة عندما يربطها بماضيه، فحينما يتكلم عن الشخصيات فهو يريد تقديم حقيقة للقارئ، و يدخل هنا ضمن دائرة المؤرخ.

من خلال الدراسة تبين أن السارد قد أغفل كثيرا من الأماكن التي نشعر أنه مرّ بها، لكنها لم توصف، فيكتفي بذكر الاسم فقط، و كأنه كان يعمل على مناطق خاصة، وخاصة تلك التي تكون عبارة عن محطات للراحة، هي من تفوز بانتباه عين الرحلة، أما الأماكن الأخرى فلا يجد فيها ما يستحق الوصف، فالوصف هنا مرتبط بالذات و إدراكها.

اهتم الرحالة بالجانب الاقتصادي للمناطق التي زارها، مبينا لحركة التجارة والصناعة والزراعة، كما أشار إلى أهمية الموارد المائية، في حفظ التوازن البيئي.

إن مواجهة الآخر تعني مواجهة اللامألوف، فالرحالة سيدخل فضاء العجيب والغرائبي، الذي رآه يتحرك في فضاءات مختلفة، متروحا بين الطبيعة و الإنسان، يجد ما يخالف ثقافته وحضارته، لينتج هذا العجيب لغتين لغة السخرية و الطرافة، كما ينشئ لغة التعجب التي تحفها الدهشة و الإعجاب، مثلما نرى تعجبه بشخصية السلطان عبد العزيز آل السعود مكبرا إياه.

كانت رحلات أمين الريحاني عبارة عن مقارنة بين العالم الغربي و العربي، فقد سافر إلى الغرب و رأى حضارتهم و سلوكهم، و حدد معنى ممارسة الديمقراطية عندهم، حاول نقلها إلى العرب، مساعدًا إياهم على الالتحاق بالحضارة.

بالرغم من ذلك يبقى النص الرحلي نصا مفتوحا يحتاج لقراءات متعددة، خاصة إذا كنا أمام رحالة اكتسب ثقافة واسعة، و حاول كتابة الذات الإنسانية دارسا إياها من كل جوانبها، فهو بذلك قد أعطى للرحلة غموضا عمّ الذات، فكلما تطور إدراك الذات تطور معه النص الرحلي.

المصادر و المراجع

1. المصادر:

1. القرآن الكريم
2. العبدري أبو عبد الله ، رحلة العبدري، تحقيق و تقديم، د.علي إبراهيم كروي، دار سعد الدين للطباعة والنشر و التوزيع،، دمشق، ط.2، 2005.
3. ابن حمادوش الجزائري عبد الرزاق، رحلة ابن حمادوش الجزائري، تقديم وتحقيق أبو القاسم سعد الله، الجزائر، عالم المعرفة، طبع خاصة 2011.
4. ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ، كتاب العبر وديوان المبتداء والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، بيروت لبنان، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، 1971.
5. أبي الفرج قدامة ابن جعفر، نقد الشعر، تحقيق و تعليق محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية د.ط، د.ت.
6. أنساعد سميرة ، الرحلة في الأدب الجزائري، عين مليلة الجزائر، دار الهدى ، 2009.
7. البادي عوض ، الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية 1845-1922 منطقة الجوف ووادي السرحان، ط.2، بيروت، الدار العربية للموسوعات، 2002.
8. بوغلا أحمد ، الرحلة الأندلسية الأنواع و الخصائص، ط.1، الرباط، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، 2008.
9. جبر جميل ، أمين الريحاني في سيرته و أدبه، مراجعة بشير قبطي، ط1، 2006، سلسلة ما قل و دل، نوفل.

10. جورج غريب، أدب الرحلة تاريخه و أعلامه، المسعودي ابن بطوطة، الريحاني، بيروت، دار الثقافة.
11. الحاتمي محمد ، الرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي، ط.1، مطبعة المعارف الجديدة، 2012.
12. حسين محمد فهميم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، العدد 138، مطابع الرسالة، الكويت.
13. حليفي شعيب ، الرحلة في الأدب العربي التجنيس، آليات الكتابة خطاب المتخيل، ط.1، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، 2006.
14. الريحاني أمين ، القوميات تقديم و تحقيق أمين ألبرت الريحاني، ط.1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1983.
15. الريحاني أمين ، تاريخ نجد الحديث، تقديم و تحقيق أمين ألبرت الريحاني، ط.1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980.
16. الريحاني أمين ، رحلات ملوك العرب، تقديم و تحقيق أمين ألبرت الريحاني، ط.2، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1986.
17. الريحاني أمين ، قلب لبنان، ط.1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1980.
18. الريحاني أمين ، هتاف الأودية، ط.1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1986.
19. زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد و أخبار العباد، دار صادر بيروت.
20. الشاهدي الحسن، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ط.02، الرباط، منشورات عكاظ ، 2002.

21. الشوابكة، نوال عبد الرحمن أدب الرحلات الأندلسية والمغربية، حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط.1، عمان الأردن، دار المأمون للنشر والتوزيع، 2008.
22. الشيخ عبد الرحمن بن إدريس التتيلاتي، الرحلة، تحقيق خير الدين شترة، الجزائر، دار كردة للنشر و التوزيع بوسعادة طبعة خاصة، 2015.
23. صحراوي عبد السلام ، أمين الريحاني في حياته و رحلاته، منشورات اتحاد كتاب العرب، سلسلة الدراسات (4)، د.ط، 2010.
24. الطهطاوي رفاة رافع ، تخلص الابريز في تلخيص باريز، أو الديوان النفيس بإيوان باريس، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة تونس، د.ط، د.ت.
25. العسكري أبو هلال ، الفروق اللغوية، حققه و علق عليه، محمد ابراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت.
26. العلوي سعيد بنسعيد ، أوربا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، ط.1، الدار البيضاء، كلية الآداب الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، 1995.
27. عمر بن قينة، اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، بن عكنون الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995.
28. فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ط.2، مدينة نصر مكتبة الدار العربية للكتاب، ، 2002.
29. القلصادي أبي الحسن علي الأندلسي، رحلة القلصادي، دراسة و تحقيق د.محمد أبو الأجفان، ط.1، دار ابن حزم، 2011.

30. القيرواني أبي علي الحسن ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت لبنان، دار الجيل ، د.ط، د.ت.
31. الساوري بوشعيب ا، دراسة في إنتاج النص الرحلي رحلة ابن فضلان نموذجاً، ط.1، الدار البيضاء، دار الثقافة للنشر و التوزيع، 2007.
32. المسعودي أبو الحسن علي ، مروج الذهب و معادن الجواهر، تحقيق سعيد محمد اللخام، ج1، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، 2000.
33. مودن عبد الرحيم ، أدبية الرحلة، ط.1، الدار البيضاء، دار الثقافة للنشر و التوزيع، 1996.
34. مودن عبد الرحيم ، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر مستويات السرد، ط1، بيروت لبنان، دار السويدي للنشر و التوزيع، 2006.
35. مودن، عبد الرحيم الرحلة في الأدب العربي، النص النوع السياق ، المغرب، أفريقيا الشرق، د.ط ، 2006.
36. الورتلاني الحسين ، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار المشهورة بالرحلة الورتلانية، تعليق ابن مهنا القسنطيني، الجزائر، المعرفة الدولية للنشر و التوزيع، 2011م.
37. وهبة حافظ ، جزيرة العرب في القرن العشرين، ط.1، بيروت لبنان، الدار العربية للموسوعات، 2010.

2. المراجع:

1. حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، الفضاء الزمن الشخصية، ط.2، الدار البيضاء المغرب، المركز الثقافي العربي، 2009.
2. الداية فايز ، جماليات الأسلوب الصورة الفنية في الأدب العربي، بيروت لبنان، دار الفكر المعاصر، 2003.
3. الدراجي بوزيان ، القبائل الأمازيغية : أدوارها، مواطنها ، أعيانها، الجزائر، دار الكتاب العربي ، د.ط، 2007.
4. روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة د. تمام حسان، ط.2، القاهرة، عالم الكتب، 2007.
5. الزاهي فريد ، الصورة و الآخر رهانات الجسد واللغة و الاختلاف، ط.1، اللاذقية سوريا، دار الحوار للنشر والتوزيع، 2013.
6. سليمان الإبراهيم ميساء ، البنية السردية في كتاب الإمتاع والمؤانسة، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، 2011.
7. شرف عبد العزيز ، الأدب الفكاهي، ط.1، لونغمان، الشركة المصرية العالمية للنشر، 1992.
8. عصفور جابر ، الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي عند العرب، ط.3، المركز الثقافي العربي، 1992.
9. علام حسن ، العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد، ط.1، الجزائر، منشورات الاختلاف، 2010.

10. علوش سعيد ، مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، الشركة العالمية للكتاب، ط.1، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1987.
11. الغدامي عبد الله ، ط.1، بيروت، الكتابة ضد الكتابة، دار الآداب 1991.
12. قادري عليمه ، رحلة السرد السندباد يعود من بعيد، ط.1، عنابة الجزائر، دار الكاتب للطباعة والنشر والتوزيع، 2013.
13. محمد طه زيدان يوسف ، عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب، ط01، بيروت، دار جيل 1991.
14. مرتاض عبد الملك ، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة العدد 240، ديسمبر 1998.
15. الهوال حامد عبده ، السخرية عند المازني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، 1982.
16. يقطين سعيد ، السرد العربي، تجليات و مفاهيم، ط.1، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، 2006.

3. الرسائل الجامعية:

1. آل حمادي عبد الله بن أحمد حامد ، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير، جامعة أم القرى، إشراف الدكتور محمد صالح جمال بدوي، السنة الجامعية: 1997.
2. إيلي ج. مقبل، النزعة العربية في حياة أمين الريحاني و مؤلفاته، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، الجامعة الأمريكية ببيروت، 1975.
3. محيد سايمة، شعرية اللغة الروائية في ذاكرة الجسد، رسالة ماجستير، إشراف د.نادية تيحال، المدرسة العليا للآداب و العلوم الإنسانية، بوزريعة الجزائر.
4. المحمود صفاء ، البنية السردية في روايات خيرى الذهبي الزمان و المكان، بحث لاستكمال مستلزمات الماجستير، إشراف أ.د غسان المرتضى، 2009-2010، جامعة البعث كلية آداب و اللغات

4. الندوات:

1. أمين الريحاني والتجدد العربي تحديات التغيير في الأدب والفكر والمجتمع، تحرير د.نجمة حجار، مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع جامعة سدني أستراليا، ط.1، 2012،بيروت.
2. الرحالة العرب والمسلمون، اكتشاف الآخر المغرب منطلقا وموتلا، (أعمال ندوة)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص.1، 2003.

الملخص باللغة الأجنبية:

Résumé de la thèse :

Le voyage est considéré comme un besoin inné chez l'humain. Il a donc entrepris des voyages à la recherche de vivres et de tout ce qui lui était inconnu : paysages, us et coutumes ; comme il a voyagé pour le savoir et pour connaître d'autres peuples. Connaître l'Autre qui vit loin.

L'un de ces voyageurs est Amine ELRIHANI qui est allé sur l'Ile des Arabes, nous léguant un patrimoine narratif de voyage dont nous avons tenté d'approcher la méthode d'écriture. Pour ce nous avons posé la problématique suivante : De quelle nature est l'écriture de voyage de l'auteur Amine ELRIHANI ?

Le voyage est perçu comme un parcours de grande importance dans l'existence humaine, ce pourquoi il a suscité notre intérêt et désir de caractérisation et classification du voyage littéraire pour étudier ainsi la littérature de voyage. Une littérature ayant touché au religieux, au social et au politique pour devenir un texte culturel digne d'être étudié dans le but d'en ressortir les plus importantes dimensions intellectuelles et esthétiques.

Nous tentons par là-même d'ouvrir de nouveaux horizons d'études littéraires et asseyons de traiter ainsi la problématique de la caractérisation et classification de ce genre littéraire qui reflète la réalité de l'individu et du groupe, délimité par un temps défini et des lieux spécifiés, et suivant un itinéraire de voyage particulier.

Pour ce faire, nous avons adopté une approche descriptive et analytique dans l'étude des personnages et des lieux insérés dans le récit de voyage. Nous avons également eu recours à l'approche structurale pour

analyser les structures textuelles nous menant vers le côté esthétique du texte.

Nous sommes parvenus à des résultats proportionnels, étant donné que le récit de voyage est un texte littéraire déterminé par plusieurs composantes humaines : sociale, religieuse et politique. Ajoutant à cela le fait que l'écriture de voyage est une action d'imagination et de représentation répétée de l'acte de voyage qui est lié à un temps passé. Il est, en outre, possible d'aborder ce texte avec plusieurs lectures susceptibles de nous conduire à des résultats différents, ce qui maintient le récit de voyage ouvert à toutes les approches critiques, et porteur d'un original patrimoine humanitaire.

فهرس المحتويات

الفهرس:

إهداء:	2
كلمة شكر و تقدير:	3
ملخص الأطروحة:	4
المقدمة:	7
التمهيد:	15
1. ماهية أدب الرحلة:	16
2. ترجمة أمين الريحاني:	25
3. دوافع الرحلة:	31
الفصل الأول: الصورة السياسية	47
1. صورة السلطان:	48
أ. الملك حسين:	49
ب. الإمام يحيى:	53
ج. السيّد الإدريسي:	57
د. السلطان عبد العزيز آل السعود:	61
2. صورة الإنجليز:	67
3. صورة الصّراع السياسي:	71
الفصل الثاني: الصورة الاجتماعية	79
1. صورة البدو و الحضر:	79
2. صورة المرأة:	89
3. صورة الأجناس البشرية:	98

4. صورة العبيد (النخاسة):	103
5. صورة المدينة:	105
6. صورة الصحراء:	120
7. صورة التجارة:	124
8. صورة الزراعة و موارد الماء:	127
9. صورة الصناعة:	135
الفصل الثالث: الصورة الدينية:	141
1. صورة الدين بين الفرد والجماعة:	142
2. صورة الصوفية:	149
3. صورة الوهابية:	160
4. صورة الكنائس:	164
الفصل الرابع: السرد الرحلي	168
(المسار الرحلي):	168
ا. سرد العبور:	168
1. الرحلة الحجازية:	172
2. الرحلة اليمنية:	177
3. الرحلة العسيرية:	182
4. الرحلة النجدية:	187
II. الكتابة التقريرية:	193
1. الخبر التاريخي:	194
2. الخبر الاجتماعي:	199

3.	الرسائل:	204
4.	التراجم:	209
5.	الحكاية:	215
	الفصل الخامس: جمالية الوصف	218
1.	وصف المدن:	218
2.	وصف الأشخاص:	231
أ.	وصف الحكام:	231
ب.	وصف الشخصيات المرافقة:	248
3.	وصف الأشياء:	255
أ.	وصف القصر:	255
ب.	وصف الفسطاظ و الشمس:	257
ج.	وصف الطعام:	258
	الفصل السادس: تمثلات العجائبي:	265
1.	الآخر العجيب:	266
أ.	العادات:	267
ب.	الصوفية و الكرامات:	271
2.	الفضاء العجيب:	277
3.	حكاية العجيب:	283
4.	العجيب في شخصية الإمام يحي:	288
	الخاتمة:	295
	قائمة المصادر و المراجع:	300

الملخص باللغة الأجنبية: 307

فهرس المحتويات : 310